

لجنة البحوث العربية

الغزل عبد العرب

تأليف

حسان أبو رحاب

مدير إدارة التحريرات العربية بوزارة المعارف

[حقوق الطبع محفوظة للمؤلف]

الطبعة الأولى

الطبعة الأولى

مطبعة مصر للطباعة والنشر
١٠ شارع برادشا (ساحل الدمام)

١٣٦٦ - ١٩٤٧

مقدمة

للسياسة فضل علىّ في تأليف هذا الكتاب .

ذلك أن الحزبية لا زالت في بلادنا تخلط بين الرأى السياسى ، وبين الوظيفة ، وكأن الوظيفة ملك لهذه الأحزاب تمنحها الأعوان والأنصار ، وتحرمها المعارضين والخصوم . وعندى أن هذا بلاء ندعو الله أن يجنب مصر ويلاته ونكباته . فالموظف فى وظيفته ملك للدولة . . . وهو أياً كانت مرتبته خادم لأمته ، شأنه فى ذلك شأن الرئيس أياً كانت مرتبته . وإذا أديا الوظيفة بأمانة وإخلاص ، كانا محل تقدير واحترام ، وإلا فالويل لهما كل الويل .

نقلت إلى بنى سويف جزاء أن أعلنت رأى السياسى ، ولو أن هذا الاعلان كان قبل دخولى الوظيفة ! وقد فكرت أن أستقيل . ولو فعلت لكنت من أغنياء هذه الحرب ! . . ولكن الله سلم ! . .

ويظهر أننى لم أفعل لأمر قضاه الله : وهو هذا الكتاب .

كانت لى بمصر أعمال كثيرة شغلتنى عن القراءة ، والكتابة ، والتأليف . وليس الأمر كذلك وأنا « فى بنى سويف » لأنه ليس فيها ما يشغل وقت الفراغ سوى المقاهى ، وهى بغيضة إلىّ ، وأعتبرها مثابة للوكالة الخاملين .

كان لا بد لى إذن من أن أقرأ . وأن أتابع القراءة ، وانصرفت بنوع خاص إلى قراءة كتب الأدب قديمها وحديثها .

وفى ذهنى منذ أن كنّا نتلقى العلم أن للشعر العربى أبواباً ، وضعوا لها حدوداً

ومعالم هي : الحماسة ، والمدح ، والنسيب ، والوصف ، والزهد ، والهجاء ، والثناء .
فأخذت أبحث في المكتبة العربية عن كتاب أو كتب في هذه الأبواب بعينها .
فلم أجد أحداً إلا أقوالاً مبعثرة ، ومقالات متناثرة ، وخاصة لبعض أدبائنا المعاصرين .
فسألت نفسي في شيء من الحسرة والألم : كيف يقعد بنا العزم ، فلا نخدم الأدب
العربي ، في ناحية من نواحيه ، لها أثرها ونفعها ، ومكانتها ؟ . أهذا جحود ؟ . أو عجز
أو إهمال ؟ .

طغى علينا سيل الترجمة ، حتى امتلأ الإناء وفاض .
وطغى علينا حب الترجمة ، حتى غلبنا في كل شيء .
أنا لا أدعو إلى أطراح المعرفة بما يجري في أمم الغرب من علم ، وأدب . ومدنية
وحضارة .

ولكني لا أفهم أن يكون هذا هو كل شيء .
أفهم أن نعرف هذا . وأن نعرفه عن يقين وتفكير . ولكن لتذوقه ، ونجني
من ثماره ما يعود علينا بالخير في علمنا ، وأدبنا ، ومدنيتنا ، وحضارتنا .
إن من الواجب ألا ننسى قوميتنا . بل من الواجب ألا ندّخر وسعاً في أن نرفع
هذه القومية ، بكل ما أوتينا من قوة . وبهذا نكون أهلاً للحرية ، وللمجد الذي
نصبو إليه ، ونجاهد في سبيله .

وإن في خدمة الأدب ودراسته ما يوحى إلينا من مثل كريمة : تهذب النفس ،
وتصقل الحس ، وتفتق الذهن ، وترقى بالعقل . كل هذه أمور يجدر بنا أن نحرص
عليها ، ونعص بالنواجذ .

ما هو الغزل ؟

ثم لم شُغِفَ العرب بالغزل ؟

وما هو الأثر الذى يعود على الناشئ والقارىء إذا درس الغزل ، وفهم معانيه ،
وتذوق مرامييه ؟ وكـم له من مرام ومعان !

هذه أسئلة يجب أن يكون لها أجوبة ، وأن تفصل هذه الأجوبة فى دقة ،
وبحث ، وأناة .

فأين الكتاب الذى عالج هذه المسائل ؟ ويجد فيه القارىء ما يروى ضمناً .
ويشفي غلته .

وقل مثل هذا فى سائر أبواب الشعر .

وقد آلمنى أن لم أجد كتاباً خاصاً يتحدثنا عن كل باب من أبواب الشعر
العربى ، بل كتباً يتبارى فيها المؤلفون ، ويتنافس الأدباء . لكل ذوقه ونهجه .
ولكل طريقة تفكيره ، وبيان وجهته . وفى ذلك خير للأدب وللنشء الذين يدرسون
هذا الأدب .

أحسست إذن بنقص فى الكتب التى بأيدينا . وبنقص فى العناية بالكتابة عن
أبواب الشعر العربى ، على هذا النهج الذى ذكرت .

واعترفت أن أعالج هذا النقص بالأسلوب الذى أراه وبالتفكير الذى أهتدى
إليه . وأنا أعلم أن الطريق محفوف بالصعاب . يكلف من يرتاده ضرباً من العسر ،
والعناء . ولكن الكاتب لا يضيره ما يلقى من صعوبة أو تعب ، بل عليه أن يحاول ،
وأن يتأنى الفكرة ، وأن يدقق البحث ، وأن يكون الإخلاص رائده . ولعله بعد ذلك
يكون ناجحاً موفقاً ، أو يكون أقرب إلى النجاح والتوفيق .

لهذا شحذت العزم ، ودأبت على العمل ، وقد عوّقني ، طُلَّ على عبء
الوظيفة ، وعبء أعمال أخرى ، تأخذ من وقتى وجهودى . وطال العهد ، وتباطأ

جنى الثمر . وخاصة يعد أن عدت إلى القاهرة ، فعادت إلى كثرة من هذه الأعباء .
ورعى الله الإسكندرية . حيث كانت تُضفي على بمائها ، وهوائها ما أعاننى بعض
العون ، فى تأليف هذا الكتاب .

وقد اتسع أمامى الأفق .

لا بد أن أتحدث عن الشعر : كيف نشأ ؟ وكيف تطور ؟ وكيف مثل حياة
العرب ؟ وكيف اتجه إلى هذه الأغراض من : مدح ، وحماسة ، وغزل ، ووصف ،
وزهد ، وهجاء ، ورثاء ؟

والغزل نفسه فيه نواح كثيرة لا بد من علاجها ، كل ناحية فى كتاب .
فما العمل ؟

تمنيت أن يكون المؤلف أضعاف وقته . وأن تكفل له الراحة ، ويكفل له العيش .
إذن لأفاد ، وأثرت اللغة العربية من هذه الفائدة .
ولكن لا تجدى الأمانى .

وإذا صحَّ العزم . وخلصت الفية ، تحقق ما نريد ، ولو طال المدى .
إذن سأتابع هذه السلسلة . وسيكون لكل سلسلة كتاب :
كتاب الشعر وتطوره .

كتاب الغزل .

كتاب شؤون الغزل وشجونه .

كتاب جمال المرأة والغزل .

هذه أربعة كتب سأبدأ بها العمل .

أما الكتاب الأول فضرورة لابد منها لمن يعالج أبواب الشعر . وكنت قد رأيت
أول الأمر أن يكون مقدمة للغزل . ولكنى وجدته واسع المدى ، بعيد الخطر ، فرأيت
أن أفرد له كتاباً خاصاً .

كما كنت قد رأيت أن أجعل للغزل كتاباً واحداً . ولكن وجدت أنه سيتسع ،
وسيتضخم ، وقد يمل القارئ من هذه السعة ، ومن تلك الضخامة . فرأيت من
الحكمة أن يكون كتباً ثلاثة . فإذا انتهيت من هذه الكتب الأربعة عن الشعر ،
وعن الغزل ، أتجهت إلى أبواب الشعر الأخرى ، أعالجها على نحو ما عالجتها به الغزل .
وأرجو ألا يطول بي المدى .

ولم بدأت بالحديث عن الغزل . دون أبواب الشعر الأخرى ؟
ذلك سؤال لا أحتاج في الجواب عنه إلى كبير عناء .
فالغزل أكثر أبواب الشعر من حيث الكم . وأغنى أبواب الشعر من حيث
الدوق ، والفن ، والعاطفة .

ولأمر ما كان الغزل كذلك ؟
الغزل غناء وطرب ، بهجة وسرور .
ومن ذا الذى لا يحب أن يكون دوماً مبتهجاً طروباً ؟
الغزل حب وإخلاص .

ومن ذا الذى لا تهفو نفسه إلى الحب ؟ ولا ترنو إلى الإخلاص ؟
وأياً قدح فى الغزل القادحون ، وقالوا إن فى بعضه عبثاً ، وفى بعضه لهواً . فإن
النفس البشرية مهما ارتقت وسمت تمنح ولو فى بعض الأحيان إلى اللهو والعبث
فما بالك إذا كان بريئاً ، طاهراً ، كريماً .
الغزل وجه الحياة المشرق الضاحك .

ومن ذا الذى يفر من النور إلى الظلام ، ويؤثر العبوس على الإشراق
والابتسام ؟

الغزل حديث القلب والعاطفة .
ولغة القلوب تستهوى القلوب ، ولغة العاطفة تحنو لها العاطفة .

على أنى لا أفهم الغزل فى هذا كله فحسب ، ولكنى أفهمه فناً يوحى الجمال :
جمال الذوق . وجمال الحديث ، وجمال الفكر ، وجمال الأسلوب . وأفهمه درساً ، يوحى
كثيراً من الأخلاق ، التى يحتاج إليها الإنسان الكريم .
ستعرف ذلك كله تفصيلاً حين تقرأ كتب الغزل هذه التى أشرت إليها آنفاً .
حين تقرأها بقلبك . ووعيك . ولعلك تؤمن معى أننى ألفت هذه الكتب عن فكرة
وغاية . أرجو أن يدركهما القارىء فيما بسطت ، وحسبى فيما فعلت أننى ابتغيت
الخير ، وعلى الله توكلت وإليه أنيب .

حسان ابورحاب

الفاخرة فى { ربيع الأول سنة ١٣٦٦
فبراير سنة ١٩٤٧

الباب الأول

معنى الغزل - الفاظ

الفصل الأول

معنى الغزل

أجمع علماء اللغة على أن الغزل معناه التحدث إلى النساء والتودد إليهن .
وتشمل مادة « غزل » في اللغة ثلاثة معان :

١ - غزل الصوف - يغزله من باب ضرب . مده وقتله خيطاناً ، ومنه المغزل
بكسر الميم وضمها ، عند تميم .

٢ - غزل المرأة - يغزل من باب فرح - حادتها وأفاض بذكرها .

٣ - أغزلت الظبية - صار لها غزال . فالغزال ولد الظبية .

هذه ثلاثة معان لكلمة « غزل » فهل يوجد ارتباط بين هذه المعاني ؟ يجمع
بينها في باب واحد ، وإن اختلفت الغايات وأعددت السبل .

نعم يوجد ارتباط وثيق بين « غزل الصوف » و « مغازلة المرأة » و « غزال الظبية » .

قال الزجاجي^(١) - : أصل المغازلة : الإدارة والقتل . لإدارته عن أمر . ومنه

سمى المغزل لاستدارته وسرعة دورانه . وبه سمي الغزال لسرعة عدوه ، وسميت الشمس
الغزالة لاستدارتها وسرعتها .

وإذا شئنا أن نبسط هذا المعنى بعض البسط قلنا :

إن الغزل بالمرأة يتطلب من الرجل أن يتحدث إليها وأن يكون حديثه مؤثراً جذاباً حتى يستميلها إلى وده ويستهوئها إلى حبه . وهو في هذه السبيل يسلك شتى الوسائل ويركب صعب الأمور . يحتال إذا وصل بالحيلة إلى غايته ، ويدارى إذا نفعت المداواة ، ويتذلل لها ، ويتوسل إليها لعل ذلك يغنى من الأمر شيئاً . والمرأة بين هجر ووصال وتمنع ودلال . وفراق ولقاء لا تكاد تلقاتك باسمه المحيا فتتعم بهذا الرضا حتى تنقلب عابسة الوجه ، مقطبة الجبين ، فتشقى بهـذا العبوس أضعاف ما نعمت بأسباب الرضا والابتسام .

أليس ذلك كله فتلاً ودوراناً ؟ .

ألا يشبه ذلك « الغزل » في لثمه ودورانه ؟ .

ثم ألا يشبه الغزال في عدوه السريع ونفوره الجامح ؟ .

ثم ألا يشبه « الشمس » وهى فى طلعتها تشرق علينا بالنور وفى غيبتها تنسدل

غياهب الظلام ؟ ، ونحن بين الطلوع والمغيب نسعد كما نسعد بالمرأة التى نحبها إن رضيت ، أو نشقى بها إن هجرت وتمنعت .

بلى . لا شك فى ذلك ولا جدال .

الفصل الثاني

ألفاظ الغزل

وقد غنى الغزل بألفاظ كثيرة توافق هذه المعاني الجملة التي عرض لها الشعراء ،
وتوافق هذه العاطفة الثائرة ، وما يتصل بها من لوعة وحرقة وأنين .
وإني لا أريد أن أستوعب هذه الألفاظ ، ولا أريد أن أستوعب مدلولاتها ،
فهى كثيرة متشعبة ، متداخل بعضها فى بعض .
ومن هذه الألفاظ :

التَّسْيِب ، التشييب ، العشق ، الحب ، الهوى ، الصَّبَابَة ، الهِيَام ، الشَّغَف ،
العلاقة ، اللّوعة ، الوجْد ، الغرام ، التَّيْم ، التَّبَل ، التدليه .
وإذا شئنا أن نكشف معانى هذه الألفاظ ، ونعرف مدلولاتها ، فإنها لا تخرج
هى وسائر ألفاظ الغزل عن معان ثلاثة :

١ — التحدث إلى المرأة ، والتودد إليها . ٢ — العلاقة التى يتركها هذا الحديث ،
ومدى هذه العلاقة من قوة أو ضعف . ٣ — آثار العلاقة ، وتعدد نواحي هذه الآثار .
وإذا كان علماء اللغة يقولون إن هناك مناسبة بين اللفظ والمعنى ، فإننا نرى
المناسبة بين ألفاظ الغزل ومعانيه أكثر وضوحاً وبياناً .

ويحسن بى فى هذا المقام أن أوجه النظر إلى الملاحظات الآتية :

١ — لا صعوبة ولا تنافر فى هذه الألفاظ ، ولا فى الحروف التى تتألف منها .
٢ — ليس فى ألفاظ الغزل حرف ثقیل بالتضعيف ، أى التشديد ، وإذا وجدته
فى مثل متيّم ، مدله . فإن الياء حرف لين ، وتضعيفها لا يزيد ثقلها ثقلًا بل ليناً . وإن
تضعيف اللام لا ثقل فيه ولا شدة .

٣ — حروف اللين ثلاثة : الألف ، والواو ، والياء . وتسمية هذه الحروف باللين صادقة ولعلك ترى أن هذه الحروف تسكثّر في ألفاظ الغزل .

٤ — في بعض ألفاظ الغزل أو كثير منها مدّ قصير أو طويل . ومن ذلك مثلاً : الهوى ، الغرام .

ولعله بان لك من هذه الملاحظة أن ألفاظ الغزل سهلة لينة تناسب معاني الغزل من رقة وعذوبة . فالمحبوب حين يتحدث إلى حبيبة نفسه لا تراه إلا عذب الحديث ، وحين يودعها لا تراه إلا رقيق الحال خشية الفراق وما أشده على النفوس ! وحين يناجيها لا تراه إلا هزيباً يرسل نفثات حبه وهو معذب معني ، بل حين تهجره وتجنّفه لا تراه إلا ضارحاً متوسلاً خاضعاً متذللاً . لعلها ترضى بعد امتناع ، وتبسم بعد عبوس . هذه هي المعاني الرقيقة العذبة ، وتلك هي الألفاظ السهلة اللينة .

ولعله بان لك أن حروف هذه الألفاظ متلائمة متقاربة لا تنافر بينها ولا وحشية ولا احتراب . وكأنها تناسب ما يكون بين المحبين حين تصفو لهم الحياة . وما ألد هذه الحياة ! إنها تقارب بين الأرواح وامتزاج بين النفوس ، وأنعم بهذا الامتزاج وذاك التقارب !

ولعله بان لك أن هذا المد الذي تراه في بعض ألفاظ الغزل يناسب المد الذي تراه في معاني هذه الألفاظ ؛ فالمد الذي تراه في كلمة الخصاص يناسب طول العذاب الذي يلقاه المغمم في حبه . والمد الذي تراه في كلمة « الهيام » يناسب شدة كلف المرء بمحبوبته . وهكذا . . .

إن سهولة ألفاظ الغزل وسهولة حروف هذه الألفاظ لا تناسب معاني الغزل من حيث الرقة والعذوبة فحسب ، ولكنها توافق طبيعة العربي وحبّه للغزل . قال ابن دريد^(١) :

واعلم أن أكثر الحروف استعمالاً عند العرب : الواو ، الياء ، الهمزة . وأقل ما يستعملونه على ألسنتهم لثقلها الظاء . ثم الذال ثم الثاء ثم الشين ثم القاف ثم الخاء ثم العين ثم النون ثم اللام ثم الراء ، ثم الباء ثم الميم . ولعلك ترى أن حروف ألفاظ الغزل التي ذكرتها هي من هذه الحروف كثيرة الاستعمال على رأى ابن دريد .

ألا يدل ذلك على أن الغزل قريب إلى نفس العربي حبيب إلى طبعه ؟ وكذلك كانت حروف ألفاظه أكثر استعمالاً وأكثر تداولاً ، ومن أحب شيئاً أكثر من ذكره وأكثر استعماله .

ويظهر أن هذه السهولة تخطت ألفاظ الغزل إلى أسماء نساء الغزل ، فترى أمثال دعد ، هند ، ليلي ، لبنى ، سلمى ، عزة ، و بثينة . وهي أسماء سهلة عذبة في النطق حلوة في اللسان .

الباب الثاني

نشأة الغزل - دواعيه

الفصل الأول

نشأة الغزل

يحسن بنا في هذا المقام أن نكرر الإشارة إلى معنى الغزل وهو : التحدث إلى النساء ، والتودّد إليهن .

وإذا شئنا أن نحلل هذا المعنى وجدناه يشمل ثلاثة أركان :

الركن الأول : الرجل الذي يتحدث ويتودد .

الركن الثاني : المرأة التي تستمع حديثه وتودده .

الركن الثالث : الحديث الذي يقوم بين الرجل والمرأة ، ويحمل ما يكون بينهما من آصرة الحب والمودة .

فإذا وجد الرجل الذي يتحدث ، ووجدت المرأة التي تستمع إلى الحديث ، ووجد الحديث الذي يكون وسيلة الارتباط بينهما — كان الغزل .

فهل كان الغزل عند العرب لتوفر هذه الأركان الثلاثة : من رجل ، وامرأة

وحديث ؟

نعم .

فالعربي نشأ منذ القدم محباً للفرح والطرب والسرور ، نتيجة البيئة التي يعيش فيها ؛ ونتيجة الحياة الاجتماعية التي تطبعه بطابعها الخاص .

والعربي ، كما نعرف ناعم البال ، لا يشغله من أعباء الحياة ما ينوء تحت أثقاله وما يجعل العيش في نظره عابساً قائماً . ويكفيه من الحياة أن يجد قوته وأن يجده في أبسط صورة ، ومن أقرب طريق فيقنع ، ويرضى بما قسم الله .

والعربي صافي الطبع ، قوى العاطفة ، فلا بد أن يجد سبيله إلى ما يغذى هذا الطبع ويقوى تلك العاطفة .

والعربي شاعر بفطرته ، فليرق بهذا الشعر إلى درجة كريمة رفيعة ، تكون قريبة إلى النفوس .

إذن وجد العربي ، وفيه من الصفات ما يؤهله لأن يكون غزلاً ، ومبدعاً في هذا الغزل .

ولكن ذلك وحده لا يكفي . فإذا لم توجد المرأة ؟ فمع من يكون الحديث ؟ وإذا لم تكن المرأة جميلة جذابة ، فلن يكون حديث أو يكون ولكنه كره ثقيل ، لا تقبله النفس ، ولا يستريح إليه القلب . على أن وجود المرأة وحده لا يكفي ، كما أن جمالها وحده لا يكفي ، فلا بد حتى تثير عاطفة العربي ، وحتى تهيج شاعريته ، فتأتي بالسحر الحلال — لا بد أن تكون المرأة جميلة وأن تكون على جانب من الأدب والفطنة ، وحسن البيان .

وهبك شاعراً بارعاً وجلست إليك فتاة بارعة في الحسن والجمال ، ولكنها ليست من العلم والبيان والفطنة في شيء ، أثير وجودها في نفسك ما يثير وجود فتاة أخرى مازها الله بالجمال وحسن الحديث ورقة الشعور ، وبدع الخيال ؟

وإذا كان قد وجد العربي الذي من شأنه أن يتحدث أو يتودد ، فقد وجدت المرأة التي من شأنها أن تغري الرجل بالحديث معها ، والتودد إليها . تغريه بجمالها ،

وقد ثبت أن المرأة العربية جمالا فاتنا . وتغريه فوق ذلك بما وهبها الله من فطنة ،
وذكاء ، وعلم ، وأدب .

وكيف السبيل إلى المرأة ؟

إنها تلقى الرجل ويلقاها دون حرج ، ولا تضيق .

كان من عادة العرب كما حدثنا ^(١) بن الهيثم عدي عن ابن عياش : « أن يتحدث
رجالهم إلى النساء لا يرون بذلك بأساً » .

وكما حدث رباح العامري : « والعرب ترى ذلك غير منكراً أن يتحدث الفتيان
إلى الفتيات » .

إذن نشأ الغزل عند العرب إذ توفرت أركانه الثلاثة . ونما هذا الغزل وتطور
تبعاً لنمو هذه الأركان وتطورها .

وسترى ذلك مفصلاً في سائر الفصول والأبواب .

(١) الأغاني ج ٨ ص ٣١٣

الفصل الثاني

دواعي الغزل

١ — بيئة العربي وطبعه :

قدمت لك في نشأة الغزل أن من أقوى دواعيه ما ركب الله في طبع العربي من حب للمرأة ، ومما يوحيه هذا الحب من حديثها وتقربه إليها . وما أحاطه الله به من صحراء واسعة ، وسماء مشرقة ، ومن وسائل عيش تساعد على صفاء النفس ، وخلو البال . وذكر^(١) ابن خلدون أن بلاد العرب لا تنبت زرعاً وأن أهلها يفقدون الحبوب والأدم جملة ، وخلص من هذا إلى قوله : « ونجد مع ذلك هؤلاء الفاقدين للحبوب والأدم من أهل القفار أحسن حالا في جسومهم وأخلاقهم من أهل التلول المنغمسين في العيش ، فالوانهم أصفى ، وأبدانهم أنقى ، وأشكالهم أتم وأحسن ، وأخلاقهم أبعد من الانحراف ، وأذهانهم أثقب في المعارف والإدراكات » .

ولو كان طبع العربي بعيداً عن حب المرأة ، بعيداً عن الإشراق والسمو . ولو كان من وسائل العيش ما ينغص باله ، ويبلبل حاله ما استقام له هذا الفن الجميل من الغزل ، وما كانت له هذه الروعة في مجاله الفسيح .

وقيل لكثير : « ما بقي من شعرك ؟ قال : ماتت عزة فما أطرب ، وذهب الشباب فما أعجب . ومات ابن ليلى — يعنى عبد العزيز بن مروان — فما أرغب . وإنما الشعر بهذه الخلال » .

(٢) — اضطرط الرجل بالمرأة :

فلما إن من عادة العرب أن يتحدث رجالهم إلى النساء ، لا يرون في ذلك بأسا .
ولقاء الرجل المرأة هو الدعامة الأولى للغزل .
ولو لم يكن هذا اللقاء ما كان غزل ، ولا كان حديث ، ولا كان وصف للقاء
والوداع ، وما في اللقاء من ذكريات وشؤون ، وما في الوداع من حسرة وأنين .
ولو لم يكن هذا اللقاء ما كانت النجوى ، ولا كان عتب وملام ، ولا عرف
الرجل في المرأة مواضع دلتها وحسنها وجمالها وفتنتها ، ولا فاض شعره بوصف ذلك كله ،
وما يتبع هذا الوصف من فنون .

كان العربي يلقى المرأة فتأخذه بحسنها وجمالها . فتشور في نفسه عاطفة القربى إليها ،
وتمل عليه هذه الثورة أن يحدثها عن فيض شعوره ، عن الكلام التي خلفتها في قلبه ،
فإذا صدت وتمنعت توصل إليها ، واحتال عليها ، لعلها ترق وترحم . وكثيراً ما كان
يرتقب طلوعها ، وكثيراً ما كان يرتحل إليها ، وكثيراً ما كانت تسعده الظروف باللقاء ،
وكثيراً ما كانت تشقيه بالحرمان !

وكيف كان يلقى الرجل المرأة ؟

لم تكن المرأة العربية محتجة في منزلها ، بل كانت حرة طليقة ، تنتقل وترحل ،
وتشارك الرجل في كثير من أعماله . كانت ترعى الغنم . وكانت تملأ الماء . وكانت تخرج
إلى بيت الله الحرام . وكانت تذهب إلى السوق ، لتشتري أو تبيع . وترتاد أسواق
الأدب لتسمع أو تنشد ما تريد .

وكانت في كل هذه المراحل تلتقي الرجل ، ويلقاها الرجل ، وفي الرجل عاطفة
وحساسية ، وفي المرأة رقة وعذوبة . عذوبة لفظ ، وعذوبة خلق ، وعذوبة أدب . فلا بد
أن تلتقي العواطف ، ولا بد أن تهتز القلوب ، ولا بد أن يحمل الشعر نجوى العواطف
وهزات القلوب . فكان الغزل ، وكان شعر الغزل .

اعلك تعجب حين تقرأ في أخبار شعراء الغزل ، أن الشاعر لا يكاد يلقى امرأة بارعة في الجمال ، حتى تتحرك شاعريته بآيات من شعر الغزل ، تفيض رقة ، وعذوبة وقوة تأثير . ويسوقني تداعى المعانى ، وأنا أتحدث عن هذا المعنى إلى ما نشهده ، ونحن نجول على شاطئ الاسكندرية في فصل الصيف ، وما نراه في الغيد الحسان من وجه ضاحك ، وعيون نجل ، وقوام فارع ، وشعر متدل ، ونهود كواعب — كل ذلك يشير في قلوبنا العاطفة الملهبة ، فتتحدث ولو بين خلجات نفوسنا حديث غزل ، وخيال ، وإعجاب ، وتقدير . ولو أننا أوتينا بسطة في الشاعرية ، كما أوتى العرب الأولون لرأيت وقرأت في وصف هؤلاء الغيد ، وفي التحدث إليهن وفيما يحجره الحديث من شؤون وشجون — شعراً غزلاً ، لا يقل روعة وحساسية عن شعر الأولين . بل وجدت من المعانى الرقيقة ما يوافق هذه الطبيعة الجميلة التي صنعتها الطبيعة في القرن العشرين ، ولم تكن قد صنعتها في القرن الخامس وما قبله أو بعده . ومن الخير أن نتحدث الآن ولو في شيء من الإجمال عن هذه المناسبات ، التي جمعت بين الرجل والمرأة ، فجمعت بين قلبين ، وعاطفتين ، ثم جمعت إلى ذلك ترجمانا صادقا من الشعر الغرد الطروب ، يصف هذه القلوب ، وتلك العواطف .

ما أكثر هذه المناسبات ! ولكننا نلخصها فيما يأتى :

(١) المرعى :

بلاد العرب تنبت الكلاً والعشب ، ويعيش أهلها من الألبان ، لذلك أخذوا أنفسهم برعى الغنم والإبل ، ولا يكاد يشب الفتى حتى يقوم بحظه في هذه الناحية من تكاليف العيش . وكانت الفتاة تشارك الفتى في مباشرة كثير من مرافق الحياة ، لا ترى في ذلك بأساً ، ولا حرجاً . فكانت الفتاة تؤدي واجبها في رعى الغنم . فهؤلاء وأولئك من فتيه وفتيات ينتجعون مواطن الكلاً ، ويردون مناهل الماء ولا شك أن هذا يمكن من اختلاط الرجل ، والمرأة ، ولا شك أن هذا الاختلاط

الغزل م — ٢

يمكن الرجل من أن يتحدث إلى المرأة ، ومن أن يجتمعا إلى ظل واحد ، فترة طويلة من النهار ، فإذا غربت عليهما الشمس افترقا ولكن إلى حيث تؤذن بالطلوع ، فيتجدد اللقاء . وفي خلال ذلك كله — والعربي قوى الشاعرية ، والعريية قوية الحساسية — يكون الحديث الحلو ، ويكون الغزل الرقيق .

فهذا مجنون^(١) بنى عامر أحب ليلي ، وهما صغيران يرعيان الغنم ، وفي ذلك يقول :
 تعلقتُ لَيْلَى وهى ذاتُ ذُوَابَةٍ^(٢) ولم يبدُ للأتراب من ثديها حجْمُ
 صَغِيرَيْنِ رعى البُهْمَ ياليتَ أننا إلى اليوم لم تكبّر ولم تكبّر البُهْمُ
 وابن ميادة^(٣) خرج^(٤) يبغي إبلاله حتى ورد جبارا^(٥) ، فأتى بيتا ، فوجد فيه عجوزا ، قد أسنت ، وأدخلته بيتها لتقريه ، وإذا بنت لها قد هتكت الستر ، واستقبلته ، فراحه جالها ، وأخذ يشبب بها ، فيقول :

نَظَرْنَا فهاجَتْنَا على الشَّوْقِ والهوى لَزَيْنَبَ نارٌ أوقَدَتْ جِجَارِ
 كأنَّ سَنَاهَا لاح لي من خِصَاصَةٍ على غير قَصْدٍ والمِطَى سَوَارِ
 وجميل بن معمر العذري^(٦) كان يرعى إبله بواد يقال له — بغيض — فاضطجع وأرسل إبله تذهب حيث تشاء ، ومرت بثينة وجارة لها تردان الماء ، وشاء لها العبث أن تنفر فصلا من إبل جميل ، فسبها جميل فافترت عليه فملح إليه سبابها فقال :
 وأوَّلُ ما قاد المودة بيننا بوادى بغيض يا بُثَيْنَ سِبَابُ
 وقلنا لها قولا فجاءت بمثله لكلِّ كلامٍ يا بُثَيْنَ جوابُ
 وكان^(٧) قد أصاب قبيلة جرم جذب فانتجع جماعة منهم بلاد بنى قشير وقد أصابها الربيع فأرعتهم طرفا من بلادها . وكان أن رأى يزيد بن الطَّثَرِيَّة القشيري

(١) الأغاني ج ٢ ص ١١
 في الجاهلية والإسلام من شعراء الغزل
 قرب المدينة (٦) الأغاني ج ٨ ص ٩٨
 (٢) الذؤابة : شعر الناصية (٣) شاعر غطفان
 (٤) الأغاني ج ٢ ص ٣١٥ (٥) موضع ماء
 (٧) الأغاني ج ٨ ص ١٦٠

جارية من جرم يقال لها وَحْشِيَّة فهام بها ، واشتد وجده بها ، وإليها كتب يزيد :
 أَحَبُّكَ أطراف النهار بشاشةً وبالليل يدعونى الهوى فأجيب
 لئن أصبحت ريح المودة بينا شمالاً لقد ما كنتِ وهى جنوب
 فأجابه بقولها :

أَحَبُّكَ حب اليأس إن نفع الحيا وإن لم يكن لى من هواك طيب
 وحدثنا ذو الرُّمَّة أن أول ما قاد المودة بينه وبين مية أنه وأخاه خرجا يبغيان
 إبلاً لهما وبينهما فى الطريق إذ وردا ماء وكانت بالقرب منه مية . رآها ذو الرمة ،
 فهام بها فى ديارها عشرين سنة . وفيها يقول :

وَقَفْتُ على ربيع لميةً ناقتى فما زلت أبكى عنده وأخاطبه
 وأسقيه حتى كاد مما أبثه تكلمنى أحجاره وملاعبه
 وكثير^(١) كان يرعى الغنم ، ومر بنسوة من بنى ضمرة فسألن عن الماء ، وكانت
 هاديته إلى الماء غرة ، وقد كعب ثدياها ، فأعجب بها كثير وشغف حباً . وبينما هو
 يسقى غنمه إذ جاءت غرة بدرهم ، وقالت :

يقلن لك النسوة . بعنا بهذه الدراهم كبشاً من ضأنك . فباعها كبشاً ، ولم يأخذ
 منها ثمناً . وأمهلهما حتى يروح بهن ، فلما راح سرَّ بهن ، فقلن له : هذا حقك فخذ ،
 فقال : غرة غريمى . ولست اقتضى حقى إلا منها ، وكأنه أراد باقتضاء حقه منها أن يبادلها
 الحب ، وأن يتحدث إليها بخوالج نفسه ، وأن تتحرك شاعريته بادية ذى بدء بهذه
 الأبيات :

نظرتُ إليها نظرة وهى عاتق^(٢) على حين أن شبَّت وبان نهودها
 وقد درَّعوها وهى ذات مؤصد^(٣) محجوب^(٤) ولما لبس الدرع ريدها^(٥)

(١) الأغاني ج ٩ ص ٢٥ (٢) العاتق : الشابة (٣) المؤصد صدر تلبسه الفتاة الصغيرة ، فإذا أدركت درعت
 (٤) المحجوب : الذى جعل له جيب (٥) ريدها : أصله ردها : تربها وندها .

من الخفِرات البيض ودَّ جليسها إذا ما انقضت أحدىثة لو تعيدها
(ب) التزاور والاستسقاء :

كان من عادة العرب أن يزور بعضهم بعضاً ، كما نفعل نحن الآن ، وفي هذه
الزيارة يلقي الفتى الفتاة وقد يتولد عن هذا اللقاء حب ، ويتولد عن هذا الحب ،
غزل رقيق .

والعرب كما نعرف أهل مروءة وجود . وكثيراً ما تضطربهم تكاليف العيش
إلى التنقل والارتحال وكثيراً ما يلقون في هذا الرحيل من عناء ونصب فيضطربهم هذا
إلى الراحة وقد يضطربهم إلى طلب الماء يطفئون به لوعة الظمأ ، ولفحة الهاجرة ، أو إلى
قرى يكفهم بعض الزاد .

هذا التزاور وذاك الرحيل وما يترتب عليه من قرى ومن سقاية الماء يساعدان
على لقاء الرجل المرأة ، وبالتالي على ما يقع بينهم من أواصر الحب ، وبالتالي على
ما يوحيه الحب من شعر الغزل .

خرج عبد الله بن علقمة^(١) أحد بنى عامر وهو شاب مع أمه لتزور جارة لها ،
وكان لها بنت يقال لها حبيشة . فلما رآها عبد الله أعجبته ، ووقعت في نفسه . وفي ذلك
يقول عبد الله في أثناء انصرافه بأمه من هذه الزيارة وكانت السماء تمطر :

وما أدري بلى إننى لأدري أصوبُ القطرُ أحسنُ أم حُبَيْشُ
حُبَيْشَةُ والذى خلق الهدايا وما عن بُعدِها للصبِّ عَيْشُ
وقد شاء العاذلون أن يفرقوا بينهما وأن تنتقصه ولكن عبد الله قرأ المكيدة
في دمع عيونها . فقال :

لو قلتِ ما قالوا لَزِدْتُ جوى بكم على أنه لم يبقَ سِتْرٌ ولا صَبْرُ
ولم يك حُبِّي عن نوالٍ بذلتِه فَيُسْلِيَنِي عنه التجهُّمُ والهجرُ

وما أنسَم الأشياءَ لا أنسَ دمعها وانظرتها حتى يُغَيِّبَنِي القبرُ

وكيف التقى قيس ولبنى ، حتى خلفا لنا هذا التراث الخالد ؟ .

مر^(١) قيس لبعض حاجته بخيام بنى كعب بن خزاعة ، فوقف على خيمة منها والحق خُلُوف^(٢) ، والخيمة خيمة — لبنى — بنت الحباب الكعبية ، فاستقى ماء فسقته ، وخرجت إليه به ، فلما رآها وقعت من نفسه ، وشرب الماء ، فقالت له : أنزل فتبترد عندنا ؟ . قال : نعم . فنزل بهم . وجاء أبوها فنحمله وأكرمه . وانصرف قيس وفي قلبه من لبنى حد لا يطفأ ، وفاض قلبه بحبه لها ، وكان ترجمانه في ذلك شعره ، الذى نسمعه ونقرؤه ، فنعجب به أيما إعجاب .

ووقف نصيب^(٣) على أبيات فاستسقى ماء ، فخرجت إليه جارية بلبن أو ماء فسقته وشبب بها ، وقد عرف اسمها واسم الجبل القريب من بيتها وقال :

أَحِبُّ قَنَّا^(٤) من حُبِّ هندی ولم أكن أبالى أقرُّباً زادَهُ اللهُ أم بُعْدَا
(ح) مواسم العرب :

لا شك أن هذه المواسم كانت مثابة لاختلاط الرجل بالمرأة ، أو بعبارة أدق كانت مثيراً لشعور الرجل والمرأة ، هذه الإثارة التى تؤجج بين قلوبهما عاطفة الإعجاب ، أو عاطفة أخرى تتجاوز الإعجاب إلى الحب والغرام . ولا يخفى أن هذه الإثارة تولد شعراً جديداً ، هو الغزل .

وطبعى أن يكون لهذه المواسم ذلك الأثر فى معرض عام ، يرى فيه الرجل المرأة ، وترى المرأة الرجل . فإذا وقع نظر العربى وهو دقيق مرهف على جمال وصفه ، وعلى عاطفة تحدث عنها ، وعلى دلال ترجم عنه .

وطبعى أيضاً أن تلج المرأة هذه المواسم ، وهى أديبة شاعرة ، تقرأ ما فى الشعر

(١) العقد الفريد ج ٦ ص ٢٢٧

(٢) غائبون

(٣) الأغاني ج ١ ص ٣٥٣

(٤) جبل لبنى فزارة

من غزل رقيق ، ومن إعجاب بالحسن والجمال . فلم لا تكون هي القيثارة التي يغنى عليها الشاعر آية الحب ، آية الفتنة ، آية الروعة والجلال ؟ . لم لا تكون ؟ حتى يتحدث الشعر عنها ، فيتناقله العرب ، بل يتناقله التاريخ جيلا بعد جيل ، وخاصة أنه لا حرج في ذلك ولا نكران .

وقد مرت بك بعض الأمثلة ، تظهر لك بوضوح وجلاء ، أن المرأة كانت مشغوفة بالغزل ، وكانت تتوق أن تكون أداة لهذا الغزل ، بل كانت تغري الشاعر بوسائل شتى ، حتى يتغزل فيها ، وحتى يكون شعره الغزلي مقولا فيها وحدها ، دون غيرها من نساء العرب .

وما هي مواسم العرب ؟

الموسم الأكبر هو الحج . وهو وإن كان مثابة للناس وأمنا ، وهو وإن كان ملتقى القلوب حيث تصفو من أدران الحياة ، ومن أرجاس الفساد ، وحيث تتجه إلى الله وحده فتخشع له وتخضع ، وتتوب وتنوب . تلك سنة العرب منذ الجاهلية حتى جاء الإسلام ، وطال به الأجل . على أن العربي — وذلك روحه الصافي ، وهذا قلبه النقي وتلك اتجاهاته إلى الخالق الأعلى — إذا رأى المرأة ، وراقه جمالها وحسنها شغف بها ، وتودد إليها ، وتحدث عنها كأثر من آثار الله الذي صور فأحسن الصورة ، والذي زين فأحسن الزينة ، أو كأثر من آثار روحه ، وهو أصفى ما يكون في هذه الساحة الكريمة . وليكن مظهره في هذا الصفاء أن يذكر جلال الله ، وأن يذكر جمال المرأة ، ولا شك أنه أثر من آثار جلال الله .

هذا عمر بن أبي ربيعة يرتقب موسم الحج ، فإذا جاء ارتحل عمر إلى مثابته وأطلق طرفه ، يتأمل ، وإذا به يكشف في المرأة مواضع حسنها وجمالها . وإذا شعره يفيض بالحديث عن هذا الحسن ، وذاك الجمال .

ومن غزل عمر في الحج قوله :

أَبْصَرْتُهَا^(١) لَيْلَةً وَنِسْوَتَهَا يَمْشِينَ بَيْنَ الْمَقَامِ وَالْحَجَرِ
 بَيْضاً حِسَاناً نَوَاعِمًا قُطُفًا يَمْشِينَ هَوْنًا كَمِشْيَةِ الْبَقْرِ
 قَالَتْ لِتَرْبٍ لَهَا تُلَاطِفُهَا لِنُفْسٍ الطَّوْفِ فِي عَمْرِ
 قَوْمِي تَصْدَى لَهُ لِيَعْرِفَنَا ثُمَّ اغْمَزِيهِ يَا أُخْتِ فِي خَفَرِ
 هُوَ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ يَصِفُ امْرَأَةً أَبْصَرَهَا وَنِسْوَتَهَا يَمْشِينَ بَيْنَ الْمَقَامِ وَالْحَجَرِ .
 وَكَيْفَ وَصَفَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ ؟ .

ذَكَرَ حُسْنَهَا ، وَمَا يَتَّبِعُ هَذَا الْحَسْنَ مِنَ الْبَيَاضِ وَالنَّعُومَةِ ، وَذَكَرَ مَشْيَهَا ،
 وَمَا يَتَّبِعُ هَذِهِ الْمَشْيَةَ مِنْ تَثَنٍّ وَخَيْلَاءٍ . ثُمَّ ذَكَرَ نَوْعًا مِنْ طَرَقِ الْغَزْلِ ، بَيْنَ امْرَأَةٍ
 مَا كَرَّةٍ مَاهِرَةٍ . وَبَيْنَ رَجُلٍ لَيْسَ بِأَقْلٍ مِنْهَا حُبًّا لِلْغَزْلِ ، وَقَبُولًا لَهُ ، وَرَغْبَةً فِيهِ . نَوْعٌ
 مِنَ الْعَبَثِ وَاللَّهْوِ ، تَكُونُ فِيهِ الْمَرْأَةُ مَتَجَنِّبَةً مَدْلَلَةً . تَعْقِدُ الْعِزْمَ هِيَ وَتَرْبٍ لَهَا ،
 عَلَى أَنْ تَفْسُدَ طَوَافَ عَمْرِ . وَكَيْفَ ذَلِكَ ؟ تَتَصَدَّى لَهُ ، فَيَتَجَبَّعُ إِلَيْهَا بَصَرَهُ ، وَهُوَ حَسَّاسٌ
 مَرْهَفٌ ، فَيَعْرِفُ حُسْنَهَا ، وَيَعْرِفُ جَمَالَهَا ، وَيَعْرِفُ فِي هَذَا الْحَسَنِ مَظْهَرًا مِنْ مَظَاهِرِ
 الْعِزْمِ اللَّطِيفِ الْمَحْبُوبِ ، وَيَعْرِفُ فِي جَمَالِهَا مَظْهَرًا مِنْ مَظَاهِرِ الْحَيَاءِ الْجَمِيلِ .

وَحَدَّثَ قَدَامَةُ بْنُ مُوسَى أَنَّهُ خَرَجَ بِأَخْتِهِ زَيْنَبَ بِنْتَ مُوسَى إِلَى الْعَمْرَةِ ، فَلَمَّا
 كَانَ بِسَرَفٍ لَقِيَهُ عَمْرُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ عَلَى فَرَسٍ ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ . قَالَ قَدَامَةُ « إِلَى أَيْنَ أُرَاكَ
 مُتَوَجِّهًا يَا أَبَا الْخَطَّابِ ؟ قَالَ ذَكَرْتُ لِي امْرَأَةً مِنْ قَوْمِي بَرَزَتْ الْجَمَالَ فَأَرَدْتُ الْحَدِيثَ مَعَهَا .
 قَالَ قَدَامَةُ : أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهَا أُخْتِي . قَالَ : لَا وَاللَّهِ ، وَاسْتَحْيَا ، وَثَنِي عَنْقَ فَرَسِهِ ،
 رَاجِعًا إِلَى مَكَّةَ .

وَزَيْنَبُ هَذِهِ يَقُولُ فِيهَا عَمْرُ :

يَا خَيْلِي مِنْ مَلَامٍ دَعَانِي وَأَلِمَّا الْغَدَاةَ بِالْأَطْعَامِ
 لَا تَلُومَا فِي آلِ زَيْنَبٍ إِنَّ الْقَلْبَ رَهْنٌ بِآلِ زَيْنَبَ عَانِي

هذا عمر في الحج^(١) يرى امرأة من أهل العراق ، يروقه جمالها . وكان من أمره أن مشى معها ، وسار حيث سارت ، حتى تحدث معها ، وتحدثت معه ، وحتى توثقت بينهما آصرة الحديث ، إلى أن خطبها ، وإلى أن قبلت هذه الخطبة ، ولكن على شرط أن يرتحل معها إلى بلدها ، وأن يطلبها من أهلها . وكان أن تزود لهذا السفر الشاق ، واستعان بصديق له في الراحلة والزاد ، وسارا معاً ، ولا يدري الصديق ما يريد عمر . ولا يدري لم كان عمر يتعجل السير ، ويستحث الخطا ، حتى لحق ركب العراقية ، وحتى أخذ يحادثها طول الطريق ، وأخذت تحادثه ، وكان بينهما غزل رقيق ، وود جميل ، وأقام عمر بالعراق أياماً ، ثم راسل العراقية ، يتنجز وعدها . ويظهر أن العراقية لم تكن تريد زواج عمر ، بل أرادت أن تأنس إليه ، وتستمع إلى غزله ، وتصغى إلى دقات قلبه ، وأرادت أن ينقلها شعره إلى أسماع الناس ، وأن يتحدث التاريخ عن حسنها وجمالها ، ويتحدث فوق ذلك أنها أثارت في الشاعر العربي عاطفته حتى اهتزت بهذا الغزل العذب الرقيق . لم تلب العراقية رغبة عمر ، واعتذرت له اعتذاراً هيناً جميلاً ، وبعثت إليه بخمسة آلاف درهم . أما عمر فقد رد خمسة الآلاف ، وعاد إلى مكة ، وفي نفسه حسرة على فراقها ، وألم على أن زواجه لم يتم بها . وقال في ذلك قصيدته التي أولها :

نام صبحي ولم أنم من خيال بنا ألم

وفيهما يقول :

قلت ياعمرو شفتي لا عجب الحب والألم

أيت هندا فقل لها ليلة الخيف ذى السّلم

وكانت خرقاء العامرية في طريق الحاج وكان جمهرة من الشعراء يمرون بها ،

ويعجبون من حسن وفادتها ، ما تجدهى من غزلهم ، ورقة أشعارهم .

ومن هؤلاء ذو الرمة وفيها يقول :

تمامُ الحج أن تقف المطايا على خرقاء واضعة اللثام

وحدثنا عبد الله بن عمر العمري ، قال :

خرجت حاجا ، فرأيت امرأة جميلة ، تتكلم بكلام رفقت فيه ، فأدريت ناقتي منها . ثم قلت لها يا أمة الله : ألسنت حاجة ؟ أما تخافين الله ؟ فسفرت عن وجه يهر الشمس حسنا ، ثم قالت تأمل يا عمي ! فإني ممن عنى العرجى بقوله :

من اللآء لم يحججن يبعين حسبة ولا يكن ليقتلن البريء المغفلا

وكان عبد الملك بن عبد العزيز السلوي من شعراء اليمامة يهوى امرأة يقال لها سعدى ، وذات مرة لقيها راحلة نحو مكة حاجة ، فأخذ بخطام بعيرها ، وقال :

قل للتي بكرت تريد رحيلا للحج إذ وجدت إليه سبيلا

ما تصنعين بحجة أو عمرة لا تقبلان وقد قتلت قتيلا

أحيى قتيلك ثم حُجى وانسكى فيكون حجك طاهراً مقبولا

وكان أبو نواس يحب « جنان » جارية آل عبد الوهاب بن عبد الحميد الثقفي

وقيل له يوما إن جنان قد عزمت على الحج ، فكان هذا سبب حجه ، وقال :

أما والله لا يفوتني المسير معها والحج عامي هذا إن أقامت على عزيمتها ، وقد أقامت

« جنان » على عزيمتها ولم يفت أبو نواس المسير معها . وفي ذلك يقول :

ألم تر أنني أفنيت عمري بمطلبها ومطلبها عسير

فلما لم أجِد سبيلاً إليها يُقربني وأعيثني الأمور

حججت وقلت قد حججت جنان فيجمعني وإياها المسير

وجلس نسوة قريبا من المسجد الحرام ، وأخذن يتذاكرن الشعر والشعراء .

فقال أحدهن قاتل الله جميلا حيث يقول :

وبين الصفا والمروتين ذكرُكم بمختلف ما بين ساع ومُوجف

وعند طوافي قد ذكرتك ذكراً
هي الموت بل كادت على الموت تضعف^(١)
فقلت الأخرى :

بل قاتل الله كثير عزة حيث يقول :
طلعن علينا بين مروة والصفاء يمرن^(٢) على البطحاء مورا السحاب
فكعدن لعمرك الله يحدثن فتنة تخشع من خشية الله تائب
وقالت الأخرى : قاتل الله نصيبا حيث يقول :

ألام على ليلى ولو أستطيعها وحرمة ما بين البنية والستر
لمت على ليلى بنفسى ميلة ولو كان في يوم التحالق والنحر
فهذه أقوال ثلاثة ، لشعراء ثلاثة .

أما جميل وكثير عزة فإنهما يتغزلان في الحج ، ويذكران الصفاء والمروة ، حيث
يذكران ذكر الحبيبة ، وزينة الحبيبة ، وما لهذه الزينة من بدع وفتنة ، أما نصيب
فإنه لا يبالي بلوم الناس ، على ما كان بينه وبين ليلى ، وهو لا يبالي أيضاً أن يقول .
لو رآها في معلم من معالم الحج لشغل بها ، وتحدث إليها ، ورغب بهذا الحديث عما
تطلبه هذه المعالم من نسك وعبادة .

٣ — أسواق الأدب :

وللأدب عند العرب سوق رائجة رابحة . فهم قوم جبلوا منذ القدم على حب
الشعر ، نظموا وتغنوا به ، وكان سجل علومهم ومعارفهم ، ووحى آثارهم ومفاخرهم .
وأنت تعرف أن العرب كانت في الجاهلية تقيم في أنحاء البلاد أسواقاً للأدب منها :
عكاظ^(٣) ، ومجنة^(٤) ، وذو المجاز^(٥) ، وتعرف أيضاً أن سوق عكاظ امتدت

(٣) موضع قرب الطائف

(٢) يتمايلن جائيات ذاهبات

(١) تضعف : تزيد

(٥) موضع قرب عرفات

(٤) موضع قرب مكة

إلى ما بعد الإسلام حتى سنة تسع وعشرين ومائة . وكانت هذه الأسواق مباءة للعرب جميعاً ، يقدون إليها من كل مكان ، وهناك ينشد الشعراء ، ويتحدث الخطباء ، وهناك يجودون الكلام نظمه ونثره ، وكل يسعى إلى أن يكون صاحب الغلبة ، والسبق ، بل هناك يلتقي الرجل والمرأة لا حرج في ذلك ولا بأس وكنت تستمع إلى شعر المرأة كما تستمع إلى شعر الرجل ، وكانت المرأة تسمع الشعر كما يسمعه الرجل لأن للمرأة العربية ذوقاً في الأدب ، ولأن للمرأة العربية حظاً من الأدب ، يداني حظ الرجل .

وإذا كانت هذه الأسواق ملتقى العرب من رجال ونساء فهي إذن من دواعي الغزل . وكما قلنا أن لقاء الرجل المرأة ، يثير في نفسيهما عاطفة ثائرة حارة . والرجل حساس مرهف ، خصب الخيال ، قوى الشاعرية والمرأة جميلة فاتنة ، تعرف في الرجل حساسيته وعاطفته ، وشاعريته ، فتغريه بجمالها ودلالها ، وتذكر في فيه الصباية والهوى ، فيترجم الرجل عن قلبه ، ويكون الشعر ترجمانه ، ويكون الغزل دليلاً وبياناً .

هذه الأسواق داعية من دواعي الغزل ، لأنها تجمع بين الرجل والمرأة فحسب ، بل لأنها أيضاً مباءة للشعر العربي ، والغزل ناحية من نواحي الشعر العربي ، يسمعه الرجل ، فيعجب بها ويضطرب ، ويدفعه هذا إلى أن يكون له مثل هذا الشعر ، يعجب به الناس ، ويضطرب به القلوب ، وتسمعه المرأة فتزهو بما حباها الله ، كيف لا . وهذا الشعر تكريم لها أو لأتراك لها ، لا يسبقنها في الحسن والجمال . وكأني بها وقد عادت في العام التالي ترجو أن يكون لها من الشعر ، ومن تسابق الشعراء في وصفها ، والتغني باسمها ما يجملها رفيع الشأن . ذائعة الصيت . وكأني بالشاعر أيضاً وقد عاد في العام التالي يرجو أن يكون له من نساء كثيرات مادة لخياله الشعري ، ومادة لعاطفته الحساسة يصفهن ، ويتحدثن إليهن ، ويحمل شعره كثيراً من مظاهر الوصف والحديث ، خاصة

وقد سار شعره المقول من قبل ، وانتقل في كل واد ، وتذوقته الأفسدة ، وتدارسته العقول ، فأعجبت بمعانيه ، وما يوحى من فن وروعة .

على أن للعرب مواسم وأسواقاً أخرى للأدب ، فهناك مجالس الملوك ، مجالس الأمراء ، مجالس الحكام ، يرتادها الشعراء ، ويؤمنونها من كل حذب ، يقصدون القربى إلى ذوى الجاه والسلطان ، ويقصدون العطاء الجم ، والنعم الجزيلة ، وتجسد مظهر ذلك في كل العصور حيث تكون القوة ، وحيث يكون الحول .

في هذه المنتديات تسمع من الشعراء ألسنة قوالة ، وقرائح متقدة ، وتسمع كأثر لهذه الألسنة ، وتلك القرائح شعراً رائعاً مجوداً ، فيه غزل رقيق لأنه هو الفن الذى يصح أن يجمع بين هذه القلوب ، في وقت دعة ، ورخاء وسلام .

يقول الدكتور طه حسين بك :

لم تكن ^(١) اجتماعاتهم تخلو دائماً من النساء ، فقد كان الإماء الظريفات يأخذن منها بنصيب عظيم ، وكانوا يجتمعون في الحانات والأديرة ، في بيوت الأمراء والوزراء وفي بيوتهم الخاصة ، فيلذون ويتحدثون . وتستطيع أن تتنبأ بمقدار ما كان لأحاديثهم هذه من أثر عظيم في الأدب العربى ، والعقل العربى . كانت هذه الأحاديث عذبة غير متكلفة ، ولا ثقيلة الروح ، كانت تصدر عنهم عفواً فتمثل عقولهم وشعورهم .

وللنساء أسواق أدب لا تقل عن أسواق الرجال ، من حيث الرغبة فيها ، والإقبال عليها ، ومن حيث مدارس ما يتناشدونه فيها من أشعار ، ومن حيث تذوق الجمال الفنى من هذه الدراسة الشعرية والجري وراء معانيها الحية الحساسة ، ومن حيث أن هذا الشعر نفسه يثير في نفوسهن ألواناً من العاطفة وألواناً من الحياة ، محبة إليهن ، قريبة إلى هواهن .

وكأني بهؤلاء النسوة يجتمعن ، وفيهن المفرمات المتيمات ، وهن أديبات يفهمن

(١) حديث الأرباء ج ٢ ص ٤٠

الشعر ويتذوقه عن معرفة وخبرة . كَأَنى بهن يلتقين ، ويتبارين فى أن يتناشدن أشعار الغزل ، وأخبار الغزل ، وأى معانيه أكثر روعة ، وأى أخباره أقوى دلالة على الحب الصافى ، والعشق الرقيق . كَأَنى بهن فى مجالسهن هذه يتذاكرن أحوالهن مع أحبائهن ، من متعة حديث ، ومن لوعة فراق ، ومن رقبة العواذل ، ومن نجوى الطيف ، ومن صد ووصال . ثم يتذاكرن رجال الغزل من الشعراء ، وماذا قالوا فى هذه المعانى وأيهم كان أكثر إجابة ، وأكثر روعة ، وأكثر نفاذاً إلى القلوب .

ومثل هذا يحدث إذا اجتمعت فتاتان ، وكان الهوى قد وصل إلى قلوبهما ، فإيهما يتحدثان وإيهما يتناجيان ، وعلى قدر ما يكون لهما من علم وأدب ، وما يكون لهما من خبرة ودراية ، بهذا الفن الجميل من الغزل يكون الحديث شائقاً ويكون الاجتماع ظريفاً لطيفاً .

وكثير من مجالس النساء هذه كان لا يخلو من الرجال . ويظهر لى أنهم كن يجدن فى وجود الرجل نوعاً من المتعة ، ونوعاً من اللذة ، وخاصة إذا كان شاعراً ، وإذا كان شاعر غزل ، يتحدثن كيفما شئن ، أحاديث الحب والهوى . وما أحلى هذه الأحاديث ! .

هذا^(١) مجلس امرأة من بنى أمية يحضره شعراء ثلاثة : نصيب — أبو محجن — كثير ، الأحوص ، ويحضره وصائف ، ورجال من الموالى ، ونساء بارزات . وكان أن تذاكر الرجال والنساء ألواناً من شعر الغزل ، وكان أن قالت المرأة لجارية لها ذات جمال خذى ويحك ! من قول النصيب عافى الله أبا محجن :

ألا هل من البين المفرق من بدّ وهل مثل أيام بمنقطع^(٢) السعد^(٣)
تمت أيامى أولئك والمنى على عهدٍ عادٍ ماتعيد^(٤) ولا تبدى

(٢) منقطع المكان : حيث ينقطع وينتهى

(٤) أى لا تأتى بعائدة ولا بادئة أى لا نفع فيها .

(١) الأغاني ج ١ ص ٢٥٦

(٣) مكان قريب من المدينة

فغنته بأحلى لفظ ، وأشجى صوت .

وقالت لها : خذى أيضاً من قول أبي محجن — عافى الله أبا محجن :

أرق الحب وعاده سَهْدُهُ لطوارق الهمم التي تردُّهُ

وذكرت من رقت له كبدي وأبى فليس ترق لي كبده

لا قومه قسومي ولا بلدي فنكون حيناً جيرةً — بلده

ووجدت جداً لم يكن أحدٌ قبلي من أجل صباية يجده

فغنته ، وجاءت به أحسن من الأول .

وقالت لها : ويحك ! خذى من قول أبي محجن — عافى الله أبا محجن :

فيالك من ليل تمتت طوله وهل طائف من نائم متمتع

نعم إن ذا شجوة متى يلق شجوه ولونا نماً مُستعْتَبٌ^(١) أو مودّع

له حاجة قد طالما قد أسرها من الناس في صدر بها يتصدّع

تحمّلها طول الزمان لعلها يكون لها يوماً من الدهر منزع

فغنته ، وجاءت بشيء حير الأذهان والألباب .

ثم قالت لها : خذى أيضاً من قول أبي محجن — عافى الله أبا محجن :

يا أيها الركب إني غير تابعكم حتى تلمّوا وأنتم بي مملونا

فما أرى مثلكم ركباً كشكلكم يدعوهم ذو هوى إلا يعوجونا

أم خسرّوني عن دائي بعلمكم وأعلم الناس بالداء الأطبونا^(٢)

قال نصيب : فوالله لقد زُهِيت بما سمعت زهواً خيل إلى أنى من قريش ، وأن

الخلافة لي ! .

ثم قالت : حسبك يابنية : هات الطعام يا غلام ، فوثب الأحوص وكثير وقالوا :

(١) يقال استعنته فأعنتني : استرضيته فأرضاني

(٢) البارعون في الطب

والله لا نطعم لك طعاماً ولا نجلس لك في مجلس . فقد أسأت عشتنا واستخففت بنا ،
وقدمت شعر هذا على أشعارنا ، واستمعت الغناء فيه ، وإن في أشعارنا لما يفضل
شعره ، وفيها من الغناء ما هو أحسن من هذا . فقالت : على معرفة كل ما كان مني ،
فأى شعر كما أفضل من شعره ؟ أقولك يا أحوص ؟ :

يقرُّ بعيني ما يقر بعينها وأحسنُ شيء ما به العين قرتِ
أم قولك يا كثير في عزة :

وما حسبتُ ضمرَّيةً^(١) جدوية سوى التيسِ ذي القرنين أن لها بعلًا
فخرج كثير والأحوص مغضبين . أما نصيب فتغدى عندها ، وأمرت له بثلاثمائة
دينار وحلتين وطيب .

وهؤلاء فتيات من أهل مكة يجتمعن في متنزه لهن ، ولا يطيب لهن مقام إلا إذا
كان الدارمي يزنهن ، يتحدثن من شعره ، ويمتعن بنوادره . اجتمعن ذات يوم ،
وفيهن صديقة له ، وكل واحدة منهن قد واعدت هواها^(٢) فخرجن حتى أتيت الجحفة^(٣)
وهو معهن . فقال بعضهن لبعض : كيف لنا أن نخلو مع هؤلاء الرجال من الدارمي ؟ .
فإنا إن فعلنا قطعنا في الأرض ! قالت لهن صاحبه أنا أ كفيته . قلن : إنا نريد
ألا يلومنا . قالت : على أن ينصرف حامداً . وكان أبخل الناس ، فطلبت منه أن يذهب
إلى مكة ليشتري لهن طيباً ، فاكتري حماراً ، وصار إلى مكة وهو يقول :

إنا بالله ذي العز وبالركن وبالصخره

من اللأى يُردن الطيب في اليسر وفي العُسر

وما أقوى على هذا ولو كنتُ على البصره

وكان جماعة من النساء المتطرفات يدخلن إلى بشار في كل جمعة يومين . يجتمعن

(١) نسبة إلى جدى بن ضمرة بن بكر بن كنانة (٢) من تحبه وتهواه

(٣) قرية قرب مكة

عنده ويستمع من شعره . وذات يوم سمع كلام امرأة منهن ، فعلقها قلبه وراسلها يسألها أن تواصله . فقالت لرسوله : وأى معنى فيك لى أو لك فى ؟ وأنت أعمى لا ترائى فتعرف حسنى ومقداره ، وأنت قبيح الوجه فلاحظ لى فيك . فليت شعرى لأى شىء تطلب وصال مثلى ؟ !

وهذه ^(١) هند بنت الحارث المريّة مع نسوة لها ، تحتال على عمر بن أبى ربيعة ليحضر مجلسهن هذا ، ويحدثهن من غزله ، ومن شعره . أرسلت إليه خالداً الخريّت ، فأغراه ليرى هؤلاء النسوة ، وهن بارعات فى الحسن والجمال . وعرض عليه أن يأتين متكرراً ، فيسمع من حديثهن ، ويتمتع بالنظر إليهن ، ولا يعلمن من أمره شيئاً . قال عمر : وكيف لى أن أخفى نفسى ؟ قال خالد : تلبس لبسة أعرابى ثم تجلس على قعود فلا يشعرون إلا بك قد هجمت عليهن ، ففعل عمر ما قال ، وجلس على قعود ، وأتاهاهن فسلم عليهن ، ووقف بقربهن ، وسألنه أن ينشدهن ، وأن يحدثهن ، فأنشدتهن من شعر كثير ، والأحوص وجميل ، ونصيب وغيرهم ، فقلن له : ويحك يا أعرابى ما أملحك وأظرفك ! لو نزلت فتحدثت معنا يومنا هذا . فإذا أمسيت انصرفت فى حفظ الله . قال عمر : فأنخت بعيرى ، ثم تحدثت معهن ، وأنشدتهن فسررن بى وجدلن بقربى وأعجبهن حديثى ، ثم إنهن تفاضرن ، وجعل بعضهن يقول لبعض . كأننا نعرف هذا الأعرابى ما أشبهه بعمر بن أبى ربيعة ! فقالت إحداهن : هو والله عمر فمدت هند يدها فانتزعت عمامة عمر ، وألقها عن رأسه ، وقالت له هيه يا عمر ! أترأك خدعتنا منذ اليوم ! بل نحن والله خدعناك ، واحتلنا عليك بخالد ، فأرسلناه إليك لتأتينا فى أسوأ هيئة ونحن كما ترى . قالوا وطال بينهم الحديث ، وإنشاد الشعر .

وفى هذا المجلس يقول عمر ، ويصفه بهذه الأبيات :

ألم نسأل الأطلالَ والمتربما بيطن حُلَيَّاتٍ ^(٢) دَوارسَ بَلْقَمَا

(٢) حليّات اسم موضع قرب مكة

(١) الأغاني ج ١ ص ١٧٥

إلى السفح^(١) من وادي^(٢) المغمس بُدلت معالمة وبلا ونكباء^(٣) زعزعا
لهند وأتراب لهند إذ الهوى جميعٌ وإذ لم نخش أن يتصدعا
وإذ نحن مثل الماء كان مزاجه^(٤) كما صفق^(٥) الساقى الرحيق المشعشما
وإذ لا نطيع الكاشحين ولا نرى لواش لدينا يطلب الصرم موضعا
وقريب من هذا^(٦) أن خرج نسوة من أهل مكة إلى بعض المتحدثات من
نواحي مكة ، وكانت الليلة مقمرة ، وخرج معهن الفريض المغنى ، ورغب الحارث
ابن خالد أن يشهد هذا المجلس ، وأن يستمع إلى حديث النسوة ، فأتى عمر بن ربيعة
وقال له : إن فلانة وفلانة وفلانة ، وسماهن كلهن ، قد بعثنى ، وهن يقرأن عليك السلام .
وقلن : تشوقن إليك في ليلتنا هذه لصوت أشدناه الفريض . وكان الفريض يغنى
هذا الصوت فيجيده ، وكان ابن أبي ربيعة به معجباً وهو قوله :

أمسى بأسماء هذا القلب معموداً إذا أقول صحا يعتاده عيداً
قال عمر : لقد أزعجتني في وقت كانت الدعة أحب فيه إلى ، ولكن صوت
الفريض ، وحديث النسوة ليس له مترك ولا عنه محيص ؛ وكان أن وفدا عليهن ،
فتهين ، وتحفرن ، فقال الفريض : لا عليكن !

هذا ابن أبي ربيعة والحارث ابن خالد جاءا متشوقين إلى حديثكن وغنائى .
قالت فلانة : وعليك السلام يا ابن أبي ربيعة ، والله ماتم مجلسنا إلا بك . وكان
غناء ؛ وكان حديث ؛ ولا يزالون بأنعم ليلة وأطيبها حتى بدأ القمر يغيب ؛ فتفرقوا
وتفرقن ، وفي ذلك يقول عمر :

هل عند رسم برامة^(٦) خير أم لا ، فأى الأشياء تنتظر

(١) السفح : موضع (٢) المغمس : موضع
(٣) النكباء : الريح التي تنكب عن مهاب الرياح . يقال ريع زعزع أى شديدة
(٤) صفق الصراب : مزاجه (٥) الأغاني ج ٦ ص ٣٢٧
(٦) منزل في طريق البصرة إلى مكة .

قد ذكرتني الديار إذ درست والشوق مما يهيجه الذِّكر
 ممشي رسول إلى يخبرني عنهم عشاء ببعض ما اتعمرو
 ومجلس النسوة الثلاث لدى الخيام حتى تبلىج السَّحر
 فيهن هندٌ والهم ذِكرتها تلك التي لا يرى لها خطر
 ثم انطلقنا وعندنا ولنا فيهن لو طال ليلنا وطر
 وقولها للفتاة إذ أرف البين : أغادام رائج عمر؟
 عجلان لم يقض بعض حاجته هلا تأتي يوماً فينتظر
 الله جارٌ له وإن نزحت دار به أو بدا له سفر

وهؤلاء^(١) نسوة يجتمعن عند امرأة من أهل المدينة ، ولكن المجلس يحلو
 إذا كان فيه شاعر ؛ وكان غزلاً يحدثهن حديثاً لذيذاً ممتعاً .

قالت النسوة للمرأة : أرسلى إلى الأحوص فإننا نحب أن نتحدث معه ؛ ونسمع
 من شعره ؛ قالت : إذاً لا يزيدكن على أن يخرج إذا عرفكن فيشهركن وينظم الشعر
 فيكن ؛ ولم يعبأ النسوة بهذا التحذير ؛ فإن نظم الشعر فيهن حبيب إلى نفوسهن .
 وتلك أمنية يسعى إلى تحقيقها كثير من النساء وليس أحب إلى المرأة العربية — إذا لم
 يكن بها حرج — من أن يفتنن الشعر بها وأن يتحدث عن حسننها وجمالها ؛ وأن
 يسير في كل مكان ؛ وفي كل جيل يحمل إلى الناس جميعاً هذا الحديث العذب
 الرقيق ، ولا يزال النسوة بالمرأة حتى أرسلت إلى الأحوص رسولا ؛ يذكر له أسر هذا
 المجلس ويحمل له رغبة هؤلاء النساء ؛ أما الأحوص فقد جاء سراعاً . وجلس إليهن
 يحدثهن حديثاً طويلاً ؛ وينشدهن من شعره الشيء الكثير . وفي هذا يقول الأحوص
 من قصيدة طويلة :

كلُّ يرى أن الشباب له في كل غاية صبرة عذر

سِفَانة^(١) أمر الشباب بها رِقَاقَة لم يُبَلِّها الدهر
حتى إذا أبدى هواها لها وبدا هواها ماله سَر
سَفَرَت وما سَفَرَت لمعرفة وجهاً أغر كأنه البدر
قالوا^(٢) ولما قضى الفرزدق حجه خرج إلى المدينة فدخل على سكينه بنت الحسين
عليه السلام مُسَلِّماً . فقالت له : يا فرزدق من أشعر الناس ؟
قال : أنا . قالت : كذبت . أشعر منك الذى يقول :
بِنَفْسِي مَنْ تَجَنَّبُهُ عَزِيزٌ عَلَى ، وَمَنْ زِيَارَتُهُ لِمَامٌ
وَمَنْ أُمْسَى وَأَصْبَحُ لَا أَرَاهُ وَيَطْرُقُنِي إِذَا هَجَعَ النَّيَامُ
وخرج ثم عاد إليها من الغد ، فدخل عليها ، وقالت : يا فرزدق من أشعر الناس ؟
قال : أنا . قالت : كذبت . صاحبك أشعر منك ، حيث يقول :
لَوْلَا الْحَيَاءُ لَهَا جَنَى اسْتِعْبَارٍ وَلَزَرْتُ قَبْرَكَ ، وَالْحَبِيبُ يُزَارُ
كَانَتْ إِذَا هَجَرَ الضَّجِيعُ فَرَاشَهَا كَتَمَ الْحَدِيثَ وَعَقَّتِ الْأَسْرَارَ
لَا يَلْبَثُ الْقُرُونَاءُ أَنْ يَتَفَرَّقُوا لَيْلٌ يَكُورُ عَلَيْهِمْ وَنَهَارٌ
وخرج ثم عاد إليها فى اليوم الثالث ، وحولها مولدات كأنهن التماثيل ، فنظر
الفرزدق إلى واحدة منهن ، فأعجب بها . فقالت : يا فرزدق . من أشعر الناس ؟
قال : أنا . فقالت : كذبت . صاحبك أشعر منك ، حيث يقول :
إِنَّ الْعَيُونَ الَّتِي فِي طَرْفِهَا مَرَضٌ قَتَلْتَنَا ثُمَّ لَمْ يُحْيَيْنَا قَتَلَانَا
يَصْرَعُنْ ذَا اللَّبِّ حَتَّى لَا حَرَكَ بِهِ وَهْنٌ أَوْعَفُ خَلَقَ اللَّهُ أَرْكَانَا
وَكَانَ أَنْ أُعْجِبَ الْفَرَزْدَقُ بِأَحَدٍ هَؤُلَاءِ الْجَوَارِي ، فَأَعْطَتْهُ سَكِينَةً بِإِيَّاهَا .

(١) يقال لمرأة سيفانة : ممشوقة طويلة

(٢) الأغاني ج ١٤ — طبعة قديمة من ١٧٧

وقالوا^(١) : إن أبا دَهْبَل كان يهوى امرأة من قومه يقال لها عَمْرَة ، وكانت امرأة
جزلة^(٢) يجتمع إليها الرجال للمحادثة وإنشاد الشعر والأخبار .
ويقول فيها أبو دَهْبَل :

تطاولَ هذا الليلُ ما يتبَّاجُ وأعيت غواشي عَبرتي ما تفرَّجُ
وبت كثيراً ما أنام ، كأما خلال ضلوعي جَمرةٌ تنوهج
فطوراً أُمّني النفس من عَمْرَة المني وطوراً ، إذا مالَجَ بي الحزن أنشج^(٣)
لقد قطع الواشون ما كان بيننا ونحن إلى أن يوصلَ الحبلُ أحوجُ

وقالوا^(٤) : كانت عقيلة بنت الضحاك تهوى ابن عمها عمرو بن كعب . وكانت
عقيلة أديبة تحفظ الشعر ، وتعرف كثيراً من نوادره ومراميه . ووفد عليها رجل
من قبيلة الفرزدق . فسأله : ممن الرجل ؟ . قال : من بني حنظلة . قالت : من أيهم ؟
قال : من بني نهشل . فتبسّمت وقالت : أنت إذن ممن عناه الفرزدق بقوله :

إن الذي سمك السماء بني لنا بيتاً دعائمه أعز وأطول
بيتاً بناه لنا المليك ، وما بني ملكُ السماء فإنه لا ينقل

قال الرجل : نعم . جعلت فداك . فضحكت ، وقالت : فإن ابن الخطفي - جرير -
قد هدم عليكم بيتكم هذا الذي فخرتم به حيث يقول :

أخزى الذي رفع السماء مجاشعاً وبني بناءك بالحضيض الأسفل

قال : فوجمت . فلما رأت هذا في وجهي قالت : لا عليك فإن الناس يقال فيهم
ويقولون . ثم قالت : أين تؤم ؟ . قلت : اليمامة .

فتنفس الصعداء . ثم قالت : ها هي تلك أمامك . ثم أنشأت تقول :

تذكرني - بلاداً خيرُ أهلى بها أهل المروءة والكرامة

(٢) الجزلة : الأصيلة الرأي

(٤) الأغاني ج ٨ ص ٤٥

(١) الأغاني ج ٧ ص ١١٦

(٣) النشيج : صوت معه توجع وبكاء

وأخذت تذكر هواها في أبيات جزلة رقيقة ، منها :

إذا رقد النيامُ فان عمرا تؤرقه الهموم إلى الصباح
تُقطع قلبه الذكرى وقلبي فلا هو بالخلي ولا بصاح
سقى الله اليمامة دار قوم بها عمرو يحن إلى الرواح
وكان للأدب في بلاد الأندلس مجالس يؤمها كثير من رجال العلم والأدب ،
حتى امتلأت المحافل والجامع بضروب اللهو والطرب .

وكما^(١) قال الدكتور أحمد ضيف : « وكان للنساء أثر عظيم في هذه المجالس ، فأتجه
الناس إلى الاندماج فيها ، واستعذبوا هذا المورد وانصرفت هم الأدباء إلى التفوق
في هذا الميدان . فكان لذلك أثر عظيم في أخلاق الأدباء ، وصورة البلاغة
من نظم ونثر » .

وفي وصف أحد هذه المجالس يقول المعتمد بن عباد :

أيها صاحب الذي فارقت عي في ونفسي منه السناء والسناء^(٢)
نحن في المجلس الذي يهب الرا حة والسمع والغنى والغناء
تعاطى التي تسمى من الـ لذة والرقه الهوى والهواء
فانه تلف راحة ومُحيا قد أعدا لك الحيا والحيا

٤ — مظاهر الترف

ليس من شك في أن الغزل فن من الفنون الرفيمة ، وأنه لون من ألوان الحياة
الباسمة الصافية . لا تهفو إليه الأفئدة إلا إذا كانت خالية من شوائب الحياة ، وآلام
الزمن . ولا تهتز به القلوب إلا إذا كانت غردة طروبة ، تجدها من شعر الغزل
ما يغذى هذا الطرب ويقويه ، وينميهِ .

(١) بلاغة العرب ص ٦٦ (٢) السناء : ضوء البرق والسناء الرفعة .

وقل لى بربك : ما لهؤلاء الناس الذين يكدون فى البحث عن قوتهم فلا يجدونه ، وإذا وجدوه فى غصة ومرارة . ولهؤلاء الذين نكبهم الزمن فنقص آمالهم ، وأمنهم ، وهدوئهم بضروب من القلق والفرع . ولهؤلاء الذين شغلهم نوع من أنواع الحياة ، أياً كان ، فاستولى على كل نواحي شعورهم وتفكيرهم ، وحجبهم عن هذه الحياة الجميلة التى يعيش فيها جماعة من الناس ، تجمعهم آصرة الحب ، والتى يكون الغزل ، وشعره أداة من أدوات الترفيه والفن فى عالمها الهادئ المحبوب . ولهؤلاء الذين عاشوا فى الحياة وعقولهم مغلفة ، وقلوبهم جامدة ، فهم يكادون أن يكونوا كالهم فى جهل وغفلة وضيق . نعم . ما لهؤلاء الناس والغزل ؟ .

إنهم لا يعرفونه ، ولا يصلون إليه ، ولا يتذوقون ما فيه . وإذا وصلوا إليه اعتبروه نوعاً من اللهو والسخرية والمجون . إذن يكون الغزل حيث يكون صفاء العيش ، وحيث يكون نعيم الحياة . وحيث تكون الدعة والطمأنينة ، وهدوء البال . وعلى قدر ما لهذه العوامل من حظ فى القوة والضعف ، يكون حظ الغزل من قوة أو ضعف .

على قدر ما يكون لهذه العوامل من تأثير فى الشاعر ، ومن تأثير فى الناس . فالشاعر إذا كان ناعماً صافياً سما بروحه إلى هذا النوع الجميل ، فأبدع وأتقن وأخرج لنا مجموعة صالحة من المعانى العذبة ، والأخيلة الرائعة . وجمهور الناس إذا نعموا وصفت قلوبهم وجدوا من نتاج الشاعر ، ومن فيض الشعراء ما يغذى عاطفتهم وشعورهم . وفى هذا الميدان توجد الصلة بين الشاعر وقارئه وسامعيه ، ويوجد التسابق فى الإجابة وتوجد الثروة الشعرية ، التى يغنى بها الأدب ، وينعم بها الناس . يقول ابن خلدون^(١) :

« إن الأمة إذا تغلبت وملكت ما بأيدي أهل الملاك قبلها كثر رياشها ونعمتها

فتكثر عوائدهم ، ويتجاوزون ضرورات العيش وخشوته إلى نوافله ورقته وزينته .»

ويقول في فصل آخر :

« فإذا حصل الملك أقصروا عن المتاعب التي كانوا يتكلفونها في طلبه ، وآثروا الراحة والسكون والدعة ، ورجعوا إلى تحصيل ثمرات الملك من المباني والمساكن والملابس ، فيبنون القصور ، ويجرون المياه ، ويفرسون الرياض ، ويستمتعون بأحوال الدنيا . »

وإننا لنقرأ في الشعر العربي حيث كانت القوة ، وحيث كان الملك وتحصيل ثمراته - كما ذكر ابن خلدون - ألواناً رائعة من شعر الغزل . كما نعرف كثيراً من نوادر الغزل وأخباره وحوادثه تمتلئ بها كتب الأدب ، ويتحدث بها الناس جيلاً بعد جيل ، وقد يكون هذا من الطبعي الذي يحتاج إلى بسط أو بيان . فالإنسان في كل عصر وفي كل أمة متى نعم ، وهذا باله ورغد عيشه ، أخذ يفكر في ترفيه نفسه ، وتهذيب حسه ، وصقل وجدانه .

ولا شك أن الشعر من أقوى هذه الأسباب ومن أكثرها ذيوماً وانتشاراً . وخاصة عند العرب وقد شغفوا به حباً من قديم الزمن . ولا شيء كالغزل بين ضروب الشعر يكون أكثر حساسية وأكثر نفاذاً إلى القلوب .

على أنه ليس من الضروري أن يكون ملك ، حتى يكون من تحصيل ثمراته الدعة ، والراحة والاستمتاع بأحوال الدنيا ، ثم يكون الغزل ، يكون شعر الغزل . ولكن يكفي أن يكون البال صافياً ، غير مشوب بما يكدره ويعكر عليه هناءه ورفاهته . ولهذا كان شعر الغزل أيام الجاهلية ، وليس هناك ملك حتى تحصل ثمراته ، ولكن كان العربي صافي النفس ، هادئ البال ، يجد نعيمه في الحياة ، حيث يجد قوته ، وكان لا يلقى في الحصول على هذا القوت مشقة وعناء وهو بعد الحصول على القوت

أكثر ما يكون أمنًا ، ودعة وسلاما ، وهو لذلك يتجه إلى شعر الغزل ويجد فيه غذاء القلب ، وغذاء الروح .

ومن هذه العوامل :

(١) الشباب

وأعني بهذا شباب الشاعر ، وشباب الأديب ، وشباب الأمة .
فالشاعر إذا كان شابا فتيا ، ذا صحة ونشاط ، وتهيات له الوسائل الأخرى ، فإنه يعمل جاهداً على أن يضمنى على الإنسانية من طريق الشعر ، الذى هو ترجان نفسه لونا من ألوان الحياة المرحية الباسمة ، الحياة الجميلة العذبة ، الحياة الصافية ، حياة الغزل ، حياة الحب ، حياة الهوى .

وفى هذه الحياة بصور لك كثيراً من المعانى الرائعة ، التى تحدثك عن العواطف الملهبة المتقدمة ، إنه يكون فى شعره كما يكون فى شبابه زاهراً ، ناضراً ، حساساً ثائراً . إنه يكون فى شعره كما يكون فى شبابه ضحوكاً مرحاً ، راقصاً طروباً . إنه يبعث فى شعره روحاً من قلبه ووحياً من عاطفته ، ولذا يكون غزله فى الشعر فى هذا العهد الفضى الباسم صورة رائعة فيها قوة ، وفيها جذّة ، وفيها فن وجمال .

أما إذا كان الشاعر قد أصابته الشيخوخة ، وتوالت عليه أحداث الزمن حتى قوست ظهره ، وضيق العيش فى سبيله فإنه يرغب عما هو حسن جميل . وإنه يزهد فى مظاهر الحياة ، وخاصة مباهجها وزخارفها . فلا شأن له بالغزل ، ولا شأن له بمعانى الحب بصورها ، ويتفنن فى تصويرها . وقد مر بنا أن سئل كثير : لم أصبح لا يقول الشعر ؟ فذكر أن من أقوى الأسباب التى حالت بينه وبين الشعر أن ذهب شبابه فلا طرب .

وشباب الأديب يحمل فيه قبولاً لكل ما هو فاتن جميل ، يلهب عاطفته ، ويملك عليه قلبه ، وإنه يجد ذلك فى شعر الغزل ، ولذا فهو يتذاكره ، ويتدارسه ، ويختار

من ألفاظه ومعانيه ، ما يروى ظمأه ، ويطفى غلته ، والشعراء إذا وجدوا من يتفهم أشعارهم ، ويفوص عن مكنون المعانى كان هذا حافظاً للجودة والإتقان وكان هذا سبباً من أسباب تقدير المجودين ومكافأة النابهين . ومن هذا التقدير أن يسرى شعره فى كل مكان ، ينطق به كل لسان ، ويهتف به كل قلب . وحينذاك يتبارى الشعراء ويتنافسون . وحينذاك تكون للفرز سوق نافقة يكثر فيها البيع الشراء ، فالطلب كثير ، والعرض كثير .

وأحب أن أصور لك المسألة تصويراً آخر :

هذا شاعر غزل ، يطلع علينا بفيض من وحى قلبه ، ويخرج لنا صوراً جميلة من الألفاظ والمعانى . ولكنه بين قوم كهول ، أنماهم الزمن وأقدمهم ، وجعلهم يرون أفق الحياة فى وجوههم ضيقاً عابساً كريهاً ، ليس فيه ازدهار ، وليست فيه آمال ، وليست فيه فتوة وشباب .

ما لهؤلاء وشعر الفرز ، وأخبار الفرز !!

إنهم فى حال قد تسلمهم ولو بعد عهد قريب من الزمن إلى حافة القبر ، فليزهدوا فى الحياة الدنيا ومباهجها ، وليتصلوا إلى الحياة الأخرى بأسباب من تقوى الله وخوف عقابه . وإذا كان الأمر كذلك فإن الفرز لا يصل إلى قلوبهم ، وإن شعر الفرز لا يصل إلى أسماعهم .

وشباب الأمة أى قوتها وعظمتها . الأمة الفتية الشابة ، يكون قد اجتمع لها زاد من أسباب المجد يجعلها فى رغد من العيش ، وفى قوة ومنعة ، وفى راحة وأمن وطمأنينة . وتلك هى الحال التى عنها ابن خلدون ورآها فى حصول الملك لأى أمة من الأمم . وتلك هى الحال التى إذا عاش الناس فى ظلها نعموا وترفها ، فطابت آمالهم ، ووجدوا فيها مجالاً خصباً ، فيه يسرحون ويمرحون ؛ ويجد شعراء الفرز فى هذه الحيلة ما يقوى شاعرهم ، ويصقل عاطفتهم ، ويرقى إحساسهم ، ويوحى إليهم أن يطلعوا على الناس

بما هو حسن جميل وما هو عذب غرد ؛ وما هو فائق شائق يوافق حياتهم الناعمة وعيشهم الفاره .

وإذا اجتمع شباب الشاعر ؛ وشباب الأديب — أى جمهور القارئ أو السامعين — وشباب الأمة وجد الشعر أكثر ما يكون قوة وروعة ، وكان الغزل ، أكثر ما يكون عذوبة ورقة . ولعلنا حين نتحدث عن تطور الغزل نعطيك صورة صحيحة فى تأييد ما نقول .

قالوا :

كان أبو العتاهية غزلاً ، ولكنه انصرف فى أخريات أيامه ، وقد كبرت سنه إلى الزهد وترك الغزل ، ولكن الرشيد يحلو له أن يسمع غزل أبى العتاهية ، فرغب إليه أن يتغزل فأبى فحبسه ، فغنى بقوله :

خليلىّ ما لى لا تزال مضرّتى تكون على الأقدار حتما من الحتم
كفأك بحق الله ما قد ظلمتنى فهذا مقام المستجير من الظلم
ألا فى سبيل الله جسمى وقوتى ألا مسعّدٌ حتى أنوح على جسمى

فأمر الرشيد بإحضاره وقال له : بالأمس ينهاك أمير المؤمنين المهدي عن الغزل فتأبى إلا الجأ ومكابرة ، واليوم آمرك بالقول فتأبى جرأة على وإقداما . فقال : «يا أمير المؤمنين إن الحسنات يذهبن السيئات . وكنت أقول الغزل ولّى شباب وجدة ، وبى حراك وقوة . وأنا اليوم شيخ ضعيف لا يحسن بمثل تصابٍ » .

ولم يقنع الرشيد بهذا ، فرد إلى الحبس . وكان من الحق أن يقنع به لأنه قول صحيح سليم . وسنرى فى باب الغزل أن شباب الشعراء هو الذى أجدى على الشعر العربى بما نقرؤه فى شعر الغزل . وإن عهد شباب الأمة هو خير العهد ازدهاراً فى الغزل ، بل تكاد تكون الثروة الغزلية من آثار هذا العهد .

ومن الجلى أن عصر بنى أمية ، وعصر بنى العباس هما مظهر الشباب فى الأمة

العريضة . ومن الطبيعي أن يكون الغزل في هذين العصرين زاهراً عامراً . ولم يؤت هذا الحظ في أى عصر من العصور كما وجد في هذين العصرين .

(ب) الجوارى

تقرأ في الأدب العربى كثيراً من أخبار هؤلاء الجوارى وأنهن كن سبباً في بعض العهود وخاصة في العصر العباسى إلى حال ازدهر فيها الأدب وسما ، وأصبح غنياً بفنون من الظرف والرقعة والجمال .

وقد دعا إلى كثرة هؤلاء الجوارى في العصر العباسى ما كان بين العرب والفرس من عشرة وجوار واختلاط ، وأن التوسرى أصبح حلالاً ، فللخليفة أو الأمير أو الحاكم أن يملك من هؤلاء من يشاء ، وأن الفتوحات ، خلقت للعرب من هؤلاء الشئ الكثير . ويظهر أن كثرة الجوارى في هذا العصر قد هالت الرياشى الشاعر ، وفى ذلك يقول :

إن أولاد السّرارى كثرُوا ، يارب ، فينا

رب أدخلى بلاداً لا أرى فيها^(١) هجينا

وبعض هؤلاء الجوارى يكن مملوكات للخلفاء أو الأمراء أو الأغنياء وكن يختلفن إلى كثير من الأندية والمحافل ، يعرفها الشعراء ، والأدباء ، فيتجهون إليها ، وهناك يتناشدون أشعار الغزل ، ويسمعون الغناء العذب ، ويسمرون ويشربون ، ويمجدون في ذلك متعة لا تدانيها متعة .

وكان^(٢) لابن رامين^(٣) منزل بالكوفة يعرض فيه بعض جواريه وكن مغنيات مجيدات ، وهنّ : سلامة الزرقاء ، وربيعة ، وسعدة . وفيهن يقول إسماعيل بن عمار قصيدته التى أولها :

(١) الهجين من أمة سرية (٢) نهاية الأرب ج ٥ ص ٧٥

(٣) ابن رامين هو عبد الملك بن رامين مولى عبد الملك بن بشر بن مهوان .

هل من شفاء لقلبٍ لَجَّ محزونٍ صَبَا وَصَبَّ إِلَى رِثْمِ ابْنِ رَامِينَ
إِلَى رَبِيعَةٍ ، إِنَّ اللَّهَ فَضَّلَهَا بِحُسْنِهَا وَسَمَاعِ ذِي أَفَانِينَ
نعم شفاؤك منها أن تقول لها : قَتَلْتَنِي يَوْمَ دَيْرٍ ^(١) اللَّجَّ فَأَحْيَنِي
أنت الطيبُ لداءٍ قد تلبَّسَ بي مِنَ الْجَوَى فَأُنْفِئْ فِيَّ وَأَرْقِئْنِي
نَفْسِي تَأْتِي لَكُمْ إِلَّا طَوَاعِيَةً وَأَنْتِ تَحْمَيْنَ أَنْفًا أَنْ تُطِيعِنِي
وكان هؤلاء الجوارى على جانب عظيم من الجمال ، وكما يقول ^(٢) الدكتور
طه حسين بك :

قد أحسن تأديبهن ، فروين الشعر ، وقرضنه ، وأحسن الموسيقى ونبغن فيها ،
وأخذن من العلم والأدب المعروفين حينئذ بطرف لا بأس به . فكن يثبتن لمناظرة
الشعراء والعلماء وأئمة اللغة . وكن يمتزن بذلك ، ويتقدمن على الحرائر والمحصنات ،
لأن حرية هؤلاء وإحصانهن كانا يحولان بينهما وبين التحدث إلى الرجال ، والتبذل
في هذا الحديث .

وقد يحلو للقارىء أن نحدثه بعض الحديث عن علم الجوارى ، وأدبهن .
كان ^(٣) محمد بن عيسى الجعفرى يهوى بصبَّص جارية ابن نفيس ، فذهب
إليها ومعه صديق ، فلما غنَّيهما ، قال لها محمد بن عيسى : أغننين ؟

وكنْتُ أُحِبُّكُمْ فَسَلَوْتُ عَنْكُمْ عَلَيْكُمْ فِي دِيَارِكُمْ السَّلَامُ
فَقَالَتْ : لَا . وَلَكِنِّي أُغْنِي .

تَحَمَّلَ عَنْهَا أَهْلُهَا فَبَانُوا عَلَى آثَارٍ مِنْ ذَهَبِ الْعَفَاءِ
فَأَطْرَقَ سَاعَةٌ ، ثُمَّ قَالَ : أَغْنِينِ ؟
وَأَخْضَعَ بِالْعُتْبَى إِذَا كُنْتُ مَذْنِبًا وَإِنْ أَذْنِبْتُ كُنْتُ الَّذِي أَتَصَلُّ
قَالَتْ : نَعَمْ . وَأَغْنِي أَحْسَنَ مِنْهُ .

(١) دير بالحيرة بناء النعمان بن المنذر (٢) حديث الأرباء ج ٢ ص ١٢٩ (٣) نهاية الأرب ج ٥ ص ٧٤

فان تقبلوا بالود تقبل بثلثه ونزلكم منا بأقرب منزل

فتقاطعا في بيتين وتواصلا في بيتين وما شعر بهما أحد ! .

وقال^(١) مروان بن أبي حفصة : لقيني الناطقي فدعاني إلى عنان^(٢) فانطلقت معه ، فدخل إليها قبلي ، فقال : جئتك بأشعر الناس مروان بن أبي حفصة ، فوجدتها عليلة ، فقالت : إني عن مروان لفي شغل فأهوى إليها بسوط ، فضربها ، وقال لي : أدخل . فدخلت وهي تبكي ، فرأيت الدموع تنحدر من عينيها ، فقلت : بكت عنان فجرى دمعها كالدر إذ يسبق من خيطه فقالت مسرعة :

فليت من يضربها ظالماً تيبس يمناه على سوطه

قال مروان : فقلت أعتق ما أملك إن كان في الجن والإنس أشعر منها .

وقال أحمد بن معاوية : قال لي رجل : نصفحت كتباً فوجدت فيها بيتاً جهدت جهدي أن أجده فلم أجده . فقال لي صديق لي : عليك بعنان جارية الناطقي ، فأتيها فأنشدتها البيت وهو :

وما زال يشكو الحب حتى رأته تنفّس من أحشائه وتكلّمها

فلم تلبث أن قالت :

ويبكي فأبكي رحمةً لبكائه إذا ما بكي دمعاً بكيت له دماً

وحدثنا^(٣) الفضل بن العباس بن المأمون قال :

زارتني عريب يوماً ؛ ومعها عدة من جواريتها ، فتحدثت معنا ساعة ، وسألها أن تقيم معنا فأبت ، وقالت قد وعدت جماعة من أهل الأدب والظرف أن أصير إليهم وهم في جزيرة المؤيد ، منهم إبراهيم بن المدبر ، وسعيد بن حميد ، ويحيى بن عيسى ،

(١) نهاية الأربع ج ٥ ص ٧٨ (٢) جارية الناطقي من مولدات الهيماء .

(٣) الأغاني طبعة قديمة ج ١٩ ص ١٢١

فخلعت عليها فأقامت ودعت بدواة وقرطاس ، وكتبت إليهم :

بسم الله الرحمن الرحيم . أردت ، ولولا ، ولعللى .

ووجهت الرقعة إليهم فلما وصلت قرءوها ، وأخذها إبراهيم بن المدبر وكتب :

تحت أردت : ليت . وتحت لولا : ماذا . وتحت لعللى : أرجو . ووجه بالرقعة إليها . فلما قرأتها طربت . وقالت : أنا أترك هؤلاء ، وأقعد عندكم . ومضت إلى مجلس أهل الأدب .

لعل القارىء لا يكون فى حيرة من جواب عريب ، ورد إبراهيم بن المدبر أما

هى فتعنى : أردت الحضور . ولولا ما شغلنى لتحقيق عزمى ، ولعللى أراكم بعد قليل . وكان رده عليها . ليت ما أردت تحقق ، وماذا شغلك ؟ وأرجو أن تحضرى بعد قليل . وحدثنا عمرو بن بآنة^(١) قال :

كان فى جوارى رجل من البرامكة ، وكانت له جارية شاعرة ظريفة ، يقال لها

« حسناء » ، يدخل إليها الشعراء ، ويسألونها عن المعانى ، فتأتى بكل مستحسن

من الجواب ، فدخل إليها سعيد بن وهب يوماً ، وحادثها طويلاً ثم قال لها :

حاجيتُك يا حسناء فى جنسٍ من الشعر

وفىما طوله شبرٌ وقد يوفى على الشبرِ

له فى رأسه شقٌّ نطوف^(٢) بالندى يجرى

إذا ما جفَّ لم يجر لدى برٍّ ولا بحر

وإن بُلَّ أنى بالعجب العاجب والسحر

أجيبى لم أَرِدْ فُحْشًا وربَّ الشفع والونر

ولكن صُغت أبياتا لها حظٌّ من الزجرِ

قال : فغضب مولاهما . وتغير لونه . وقال :

(١) عصر المأمون ج ٢ ص ٤٠٩ (٢) يقال ليلة نطوف : أى فاطرة تَطُر حتى الصباح

أنفحش على جاريتي ، تخاطبها بالحنى ؟ .

فقلت له : خفض عليك ، فما ذهب إلى ما ظننت ، وإنما يعنى القلم . فسُرَّ عنه ،
وضحك سعيد ، وقال : هي أعلم منك بما سمعت .

كان من الطبعي إذن وقد كثر هؤلاء الجوارى الحسان ، وكن على جانب
من المعرفة ، والأدب ، والفطنة ، وسرعة الخاطر ، وكن أيضاً مع هذا كله — وكله
يفرى ويفوى — على حظ من حسن الصوت ، فأصبحت لهن ، أو لكثير منهن ميزة
أخرى ، زادت في أعين الناس فتنة ، وروعة هي الغناء . وما أقرب به إلى نفوس
العرب ! وما أحبه إلى الحس المرهف ، والقلب الطروب !

كان من الطبعي أن يجد شعر الغزل من هؤلاء الجوارى زاداً ، وإذا كان الشعر
صورة للعصر الذي يعيش فيه . كان من هذه الصورة أن وصف لنا الشعر جمال هؤلاء ،
ووصف فتنتهن ، وزينتهن ، ووصف حديثهن ، وكان من هذه الصورة أن حمل إلينا
الشعر العربي ، وصفاً للقلوب التي أشربت حب هؤلاء الجوارى ، وللأفئدة التي خفت
بهواهن ، وغرامهن ، وكيف أن هؤلاء الجوارى سحرن كثيراً من ذوى العواطف
الملتبة ، وجذبن إلى نفوسهن كثيراً من ذوى الإحساس المرهف . وكان لا بد لنا
أن نقرأ في الشعر العربي صوراً من هذا كله .

إذن تغزل الشعراء في الجوارى وفاض شعر الغزل بوصفهن ، وأخبارهن . وهانحن
أولاء نقرأ من هذا في الشعر العربي صوراً جميلة رائعة ، فيها قوة ، وفيها حسن ،
وفيها إتقان ، فنحمد هؤلاء الجوارى ما أسدين إلى الأدب من ثروة ، ومن زاد . وكان
من الحق أن نعتبر هؤلاء الجوارى وكثرتهن ، وانتشار نفوذهن ، على الصورة التي
نراها سبباً من أسباب الغزل ، وعاملاً من عوامله .

وإني ذاكر لك بعض أمثلة من شعر الغزل في هؤلاء الجوارى . وفي الباب
الخامس — تطور الغزل — بقية من هذه الأمثلة .

كان الرشيد يهوى ثلاث جوار ، ويقول الشعر فيهن ، وهن سحر ، وضياء ،
وخنث ، وفيهن يقول :

أخذت سحر ولا ذنب لها ثلثي قلبي وترباها الثلث
ويقول مطيع بن إلياس في جارية اسمها — ريم — كان يهواها :
يا ريمُ يا قاتلتى إن لم تجودى فعدي
بيّضت بالمطل وإخلا فك وعدى كيدي
حالفت عيني سهدى وما بها من رمدى

ويقول حماد عجرد في جارية اسمها « جَوْهَر » :

إني لأهوى جوهرا ويحب قلبي قلبها
وأحب من حُبِّي لها من ودّها وأحبّها
وأحبُّ جارية لها تخفى وتسكتم ذنبها

وكان على بن آدم بالكوفة يهوى جارية ، علقها وهى صبية تختلف إلى الكتاب
فكان يجرىء إلى ذلك المؤدب فيجلس عنده لينظر إليها ، فلما أن بلغت باعها مواليها
فجرع على ذلك جزعاً شديداً ، وقال :

صاحوا الرحيل وحنّى صحبى قالوا الرّواح فطيّروا أُبّى
واشتقت شوقاً كاد يقتلنى والنّفسُ مشرفة على نحب
لم يلقَ عند البين ذو كلف يوماً كما لاقيت من كرب
لا صبرَ لى عند الفراق على فقد الحبيب ولوعة الحب
ولأبى الشّيص الشاعر جارية سوداء ، تعشقها ، وفيها يقول :

يا أبنّة عم المسك الذكى ومن لولاك لم يتخذ ولم يطب
ناسبك المسك فى الرّذء وفى الر يح فاكرم بذاك من نسب

وأبو عَيْنَةَ الشاعر يهوى جارية ، يقال لها « أمان » طلب فيها مولاهما ثمناً كبيراً ، وفيها يقول :

قلت لما رأيت مولى أمان قد طغى سؤمه بها طغيانا
لا جزى الله الموصلي أبا إسحاق عنا خيراً ولا إحسانا
جاءنا مرسلابوحي من الشيطان أغلى به علينا القيانا
من غناء كأنه سكرات الحسب يضربى القلوب والآذانا
ويقول أبو نواس في « جنان » الجارية ، وقد كلف بها كلفاً شديداً :
جنان إن جُدتِ يا مُنَى بما أمِلُ لم تَقْطُرِ السماء دما
وإن تَمَادى ولا تَمَاديت في منعك أصبح بَقْفَرَةٍ رَمَا
عَلِقْتُ من لوأنتى على أنفـس السـماضية والغابرين ما ندما
لو نظرت عَيْنُهُ إلى حَجَرٍ وَلَدَ فِيهِ فَتَوْرُهَا سَقَمَا
وأحب بشار جارية يقال لها « فاطمة » سمعها تغنى فطرب من غنائها
وفي ذلك يقول :

درةٌ بحريةٌ مكنونة مازها التاجر من بن الدَّرَرِ
عجبتُ فَطْمَةً من نعتي لها هل يجيدُ النعتَ مكفوفُ البصرِ
ج — الفناء :

يقول ابن خلدون في صناعة الفناء « هي تلحين الأشعار الموزونة ، بتقطيع الأصوات على نسب منتظمة معروفة ، يقع على كل صوت منها توقيعاً عند قطعه فيكون نغمة ، ثم تؤلف تلك النغم بعضها إلى بعض على نسب متعارفة فيلذ سماعها لأجل ذلك التناسب ، وما يحدث عنه من الكيفية في تلك الأصوات » .

وإذا عرفت بجانب هذا ما طبع عليه العربي منذ نشأته من حب الشعر والشغف به ، والسبق في مضاره وطبيعة البيئة التي تحيط به ، من شمس مشرقة ، وسماء صافية
الغزل — م ٤

وصحراء فسيحة الآماد . وأنه صافي الذهن ، ناعم البال ، يتسم للحياة ويطرب لها ، ويتغنى بما وهب الله فيها من نعم ، وخيرات ؛ وجمال .

إذا عرفت هذا كله أدركت لم شغف العربي بالغناء ، ولم انتشر الغناء بين العرب وكانت له في نفوسهم هذه المكانة الرفيعة تزدان به مجالسهم ، ويستهوى ألبابهم وأفئدتهم ، لا فرق في ذلك بين السوق والخاصة . ولا فرق أن يكون العربي في حفل أو مجلس ، أو يخلو إلى نفسه ، فيذكر هواها ، وإذا هو يتغنى ببضعة أبيات من الشعر تلائم حاله ، وتوافق حنينه أو أنينه ، فيجد في ذلك لذته ومتعته ، ويرى في ذلك فرحته وبسمة .

وإنك لتجد في كتب الأدب كثيراً من الأمثلة ، ومن الأخبار التي تفصح لك عن حب العربي للغناء ، وطربه به . إشباعاً لرقه عاطفته ، وحساسيته ، وإشباعاً لشاعريته . وما يحمله هذا الشعر من روعة في اللفظ والمعنى .

يقول عبد الله بن جعفر :

إن لي عند السماع هزة ، لو سئلت عندها لأعطيت ، ولو قاتلت لأبليت .
وقالوا :

خرج^(١) عبد الله بن جعفر منزهاً ، فصادف ابن سريج ، وعزة الميلاء متزهين فأناخ ابن جعفر راحلته ، وقال لعزة : غنيني ، ثم قال لابن سريج : غنني يا أبا يحيى ، فغناه .

فطرب عبد الله وأمر براحلته فنحرت ، وشق حلتها فألقى نصفها على عزة ، والنصف الآخر على ابن سريج .

فباع ابن سريج النصف الذي صار إليه بمائة وخمسين ديناراً . وكانت عزة إذا جلست في يوم زينة أو مباهاة ألفت النصف الآخر عليها تتجمل به .

وكان عبد الله بن جعفر ، وابن أبي عتيق ، وعمر بن أبي ربيعة يفشون منزل عزة
الملاء ، فتغنيهم ، وغنت يوماً عمر بن أبي ربيعة لحناً لها في شيء من شعره ، فشق
ثيابه ، وصاح صيحة عظيمة صمق معها ، فلما أفاق قال له القوم : لغيرك الجهل
يا أبا الخطاب . قال :

إني سمعت والله ما لم أملك معه نفسى ولا عقلى .

وكان من عادة عمر بن أبي ربيعة ، وابن سريج أن يخرجوا في موسم الحج يتلقيان
الحاج . خرجا ذات يوم ؛ وكان أن أظلم عليهما الليل ؛ فعدلا إلى كتيب ؛ والقمر طالع
يضى . فغنى ابن سريج من شعر عمر .

وما كاد ابن سريج يستتم الغناء حتى طلع رجل يركب فرساً عتيقاً ؛ أعجبه
الصوت ! فقال إلى صوبه . قال الرجل لابن سريج : أيمكنك — أعزك الله — أن
تردّ هذا الصوت ؟ فأعاده ابن سريج ، قال الرجل : بالله أنت ابن سريج ؟ قال نعم .
قال : حياك الله ! وهذا عمر بن أبي ربيعة ؟ قال نعم . قال : حياك الله يا أبا الخطاب .
فقال له : وأنت فحياك الله . قد عرفتنا فعرّفنا نفسك . قال : لا يمكننى ذلك . فغضب
ابن سريج وقال : والله لو كنت يزيد بن عبد الملك لما زاد . قال له : أنا يزيد بن عبد الملك .
فوثب إليه عمر فأعظمه ؛ ونزل ابن سريج إليه فقبل ركابه . ونزع يزيد حلته وخاتمه ؛
ودفعهما إلى ابن سريج .

وذات يوم وقف ابن سريج عند بستان في طريق الحج . وأخذ يغنى :

لمن نار بأعلى الخيف^(١) دون البئر ماتخبو

أرقت لذكر موقعها فحنّ لذكرها القلب

وما أن سمع الحاج هذا الصوت حتى أقبلوا عليه ، وتزاحموا . ورأى هذه الحال
رجل آخر ، وخاف أن ينصرف الحاج عن إتمام مناسك الحج ، فقال : يا هذا قد

(١) اسم موضع والخيف ما انحدر عن غلظ الجبل ، وارتفع عن سبل الوادى .

قطعت على الحاج وحبيستهم ، والوقت قد ضاق ، فاتق الله وقم عنهم ، وكان أن قام ، فسار الناس .

وكان ^(١) أحمد بن أبي داود يعيب الغناء ، ويطعن على أهله ، ودعاه المعتصم يوماً ، وكان معه إبراهيم بن المهدي ، فغنى — على إحدى الروايات :

طَرَقَتْكَ زَائِرَةٌ خَفِيَ خَيَالُهَا بِيضَاءُ تَخْلِطُ بِالْحَيَاءِ دَلَالُهَا
هَلْ تَطْمِسُونَ مِنَ السَّمَاءِ نَجْمُومَهَا بَأْ كُفِّكُمْ أَوْ تَسْتُرُونَ هَلَالُهَا

وطرب ابن أبي داود بهذا الغناء ، وشغله هذا الطرب عن كل شيء ، حتى سقط من يده سوطه . فطلب من غلام له سوطه ، فقال له : قد والله سقط سوطي . قال أحمد : فأى شيء كان سبب سقوطه ؟ . فقال الغلام : صوت سمعته شغلني عن كل شيء ، فسقط سوطي من يدي . قال أحمد : فإذا قصته قصتي ! .

هذا جانب من طرب الخاصة بالغناء . وأسوق لك هذين الحادثين لطرب السوق بالغناء .

شخص معبّد المغنى إلى مكة . وفي طريقه اشتد به الحر والعطش . وصادفه خباء فيه عبد : فقال إليه وقال : يا هذا اسقني من هذا الماء . فقال : لا . فقلت : فأذن لي في الكنّ ساعة ، قال : لا . فأناخت ناقتي ، ولجأت إلى ظاهها فاستترت به وأخذت أغنى .

وما سمع العبد الغناء حتى احتمل معبداً وأدخله خباءه . ثم قال : أى بأبى أنت وأمى . هل لك في سويق السُّلْت ^(٢) بهذا الماء البارد ؟ . فقلت : قد منعني أقل من ذلك وشربة ماء تجزئني . قال : فسقاني حتى رويت . فلما أردت الرحلة ، قال أى بأبى أنت وأمى ! الحر شديد ، ولا آمن عليك مثل ما أصابك . فأذن لي أن أحمل معك قربة من ماء على عنقي وأسعى بها معك ، فكلما عطشت سقيتك صحناً ، وغنيتني صوتاً . قال :

(١) الأغاني ج ١٠ ص ١٠٦ (٢) شعير لا قشر له ، يتبردون بسويقه في الصيف .

قلت : ذاك لك فوالله ما فارقنى يسقيني وأغنيه ، حتى بلغت المنزل .

وكان اسماعيل بن الهرَبْد مملوكاً لرجل من ولد الزبير ، فدفع إليه درهمين ، يبتاع
له بهما لحماً . فلقى جارية على رأسها جرة تغنى لحناً ، فسألها أن تعلمه إياه فأبت إلا
أن يعطيها درهمين ، فأعطاهما ، ورجع إلى مولاه بغير لحم ، فضربه ضرباً شديداً ،
فأنسى اللحن . وبعد أيام دفع له درهمين آخرين يبتاع بهما لحماً ولقيته الجارية ،
فسألها أن تعيد الصوت . فأبت إلا بدرهمين . فدفعهما إليها . وغنته الصوت ، وأعادته
حتى أخذه . ورجع إلى مولاه ولا لحم معه . فسأله : ما القصة في هذين الدرهمين ؟ ،
وحدثه إسماعيل بالخبر ، وغناه الصوت . فقبل بين عينيه ، وأعتقه .

وإذا كانت هذه حال العناء . يطرب له العرب ، وتهتز له قلوب الجميع ، ويصل
بهم الإعجاب إلى الرقص ، أو إلى حال أخرى تدل على شيء من الخفة والطيش . إذا
كانت هذه هي الحال فإنه ليس بغريب علينا أن نقرأ أخباراً كثيرة تدل على ما كان
للمغنين والمغنيات من مكان كريم في نفوس الناس جميعاً ، ملوكهم ، وأمراءهم ،
وحكامهم ، وجهرتهم . يكرمونهم ، ويقدرونهم ، ويجزلون لهم العطاء . القول
ما يقولون ، والرأى ما يرون . ويكفى أن يكون أحدهم مجفواً من خليفة أو ملك ،
فإذا غنى في حضرة هذا الخليفة ، أو هذا الملك حصل العفو ، بل حصل الرضا .

كانت دنانير جارية ليحيى بن خالد البرمكى ، وسمع الرشيد صوتها ، فأعجب
بها ، واشتد عجبه ، فوهب لها هبات سنية ، وهب لها في ليلة عيد عقداً قيمته
ثلاثون ألف دينار . وعاتبه في ذلك عمومته ، قال لهم : مالى في هذه الجارية من أرب
في نفسها ، وإنما أربى في غنائها . فاسمعوها فإن استحققت أن يؤلف غناؤها وإلا
فقولوا ما شئتم . ولما سمعوها عذروه ، ولم يقولوا شيئاً .

ودخل ^(١) اسماعيل بن الهرَبْد على الرشيدى ، وغناه هذه الأبيات :

(١) الأغاني ج ٧ ص ١٠٤

يا رأكب العيس التي وفدت من البلد الحرام
قل للإمام ابن الإمام أخى الإمام أبى الإمام
زين البرية إذ بدا فيهم كمصباح الظلام

قالوا : وكاد الرشيدى يرقص ، واستخفه الطرب حتى ضرب بيديه ورجليه ، وأمر له بعشرة آلاف درهم .

وكان يزيد بن عبد الملك مشغولاً بحبابة المغنية . وتبنى بها عمر بن هبيرة فعملت منزلته ، حتى كان يدخل على يزيد فى أى وقت شاء . وما زالت حبابة تدينه من يزيد ، حتى أصبح والياً على بلاد العراق .

وحج سليمان بن عبد الملك . وأقام مباراة بين المغنين ، ومن فاز أعطاه بَدْرَة ^(١) وغناه ابن سريج هذه الأبيات وهى لعروة بن أذينة :

سرى همى وهم المرء يسرى وغاب النجم إلا قيس ^(٢) فتر ^(٣)
أراقب فى المجرة ^(٤) كل نجم تعرّض للمجرة كيف يجرى
لهم لا أزال له مديحاً كأن القلب أسعر حرّ جمر
على بكر أخى ولّى حميداً وأى العيش يصفو بعد بكر
فأمر سليمان بدفع البَدْرَة إليه .

وغضب ^(٥) الرشيد على إبراهيم الموصلى . فحبسه مدة . ثم اصطبَح يوماً ، فبينما هو على حاله إذ تذكره . فقال : لو كان الموصلى حاضراً لانتظم أمرنا وتم سرورنا . قالوا له أمير المؤمنين . فحىء به ، فما له ذنب كبير . فحىء به ، ولما دخل أطرق الرشيد . فلم ينظر إليه . وأوماً له من حضر أن يعنى ، فعنى ، فأتاه الرشيد أن حرك رأسه سراراً ، واهتز طرباً ، ثم نظر إليه . وقال : أحسنت والله يا إبراهيم . حلوا قيوده ، وغطوه

(١) البدره : كيس فيه عشرة آلاف درهم أو سبعة آلاف دينار (٢) قدر .

(٣) ما بين طرف الإبهام وطرف المشيرة (٤) نجوم فى السماء (٥) الأغاني ج ٦ ص ٢٠٥

بالخلع . ففعل ذلك . فقال : يا سيدى رضاك أولاً . قال : لو لم أرض ما فعلت هذا . وأمر له بثلاثين ألف درهم .

وكان عثمان بن حيان^(١) والياً على المدينة . وأشار عليه قوم من وجوه الناس أن يصلح حالها من الفساد ، وأن يطهرها من الفناء والزنا ، فأعلن الناس بذلك . وأمهلم ثلاثة أيام . وكان ابن أبى عتيق غائباً ، وقدم فى الليلة الأخيرة ، ودخل على سلامة القس . فسلم عليها . وأعلمته الخبر ، وكان أن قابل عثمان بن حيان ، وتحدث معه فى أسلوب لبق ، حتى أذن لسلامة بالمشول بين يديه . وكانت تحمل سُبُحَةً ، وتظهر شيئاً من الخشوع . وكان أن حادثته ، وظهر من الحديث علمها ، وذكاؤها ، وقال لها ابن أبى عتيق : إقرئى للأمير ، فقرأت . فقال لها إحدى ، ففعلت . فكثرت تعجب الأمير . فقال ابن أبى عتيق : كيف لو سمعتها فى صناعتها ! . ففنت .

سددن خصاص^(٢) الخيم لما دخلته بكل آبان^(٣) واضح وجبين

فقام عثمان من مجلسه ، وقعد بين يديها . ثم قال :

لا والله ما مثل هذه تخرج ! . قال ابن أبى عتيق :

لا يدعك الناس يقولون : أقر سلامة ، وأخرج غيرها . قال : فدعوم جميعاً . وكان أن تركوهم جميعاً .

ولعلنا لسنا فى حاجة إلى بيان أن الفناء مظهر من مظاهر الترف والرخاء . وأنه يزدهر وينتشر إذا كانت الأمة فى ظلال الدعة والقوة ، والسلام . ويذبل ويتضاءل إذا تقوض بناء الأمة . وضعفت أسباب المنعة والسيادة .

وكذلك الإنسان يحب الفناء ، ويميل إليه إذا كان فى رغد من العيش وفى نضارة من الشباب . وفى فسحة من الآمال . أما إذا فدحته الخطوب ، ونكبتة الأيام ،

(١) الأغاني ج ٨ ص ٣٤٢ (٢) الخصاص : الخروق .

(٣) اللبان . الصدر

فأصبح يرى في نور الحياة ظلاماً ، وفي بسمه الوجود كدراً وعبوساً ، فإن مثل هذا لا يصل الغناء إلى قلبه ، وإذا وصل فإنه لا يفتح له ، ولا يجد فيه اللذة والمتعة .

ويقول ابن خلدون :

وإذ قد ذكرنا معنى الغناء فاعلم أنه يحدث في العمران إذا توافر ، وتجاوز حد الضرورى إلى الحاجى ، ثم إلى الكمالى ، وتفتنوا فيه . فتحدث هذه الصناعة ، لأنه لا يستدعيها إلا من فرغ من جميع حاجاته الضرورية والمهمة من المعاش ، والمنزل ، وغيره . فلا يطلبها إلا الفارغون عن سائر أحوالهم تفتنوا في مذاهب الملهوذات .

وهذا القول ينطبق تماماً على العرب وهم في العصر الأموى ، وفي العصر العباسى . أما في العصر الأموى فقد كان عرب الحجاز على جانب من الثراء ، والدعة ورغد العيش ، ولهذا ذاع بينهم الغناء ، كما ذاع الغزل ، وسنين ذلك . وكانت الدولة قد استتب لها الملك ، وعاد إليها من فتوحاتها ، شىء كثير من القوة ، والرخاء ، وجنى ثماره .

وزادت هذه الأسباب في العصر العباسى ، كما زاد اختلاط العرب بالفرس ، وكان لهؤلاء أثر جرم في انتشار الغناء ، وفي تقدمه ، ورواجه .

أما في العصر الجاهلى فقد كان غناء . لأن العربى في هذا العصر وإن لم يبلغ ما بلغه في العصر الأموى والعباسى من الرخاء والأمن ، وجاه الملك ، واختلاطه بأمم أخرى ، ولكنه مع ذلك قانع بعيشه ، لا يجتهد في الحصول على قوته غناء ، يحبس نفسه ، ويكدر صفاءه . وتراه لهذا غرداً طروباً . وكان حذاء الإبل ، وهو نوع من الغناء . وكان النواح ، وهو قريب من الغناء ، أو هو ناحيته الكدراء العابسة . إذن كان الغناء منذ العصر الجاهلى ، ولكنه ليس على غرار ما نرى في العصر الأموى ، والعباسى في كثير من النواحي .

ويخيل إلى أن بين الغزل والغناء آصرة تجعلهما متلازمين ، كأنهما نوع واحد ،

أو نوعان ، يغذى أحدهما الآخر ، ويكون عوناً له ويداً .
 فالغناء يمجّد مادته في شعر الغزل ، والغناء يكون حلواً جميلاً إذا كان الصوت
 عذباً ، وإذا كان اللفظ حياً ، والمعنى رائعاً ، وكان صاحب الغناء جميلاً جذاباً .
 قال ثُمّامة بن أشرس :

كنت عند المأمون يوماً فاستأذن الغلام لعمير . فكرهت ذلك . ورأى المأمون
 الكراهية في وجهي . فقال : يا ثُمّامة ما بك ؟ . فقلت يا أمير المؤمنين إذا غنى عمير
 ذكر مواطن الإبل ، وكشبان الرمل ، وإذا غنّتنا فلانة ؛ انبسط أُملى ؛ وقوى جذلي .
 وانشرح صدري ، وذكرت الجنان والولدان . كم بين أن تغنيك جارية غادة ؛ كأنها
 غصن بان ؛ ترنو بمقلة وسنان . كأنما خلقت من يافوثة . أو خرطت من فضة ؛ بشعر
 عكاشة القيني ؛ حيث يقول :

من كف جارية كأن بناتها من فضة قد طوّقت عُنايا^(١)
 فكأن يمناها إذا ضربت بها ألقت على الكف الشمال حسابا
 وبين أن يغنيك رجل كثر اللحية ؛ غليظ الأصابع ، خشن الكف ؛ بشعر
 ورقاء ابن زهير حيث يقول :

رأيت زهيراً تحب كل كل خالد فأقبلت أسمى كالعجول أبادره
 وبين أن يحضرك ما تشتهي النظر إليه ؛ ومن لا يقف طرفك عليه ؟ فتبسّم المأمون ،
 وقال : الفرق بينهما واضح ؛ والمنهج فسيح . يا غلام لا تأذن له . وأحضر أطيّب فيناته
 فظللنا في أمتع يوم .

وفي هذا المعنى يقول أبو بكر الصّولي :

وغناء أرق من دمة الصب وشكوى اليتيم المهجور
 شغل المرء ، منظر ، ثم نطق فهو يصفى بظاهر وضمير

(١) العنايا : شجر حبه كب الزيتون أحمر حلو .

كل هذه الأسباب تجدها ظاهرة في الغزل ، ففي شعره أكثر الألفاظ حياة ، وأكثر المعاني روعة ؛ ولذلك غنى المغنون ؛ وغنت المغنيات بشعر الغزل ؛ وقل أن نجد غناء في غير شعر الغزل . وطبعي أن يكون ذلك فالغناء بهجة ، وطرب ، ومتعة ، والغزل بهجة وطرب ومتعة ؛ فلا بد أن يجد الغناء من شعر الغزل ما يجعله أكثر بهجة وطرباً ومتعة .

ولهذا كان الغناء في باب الغزل دون سائر أبواب الشعر . إذ أنه ليس في أبواب الشعر الأخرى مجال من البهجة والطرب والمتعة . وأي طرب أو متعة نجدهما في الرثاء والزهد والهجاء ، والوصف والفخر ، والمدح ؟ . وإن كان هناك غناء في باب المدح فهو غناء يقصد به القربى إلى المدوح ، وهو في العادة يكون ملكاً أو أميراً ، أو حاكماً ، فإذا سمع من يغنى بمدحه أجزل له العطاء ، ومدله في البذل . وإن كان هناك غناء في الفخر فهو غناء يقصد به حفز الهمم وبعث العزائم ، والإشادة بفضل الآباء والأجداد ، حتى يجد فيهم الأبناء والأحفاد القدوة الصالحة . وهذا الغناء يحتاج إليه الأمم في دائرة ضيقة محدودة ، ولعلك ترى أن الغناء في باب المدح والفخر وإن كان قليلاً يسيراً . ولكنه لا يكون باعثاً إلى المتعة والطرب كما يكون الغناء في شعر الغزل .

وقد يكون من أسباب ذلك : أن في الغزل خفة ونشوة ، تصل إلى الأسماع فترق لها وتطرب . وفي الغزل حياة حلوة جميلة ، تعيش فيها . قلوب المحبين ، وهي غردة مبتهجة ، ومن ذا الذي لا تروقه تلك الحياة ؟ وفي الغزل ذكريات ، يصف فيها الشعراء حال المحبين . وقد يجد الناس فيها صوراً من حياتهم التي نعموا فيها بظلال الحب . فهم يطربون ويسعدون لأن هذه الحال توافق حالهم ، ولأن هذا الشعور صورة من شعورهم ، وكأن الشاعر عناهم بقوله ، وكأن المغنى راح يغنيهم بما في هوى نفوسهم ، وإذا فات فريق من الناس أن ينعموا بظلال الحب فإنهم حين يسمعون شعره ، وحين يسمعون غناء في هذا الشعر ، يبتهجون ولو على الأقل أكثر من ابتهاجهم في أي غناء

من أى باب من أبواب الشعر الأخرى .

خرج الوليد بن يزيد إلى الصيد ، ومعه يزيد بن ضبة الشاعر ، وأصاب الوليد في يومه صيداً حسناً ، وطلب من يزيد أن يصف فرسه ، وصيد اليوم ، فقال في ذلك قصيدة طويلة ، لم يبدأها بالنسيب ، فقال له الوليد : أحسنت يا يزيد الوصف ، وأجده ، فاجعل لقصيدتك تشبيهاً ، وأعطه الغزيرى وعمر الوادى حتى يغنيا .

فقال :

إلى هندٍ صبا قلبي	وهندٌ مثلها يُصبي
وهندٌ غادة غيدا	من ^(١) جرثومة غلب
وما أن وجد الناسُ	من الأدواء كالحب
لقد لجَّ بها الإعرا	ض والهجر بلا ذنب
ولما أقض من هندٍ	ومن جاراتها نَحبي ^(٢)

إلى أبيات أخرى ، دفعها إلى المغنين ، فغنوه بها .

وقد قلنا : إن الغناء في غير الغزل قليل ، وذكرنا فيما سبق بعض الأمثلة ، ومن هذا أيضاً أن غنى سليم بن سلام قول محمد اليزيدى في مدح الخليفة :

أنتك عائدٌ بك منـك	لما ضاقت الحيل
وحيرني هواءك وبى	لحينى يضرب المثل
فإن سلمت لكم نفسى	فما لاقيتهُ جلال
وإن قتل الهوى رجلا	فإنى ذلك الرجل

ومات يزيد بن الملك ، ورزئت سلامة القس في موته ، فبكته بهذه الأبيات ، وغنتها ، فكان الرثاء مبكيا ، كما كان الغناء موجعا .

(١) من أصل كريم

(٢) حاجتى .

لا نلنا إن خَشَعْنَا أو همنا بخشوع
إن فقدنا سيداً كما ن لنا غير مضيع
وهو كالليث إذا ما عُذَّ أصحاب الدروع
يقنص الأبطال ضرباً في مُفَيٍّ ورجوع
وفعل مثل ذلك إسحاق الموصلي حين مات الرشيد ، فغنى بهذه الأبيات :

قد لعمري بت ليلى كأخى الداء الوجيع
ونجىّ الهـم منى بات أدنى من ضلوعي
كلما أبصرت ربعاً دارسا فاضت دموعي
مقراً من سيد كما ن لنا غير مُضِيع

ورأينا في كتب الأدب أن كثيراً من الملوك والخلفاء تكون لهم حال من الحب مع إحدى النساء ، ويطلبون من الشاعر أن يصف هذه الحال ، ثم يطلبون من يفتيها وهم في مجلس من مجالس اللهو والطرب ، فيكون هذا حلواً جميلاً .
ورأينا كذلك أن الصوت الجميل ، وأن المغنية إذا كانت حلوة وسيمة أثارت في نفوس الشعراء عاطفة ، تدفعهم إلى أن يقولوا فيها الشعر ، يصفون حسناتها وروعتها : حسن الجلال وروعة الفن في الغناء .

ويحلو للمغنية وقد حمل الشعر وصفها وحسنها وسيرتها أن تبدع ما شاء لها الإبداع والإتيان في أن تغنى هذا الشعر على أحسن صورة من النغم ، والجرس .
ورأينا أن كان بعض المغنيات يرجون بعض الشعراء في أن يقولوا فيهن قولاً رقيقاً ، وطبعي أن يكون هن في هذا الغزل مادة لغنائهن ، والغناء قريب إلى النفوس ، قربها إلى ما يشوق العاطفة من فرح وطرب ، ويهز القلب من أنس وسرور ، ولذا نرى الناس جميعاً — ما بعدت عنهم مكاره الحياة — يستمعون إلى الغناء ،

ويرددون النغم الحلو الجميل حين يخلون إلى نفوسهم ، وحين يهتز بهم الإحساس إلى مظاهر البهجة والغبطة . وقد قلنا إن بين الغناء وشعر الغزل آصرة قوية ، وإن الغناء يجد في شعر الغزل زاده ومده ، لهذا كان من الطبيعي أن نتأثر بما يحمله إلينا الغناء من شعر الغزل ، نتأثر به في كل نواحيه . نعجب بألفاظه ومعانيه ، وتتذاكر أحوال المحبين ، وتتدارس تاريخهم ، ونعرض أمامنا صفحات من أعمال الهوى ، ونتصور ما فيها من حلاوة أو مرارة ، ونقف حول ذلك مواقف من الإعجاب ، والتحليل ، ومواقف من النقد والدرس ، ونحاول أن نجد لها في نفوسنا ما يوافقها ، حتى تكون أكثر روعة وجمالا ، أو لعلها في الحق والواقع تمثل حالا من أحوالنا ، فتكون حينذاك حلوة ، كأنها قيلت وصفاً لحالنا ، وكم يشوق النفس كل ما يتصل بها ! . وكانت سلامة القس عذبة الصوت ، كما كانت فاتنة الحسن والجمال ، وأثار هذا في نفس القس الإعجاب بها ، بل والهيام بها ، فمدحها بشعره ؟ وسألها أن تغنيه ففعلت :

ما بال قلبك لا يزال يُهيمه ذِكرٌ عواقب غيهر سقام
إن التي طرقتك بين ركائب تمشى بمزهرها ^(١) وأنت حرام
لتصيد قلبك أو جزاء مودة إن الرفيق له عليك ذمام
ومدحها الأحوص بهذه الأبيات ففنتها :

سلام هل لتسيم تنويل أم قد صرمت وغال ودك غول
لا تصرى عني ولاك إنه حسن لدى وإن بخلت جميل
أزعمت أن مودتي وصبايتي كذب وأن زيارتي تقليل
وقل أن تجد مغنية لم تجد من الشعراء من تغزل بها ، ووصف في شعره حسنها في الصوت ، وحسنها في البدن ، وحسنها في غير هذين .

يقول عبد الرحمن بن أرطاة في جميلة - مولاة بني سليم - وقد تزوجت من موالى ابن الحارث بن الخزرج :

(١) الزهر : آلة الطرب المعروفة بالعود .

إن الدلال وحسن الغنا • وسقط بيوت بني الخزرج
وتلكم جميلة زين النساء إذا هي تزدان للمخ — رَج
إذا جئ — تها بذلت ودها بوجه من — ير لها أبلج
وكانت متيم الهشامية لا تخرج إلا متنقبة ، وقدمت يوماً إلى ابن عبيد الله بن
الحسين العنبري القاضي ، فاحتاج إلى أن يشهد عليها ، فأمر بها أن تسفر ، ففعلت
فقليل لعبد الصمد بن المعدل — وكان يهواها — لو رأيت متيم وقد أسفرها القاضي
لرأيت شيئاً عجيباً ! فقال :

ولما سرت عنها القناع متيم تروح منها العنبري متيم
رأى ابن عبيد الله وهو محكم عليها لها طرفا عليه محكم
وكان قديماً كالح الوجه عابساً فلما رأى منها السفور تبسما
فإن يصب قلب العنبري فقبله صبا باليتامى قلب يحيى بن أكتما
وقال ^(١) هارون بن محمد عبد الملك — ابن ذى الزوائد — في بصيص
جارية ابن نفيس :

بصيص أنت الشمسُ مزدانة فإن تبدلت فأنت الهلال
سبحانك اللهم ما هكذا فيما مضى كان يكون الجمال
إذا دعت بالعود في مشهد وعاونت يميني يديها الشمال
غفت غناء يستفز الفتى حـ ذقاً وزان الحذق منها الدلال

وقال ^(٢) العباس بن الأحنف في عنان جارية الناطفي :

لو تجودين لصبر راح ذا وجد شديد
وأخي جهل بما قد كان يحني بالصدود
ليس من أحدث هجرا لصديق بس —ديد

حياء منك حتى سُلّ جسمي وشقّ عليّ كتمانى وطالا
ويقول ابن الرومي في وحيد المغنية :

يا خليلي ! تيمنتني وحيدُ ففؤادي بها مُعْتَى عَمِيدُ
غادة زانها من الفصن قدّة ومن الظبي مقتلان وجيد
وزهاها من فرعها ومن الخ دين ذاك السواد والتوريد
فهي برد بخدها وسلام وهي للعاشقين جهد جهيد
ويقول في مظلومة :

مظلوم ما أنت بمظلومة في حكم أهل الشرق والغرب
بل إنما المظلوم عبد لكم أصبح مقتولا بلا ذنب

هذا جانب من المغنيات . وجانب من الغزل فيهن . وهناك مغنيات أخريات .
ما زهنّ الله بحظ من الجمال . من أمثال : عزة الميلاء . وحبابة . ودقاق . وقلم الصالحية
وشارية . وبذل . ومحبوبة .

وبجانب هذه الكثرة من المغنيات نرى من مشهورى المغنين أمثال :

سعيد بن مسجع . معبد . الغريص . محمد بن عائشة . ابن محرز . ابن سريج .
مالك بن أبي السمح . يونس الكاتب . حنين . سباط . عمر الوادي . ابن جامع . يحيى
ابن مرزوق . يزيد حوراء . فليح . ابراهيم الموصلي . اسحاق بن ابراهيم . علوية .
محمد بن الأشعث . عمرو بن بانه .

فهؤلاء جميعاً من مغنيات ومغنين لهم أثر كبير على الغزل ، فهم قد نشروا
في أغانيهم رقة الغزل ، وعاطفته بين القلوب ، فراحت بها مشوقة طروبة ، وكثير
من هؤلاء شعراء ، وأكثر شعرهم في الغزل ، يلحنونه ، ويبعثونه إلى الأفئدة
والأسماع نغماً حلواً لذيذاً ، وكثير من شعراء الغزل كان شعرهم أوطانة منه وحيا
من هؤلاء المغنين والمغنيات . ذلك أنهم أنسوا إليهم ، وطربوا إلى غنائهم ، فتسابقوا

في أن ينظموا الشعر ، حتى يكون غناء ، يحمله الأثير إلى كل مكان ، وإلى كل قلب .
وإن الملوك والحكام كانت لهم أحوال وأسباب ، أكثرها في الحب والهوى ، أرادوا
أن يسجلها الشعر ، وأن ينقلها الغناء ، فكان لهم ما أرادوا ، ومنه الشيء الكثير .
أما المغنيات فكان لهن فوق ذلك أثر آخر ، هو أنهن كن جميلات ، فائنات في الحسن ،
فاجتمع حولهن الشعراء ، فطربوا لجمالهن ، وعذوبة غنائهن ، فاهتزت قلوبهم
— وهي حساسة مرهفة — بالشعر ، وكان جميلا ، جمال المغنيات . عذبا ،
عذوبة الحائنين .

ولعل هذا كله يفسر لك أن بين الغناء والغزل آصرة قوية ، تجمعهما في رباط
وثيق . وحيث يكون الغناء يكون الغزل .

الباب الثالث

شغف العرب بالغزل

كان الغزل في الشعر حبيباً إلى نفس العربي ، قريباً إلى هواه منذ القدم ، وما زال ينمو ويرق بنمو الزمن ورق الحضارة ، حتى وصل إلى غايته في العصر العباسي .

ولعله يصور لك هذا الحب قول محرز العُكلى :

يظَلُّ فؤادي شاخصاً من مكانه لذكر الغواني مُستهماً متيماً
إذا قلت: مات الشوق مني، تلسمت به أَرِيحيَّاتُ الهوى فتسما
وقول مجنون بنى عامر :

فلا خير في الدنيا إذا أنت لم تزر حبيباً ولم يطرب إليك حبيب
وقول غيلان الثقفي :

وإذا كان النسيب بسلي لذ في سلى وطاب النسيب
وقول كثير :

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى فكن حجراً من يابس الصخر جليداً^(١)
وكان^(٢) المفضل الضبي يسير مع المهدي فسأله أن يحدثه حديثاً عجيباً، فسأله المفضل:
أي الحديث عجيب ؟

قال المهدي : حديث النساء .

لا يكاد يخلو شاعر في كل عصر من أن يجول في الغزل وأن يكون له فيه حظ يناسب هواه ، وهوى جمهرة الناس ، التي تسمع شعره ، وتعجب به .
ولاتكاد تخلو قصيدة من بدئها بالغزل ، عدا قصائد الرثاء . فإن لها شأنًا من الحزن والبكاء لا يوافق شأن الغزل من بهجة ومنتعة وسرور .
وقد ذكر ابن قتيبة ، كما قلنا ، العلة في ذلك والدافع الذي أوحى إلى العرب أن يسيروا على هذا الفرار . حتى الهجاء كثيراً ما نرى الشاعر يقدمه بأبيات من الغزل . وعلة ذلك أن الغزل يصل إلى السمع ثم إلى القلب فيكون برداً وسلاماً ، حتى إذا جاء الهجاء كان قاسياً مقذعاً عنيفاً .

وقد أشار إلى هذا المعنى ابن الرومي في قوله ^(١) :

ألم تر أنني قبل الأهاجي أقدم في أوائلها التسيبا
لتخرق في المسامع ثم يتلو هجائي مُحرقاً يكوى القلوبا
كصاعقة أتت في إثر غيث وضحك البيض يتبعه النحيبا

حدثنا علي بن يحيى المنجم قال : سمعت من لا أحصى من الرواة يقولون : أحسن الناس ابتداء قصيد في الجاهلية امرؤ القيس ، حيث يقول :

ألا عِمَّ صباحاً أيها الطَّلَلُ البَّالَى

وحيث يقول :

قفانبك من ذكرى حبيبٍ ومنزل

وفي الإسلاميين القطامي حيث يقول :

إنا مُحَيُّوك فاسلم أيها الطلل

وفي المحدثين بشار حيث يقول :

أبي طلل بالجزع أن يتكلما وماذا عليه لو أجاب متبما

وبالفرع آثار لهند وبالأوى ملاعب ما يُعرفن إلا توّهما

وحديث على بن يحيى المنجم وإن كان متجهاً إلى بيان حسن البدء في القصائد ولكنه بجانب ذلك بيان إلى أن بداية هذه القصائد كلها كانت غزلاً ، وكانت تصويراً دقيقاً لناحية من نواحي الغزل ، وعن بكاء الأطلال والدمن .

وقد مر بنا أن يزيد بن ضبة الشاعر كان مع الوليد يوماً في صيد ، وصفه في قصيدة عصماء . ولكن لم يبدأها بالنسيب ، فردّها الوليد ، ليجعل في أولها تشبيهاً حتى يغنى به ، وكان أن فعل .

وكان الرشيد^(١) يستقبل الشعراء بالزّقة في يوم الجمعة ، وكانوا ثمانية . فأخذوا ينشدونه ولما جاء دور أشجع السامى ، وكان قد نظم قصيدة في مدحه وابتدأها بالنسيب — كما هي العادة — وكان وقت الصلاة قد أرف وخاف إن أنشده القصيدة من أولها حانت الصلاة ولم يسمع ما قاله فيه مدحاً ترك التشبيب وأنشده من موضع المديح ، فضحك الرشيد وقال له : خفت أن يفوت وقت الصلاة فينقطع المديح عليك ، فبدأت به وتركت التشبيب ، وأمره بأن ينشده التشبيب ، فأنشده إياه . فأمر لكل شاعر بعشرة آلاف درهم ، وأمر لأشجع بضعفها .

وقد بلغ حبهم للغزل أنهم يؤثرون الشاعر ويقدمونه ويفضلونه إذا كان ذا حظ من الغزل والنسيب . وقد اختلف علماء الأدب كثيراً في أى الشعراء أفضل : « جرير والفرزدق والأخطل » . فأثر جماعة جريراً على صاحبيه . وكان الذى جعلهم يحكمون له بالغلبة والسبق أنه كان فى الغزل مجلياً مجوداً .

ولعل أبلغ دليل على تقدير شعراء الغزل وعلى تكريمهم حتى وهم أموات ما حدثنا به هشام بن عبد الملك الخزاعى قال :

كنا بالزّقة مع هرون الرشيد فكتب إليه صاحب الخبر بموت الكسائى وإبراهيم

(١) الأغاني ج ١٧ طبعة قديمة ص ٢١

الموصلى والعباس بن الأحنف في وقت واحد، فقال لأبنيه المأمون : اخرج فصلّ عليهم .
فخرج المأمون في وجوه قواده وأهل خاصته وقد صُفّوا له . فقالوا له من ترى أن يقدم ؟
قال الذي يقول :

يا بعيد الدار عن وطنه هائماً يبكي على شجنه
كلما جدَّ البكاء به زادت الأسقام في بدنه

قيل له : هذا . وأشاروا إلى العباس بن الأحنف فقال : قدموه . فقدم عليهم .
بل قد وصل بهم الأمر حينئذ من الزمن أنهم كانوا يتفاخرون . وأن قبيلة غلبت في هذا
التفاخر قبيلة أخرى لأنها رزقت شاعراً كان مجوداً في الغزل .

سئل رجل من قبيلة عُذرة^(١) : أنتم أرق قلوباً أم بنو عامر ؟ قال :

إننا لأرق الناس قلوباً ، ولكن غلبتنا بنو عامر بمجنونتها .

بل هذه عشيرة الحاربية^(٢) ، وكانت ظريفة وفيها بقية من الشباب ، تفاخر بأنه

كان لها الغلبة والسبق في حلبة الهوى . قالت :

جريت من العشاق في حلبة الهوى ففتهمو سبقاً وجئت على رسلى
فما لبس العشاق من حمل الهوى ولا خلعوا إلا الثياب التي أبلى
ولا شربوا كأساً من الحب مُرّةً ولا حلوةً إلا شرابهم فضلى

كما بلغ من حبهم للغزل أن تنتقل أشعاره إلى أسماعهم في سرعة خاطفة فيتناشدها
في كل حفل وناد ، ويتذاكروا أخبارها وحوادثها ، ويتدارسوها بحثاً وتحليلاً .

أما شغف نساء العرب بشعر الغزل فلا يحتاج إلى بسط أو بيان .

فالغزل وإن كان فيه تشهير بالمرأة ، وهذا ينافي ما طبع عليه العربي من المحافظة على
العرض ، فإن فيه إشهاراً لها ، وإشادة بمحاسنها ، وتكريماً لفعالها . ولم أصابت من ذلك خيراً !
وإذا كان حب الثناء من طبيعة الإنسان فهو في طبيعة المرأة أقوى

(١) الأغاني ج ٣ ص ٣٤ (٢) ضحى الاسلام ص ٢٧١

وأكثر ، فالغيرة تدفعها إلى أن تكون خيراً من غيرها ، والدلال يدفعها إلى أن يكون حظها من الجمال لا يدانيه حظ . وكم رأينا من نساء بارعات في الحسن ! لم يجدن التقدير والإعجاب ، فذبلت نضارة حسنهن ، وتهدل غصن هذا الجمال الذي كان قائماً مباداً .
تسمع المرأة العربية شعر الغزل ، وهي بحكم فطرتها ، وبحكم تربيتها ، وبحكم ما يحيط بها من مقتضيات البيئة ، تتذوق هذا الشعر ويصل إلى سمعها ، ثم إلى قلبها ، فتعجب به وتطرب . وإذا كان هذا الشعر مقولاً في غيرها فلم لا يقال فيها ؟ أليست بذات حسن وجمال ؟ فلم لا يتحدث الشعر عن حسنها وجمالها ؟ أليست بذات زهو ودلال ؟ فلم لا يترجم الشعر عن زهوها ودلالها ؟

وما السبيل إلى ذلك ؟

إنها لا تحجب نفسها ، بل تكشف عن وجهها المشرق الوضاح .
إنها لا تقبع في دارها . بل تنتقل ، وتسافر ، وترتحل .
إنها تذهب إلى الحج فيراها الشعراء ، ويتحدثون عن جمالها .
إنها تجلس في المنزهات ولا ترى من الحرج أن تدعو شاعراً من شعراء الغزل تسمع إلى شعره فيهتز قلبها بخفقة الحب . وتلك هي أمنية الحياة .
وإذا كان الرجل العربي مشغوقاً بحب الغزل لأنه صافي الذهن ، متوقد الطبع ، رقيق العاطفة ، فالمرأة العربية أكثر شغفاً به ، لأنها أكثر صفاء وأشد توقداً ، وأقوى حساسية . لذلك كن يستمعن إلى شعر الغزل ، يتذوقونه ويتدارسونه كما يتدارسه الرجال .
هذه عائشة^(١) بنت طلحة بعد أن تأتيت ، كانت تقيم بمكة سنة وبالمدينة سنة وتخرج إلى مال لها عظيم بالطائف ، وقصر كان لها هناك ، فتنزه فيه وتسمع إلى النميري حيث ينشدها الكثير من أشعار الغزل .

(١) الأغاني ج ٦ ص ٢٠٣

(٢) مات عنها زوجها ولم تتزوج سواه .

وهند^(١) والرباب خرجتا إلى متنزه لهما بالعقيق وبينما هما تتحدثان إذ أقبل خالد القسري فنياه الأمانى إذا هو أحضر عمر بن أبي ربيعة، وكان أن حضر عمر وجلس يتحدث إليهن وإلى سائر النساء في هذا المكان وينشدهن من شعره الغزلى حتى المساء .
وغاضرة^(٢) أم ولد لبشر بن مروان كانت بالمدينة وقد مر بها السائب راوية كثير، ولما عرفت أنه من أهل الحجاز سألته : هل يروى لكثير شيئا ؟ قال : نعم .
قالت : أما والله ما كان بالمدينة من شيء هو أحب إليّ من أن أرى كثيرا ، وأسمع شعره . وفي نهاية الخبر رغبت إلى كثير وكان مع السائب أن يخرج إلى العراق ، ويلقى بشر بن مروان ، وتضمن له إن فعل مائة ألف درهم . ثم أعطته عشرة آلاف درهم وأعطت السائب خمسة آلاف درهم .

وهذه^(٣) عنيزة بنت شرحبيل يلتقى بها امرؤ القيس مع صاحبات لها من نساء العرب ويجتمعن به بعد أن تركن غدير « دارة جلجل » وفي هذا المجلس كان طعام ، وكان شراب ، وكان حديث هو وغزل ومجون .

ونرى المرأة العربية تغرى الشاعر العربي بشتى الوسائل حتى يكون لها الخطوة في أن يشبب بها ، وأن ينقل الشعر إلى أسماع الناس وأفئدتهم اسمها وذكرها .

كانت بملال^(٤) امرأة ينزل بها الناس فنزل بها رجلان من قریش ، كما نزل نصيب الشاعر . أما القرشيان فقد أعطياها جزاء نزولها مالا . ولم يكن مع نصيب شيء ، فقال لها : اختارى إن شئت أن أضمن لك مثل ما أعطيك إذا قدمت ، وإن شئت قلت فيك أبياتاً تنفعك . قالت : بل الشعر أحب إليّ فقال : —

ألا حتى قبل البين أم حبيب وإن لم تكن منا غداً بقريب
لئن لم يكن حبّيك حباً صدّقته فما أحد عندي إذاً بحبيب

(٢) الأغاني ج ١١ طبعة قس ١٥

(٤) الأغاني ج ١ ص ٢٤٦

(١) الأغاني ج ١٩ ص ٥٦

(٣) آداب اللغة العربية ج ١ ص ١٠٤

تهام^(١) أصابت قلبه مَلَلِيَّةٌ غريبُ الهوى ، يابح كلَّ غريب
وحجت أم المؤمنين^(٢) بنت عبد العزيز بن مروان وزوجة الوليد بن عبد الملك
فأرسلت إلى كثير وإلى وضاح اليمن أن ينسبها . أما كثير فقد هاب الأمر وخاف
مغبته ، فلم يشبب بها بل شبب بجارتها غاضرة فقال :

شجاً أظعان غاضرة الفوادي بغير مشورة ، عَرَضاً فوادي
أغاضر لو شهدت غداة بنتم حُنُوَّ العائدات على وسادي
أَوَيْتِ^(٣) لعاشقٍ لم تشكّيه بواقدةٍ تلدّع كالزناد
أما وضاح فنسب بها فبلغ ذلك الوليد فطلبه فقتله . وفي رواية أخرى جفاه ودبر
في قتله .

كما حجت عاتكة^(٤) بنت معاوية ، وبينما كانت بمكة بذى طوى ، وقد اشتد الحر
وانقطع الطريق ، فكشفت وجهها — مر بها أبو ذَهَبِلَ الجمحي فوقف طويلاً ينظر
إليها ، وإلى جالها وهي غافلة عنه ، وقال فيها بضعة أبيات شاعت بمكة ، وغنى فيها المغنون
حتى سمعتها عاتكة إنشاداً وغناء فاعجبتها ، وبعثت إليه بكسوة .

ولذلك نرى نساء العرب يبكين شاعر الغزل إذا مات بكاء مرأً ، لأن في موته
خسارة لا تعدلها خسارة . في موته خسارة هذا الغزل الذي كان لهواً لمن ومته ، وكان
وصفاً لمحاسنهن ، وإشادة بما وهبهن الله من حسن وجمال . ثم كان تصويراً لعاطفتهم
وشعورهن . تصويراً لأحاديثهن ومحافلهم . كان صورة من صور الحياة ، تمثلهن أصدق
تمثيل فكيف لا يحزن على هذا الشاعر ؟ وكيف لا يبكيه ؟ وكيف لا يطلبن من الله
ضارعات خير عوض وبديل .

مات عمر بن أبي ربيعة فبكاه نساء مكة بكاء شديداً ، وقالت إحداهن :

(١) نسبة إلى تهامة . وقيل «سهام» وهو عندى أحسن (٢) الأغاني ج ٦ ص ٢٢١

(٣) أى رثيت له وأشفقت عليه (٤) الأغاني ج ٧ ص ١٢١

من لمكة^(١) وشعابها ، وأباطحها ، ونزهها ، ووصف نساءها وحسنهن وجمالهن
ووصف ما فيها ! فقبل لها :

خَفَضِي عَلَيْكَ فَقَدْ نَشَأْتُ مِنْ وَلَدِ عَثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ — أَيُّ الْمَرْجَى —
يَأْخُذُ مَا خُذَهُ وَيَسْلُكُ مَسْلَكَهُ . فَقَالَتْ — أَنْشِدُونِي مِنْ شِعْرِهِ . فَأَنْشَدُوها ، فَمَسَحَتْ
عَيْنَيْهَا وَضَحَكَتْ وَقَالَتْ : — الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يُضَيِّعْ حَرَمَهُ .
وَمَاتَ كَثِيرٌ كَمَا مَاتَ عِكْرَمَةُ مَوْلَى ابْنِ عَبَّاسٍ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ .
قَالُوا :

فاجتمعت قریش فی جنازة كثير ولم یوجد لمكرمة من یحملة .
وقالوا :

وغلِبَ النساءُ^(٢) على جنازة كثير بيكينه ، ويذكرون عذرة في ندبتهن له . وأقبل
محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب يشق طريقه ويضرب الناديات بكه ،
ويقول : تنحين يا صواحبات يوسف ، فانتدبت له امرأة منهن . فقالت يا بن رسول الله
لقد صدقت . إنا لصواحبات يوسف ، وقد كنا له خيراً منكم له . وأوصى محمد بعض
مواليه أن يحيط به هذه المرأة بعد انصرافه . فأتى بها وقال لها محمد أنت القائلة : إنكن
ليوسف خير منا . قالت : نعم ! تؤمنني غضبك يا بن رسول الله ؟ قال : أنت آمنة من
غضبي فأينني . قالت : نحن يا بن رسول الله دعواناه إلى اللذات من المطعم والمشرب والتمتع
والتنعم ، وأنتم معاشر الرجال أقيتموه في الجب ، وبعتموه بأبخس الأثمان وحبستموه
في السجن ! فأيننا كان عليه أحنى وبه أراف ؟ فقال محمد : لله درك ! وإن تغالب
امرأة إلا غلبت .

وحين مات مجنون بنى عامر قالوا :

(١) الأغاني ج ١ ص ٣٨٧

(٢) الأغاني ج ١ ص ٣٧

لم تبق فتاة^(١) من بنى جمعة ولا بنى الحريش إلا خرجت حاسرة صارخة عليه تنديه . واجتمع فتيان الحى يبيكون عليه أحر بكاء ، وحضرهم حى ليلى معزين وأبوها . مهم فكان أشد القوم جزعا وبكاء عليه ، وجعل يقول : ما علمت أن الأمر يبلغ كل هذا ، ولكنى كنت امرءاً عربياً أخاف من العار ، وقبح الأحدثنة ما يخافه مثلى ، فزوجتها ، وخرجت عن يدي ، ولو علمت أن أمره يجرى على هذا ما أخرجتها عن يده ، ولا احتملت ما كان على فى ذلك .

قالوا : وما روى يوم كان أكثر باكية وبا كيا على ميت من يومئذ .
وكذلك فعل النساء حين مات جميل .

نعاى الناعى بهذه الأبيات التى قالها جميل وهو يلفظ النفس الأخير :
صدع^(٢) الذعوى وما كنى بجميل وثوى بمصر نواء غير قفول
ولقد أجز الذيل فى وادى القرى نشوان بين مزارع ونخيل
قوى بثينة فاندبى بعويسل وابكى خليلك دون كل خليل
وما سمعت بثينة نعى الناعى حتى أتته حزينه باكية القلب ، وقالت : —
يا هذا والله لئن كنت صادقاً لقد قتلتنى ، ولئن كنت كاذباً فضحتنى .
وكان صادقاً إذ أخرج إليها حلتها فلما رأتها صاحت بأعلى صوتها ، وصكت وجهها ،
 واجتمع نساء الحى يبيكين معها ويندبنه .

وفى هذا تقول بثينة :

وإن سلوى عن جميل لساءة من الدهر ما حانت ولا حان حينها
سواء علينا يا جميل بن معمر إذا مت بأساء الحياة ولينها
وهذه طائفة من الأقوال والأمثلة والآراء تبين أيضاً مدى شغف العرب بالغزل :

(١) الأغاني ج ٢ ص ٩٠

(٢) صدع : جاهر وصرح

روى أن دخل كعب بن زهير على النبي — ص — قبل صلاة الصبح فمثل بين يديه وأنشده :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متم إثرها لم يُفد مكبول
وما سعاد غداة البين إذ رحلوا إلا أغن غضيض الطرف مكحول
هيفاء ، مقبلةً عجـزاء مدبرة لا يشتكى قصر منها ولا طول
وخرج كعب بعد غزله في هذه الأبيات وأبيات أخرى إلى مدح النبي — ص —
فكساه برداً اشتراه منه معاوية بعشرين ألفاً .

والحسين بن علي بن أبي طالب وقد استشفع به قيس ليتزوج لبني فكان للمحبين شقيقاً رحيماً ، وكان أن جمع بين قلبين تحابا ونصافياً ، وقال لقيس حين جاءه :
أنا أ كفيك . وقد كفاه فسار إلى أبي لبني ، فلما بصر به وثب إليه ، وقال : يا بن رسول الله
ما جاء بك ؟ ألا بعثت إلى فأتيتك . ولما كاشفه بما جاء به قال : يا بن رسول الله ما كنا
لنعصى لك أمراً . وكان أن قبل أبوها زواجها منه ، ولكن رغب في أن يخطبها أبوه
ذريح حتى لا تكون سبة وعار عليهم . فأتى الحسين رضي الله عنه ذريحاً وقومه ، ورغب
إليه أن يخطب لبني لابنه قيس فقال :

السمع والطاعة لأمرك ، وتمت هذه الخطبة بين قيس وابني بفضل ما فعل
الحسين بن رسول الله .

وكثيراً ما كان ينشد شعر الغزل في المساجد ، وفي حضور أئمة العلم والفقهاء والدين ،
يسمعونه ، ولا يرون في ذلك بأساً .

كان عبد الله بن عباس في المسجد الحرام وعنده نافع بن الأزرق ،
وناس من الخوارج يسألونه إذ أقبل عمر بن أبي ربيعة فقال له ابن عباس :
أنشدنا ، فأنشده :

أمن آل نعم أنت غاد فمُبَكِّرُ غداة غد أم رائح فمُهَجِّرُ

حتى أتى على آخرها فاقبل عليه نافع بن الأزرق فقال :
الله يا بن عباس !!

إنا نضرب إليك أكباد الإبل من أقاصى البلاد ، ونسألك عن الحلال والحرام
فتتناقل عنا ، ويأتيك غلام مترف من مترفى قريش فينشدك :
رأت رجلاً أما إذا الشمس عارضت فيخزى ، وأما بالعشى فيخسر
فقال : ليس هكذا ! قال : فكيف قال ؟ فقال : قال :
رأت رجلاً أما إذا الشمس عارضت ^(١) فيضحى ، وأما بالعشى فيخسر ^(٢)
فقال : ما أراك إلا وقد حفظت البيت ! قال أجل ! وإن شئت أن أنشدك
القصيدة أنشدتك إياها .

وكثيراً ما نقرأ شعر الغزل لجماعة من رجال الفقه والعلم والقضاء أمثال شريح
القاضي ، وعبدالله بن المبارك ، وعروة بن أذينة ، وعبدالله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود .
قال عروة بن أذينة :

قالت وأبنتها وجدى وبحت به قد كنت عندى تحت الستر فاستتر
أأنت تبصر من حولى ؟ فقلت لها : غطى هواك وما ألقى على بصرى
وقد وقفت عليه امرأة فقالت له : أنت الذى يقال فيك الرجل الصالح ؟
وأنت القائل :

وإذا وجدت أوار الحب فى كبدى غدوت نحو سقاء الماء أبرد
هذا بردت ببرد الماء ظاهره فمن لئار على الأحشاء تنقد ؟ !
والله ما قال هذا رجل صالح !

قالوا : كذبت عدوة الله عليها لعنة الله . بلى . لم يكن مرثياً ولكنه كان
مصدوراً فنفت !

شفف العرب بالغزل وقاض به الشعر ، وأزره الملوك والأمراء والحكام ، وأنابوا عليه ورأوا فيه صقلا للنفوس وتهذيباً للوجدان ، فأشاروا على المؤدبين أن يرووه لأولادهم ، حتى أعذب ألسنتهم ويرق إحساسهم . ثم لم ير فيه الدين بأساً إذا كان عفاً بريئاً ، فقد سمعه النبي ، وقد أنشدوه في بيوت الله ، وقد أصغى إليه جمهرة من رجال الفقه والدين ، ورأينا أن جاشت صدور بعضهم بقليل منه .

ولكننا مع هذا نقرأ في بعض شعر العرب ، ونرى من بعض أعمال ملوكهم وخلفائهم ما لا يدل على هذا الشغف الذي تحدثنا عنه :

قال معاوية^(١) لعبد الرحمن بن الحكم :

يا أخى إنك شهرت بالشعر فإياك والتشبيب بالنساء : فإنك تعرّ الشريفة في قومها والعفيفة في نفسها . والهجاء : فإنك لا تعدو أن تعادى به كريماً أو تستثير به لئماً . ولكن افر بيت قومك ، وقل من الأمثال ما توقر به نفسك ، وتؤدب به غيرك . وقال عبد الملك بن مروان لنصيب الشاعر : أنشدني ، فأنشده قصيدته التي يقول فيها :

وَمُضْمَرُ الْكَشْحِ يَطْوِيهِ الضَّجِيعُ بِهِ طَيَّ الْجَمَائِلُ لَا جَافٍ وَلَا فَقْرٍ^(٢)

فقال له عبد الملك : يا نصيب ، من هذه ؟ قال : بنت عم لي نوبية لورأيتها ما شربت من يدها الماء .

فقال له : لو غير هذا قلت لضربت الذي في عينيك .

ونهى المهدي بشاراً عن الغزل وأنذره بالموت إن لم يكف عنه وفي ذلك يقول بشار :

يا منظراً حسناً رأيته من وجه جارية فديته
بعثت إلى تسومني برد الشباب وقد طويته

(١) الأغاني ج ١ ص ٢٥١ (٢) فقر : اشتكى فقاره

والله رب محمد	ما إن غدرت ولا نويته
أمسكت عنك وربما	عرض البلاء وما ابتغيته
إن الخليفة قد أبى	وإذا أبى شيئاً أبيتته
ومخضب رخص البنا	ن بكى على وما بكيته
وبشوقى بيت الحبيب	إذا أدكرت وأين بيته
قام الخليفة دونه	فصبرت عنه وما قليته
ونهاى الملك الهمام	عن النساء وما عصيته
لا بل وفيت فلم أضع	عهداً ولا رأياً رأيتته

قالوا :

وضرب المهدي أبا العتاهية بسبب عشقه « عتبة » وفى ذلك يقول
أبودحمان الشاعر :

لولا الذى أحدث الخليفة فى العش ساق من ضربهم إذا عشقوا
لبحت باسم الذى أحب ولك نى امرؤ قد ثنائى الفرق
ودخل النصيب على عمر بن عبد العزيز لما ولى الخلافة فقال له :
إيه يا أسود ! أنت الذى تشهر النساء بنسيبك . فقال إني قد تركت ذلك يا أمير
المؤمنين ، وعاهدت الله ألا أقول نسيباً .

وكان قد نسك فأتنى عليه القوم وقالوا فيه قولاً جميلاً .
فقال له : أما إذ أتنى عليك القوم فسل حاجتك .
فقال : يا أمير المؤمنين - لى بنيات سويداوات أرغب بهن عن السودان ، ويرغب
عنهن البيضان فإن رأيت أن تفرض لهن فافعل . ففعل .

فكيف السبيل إلى التوفيق بين ما ذكرنا وهذه الآراء والأقوال ؟

يقول الأستاذ العقاد^(١):

إن شعر بشار هو شعر المتحدثين والمتحدثات في مجالس اللهو والفراغ ، فهو مادة الحديث في تلك المجالس ومادة الحديث عنها ، وهو وسيلة الإغراء بها ، ورسول الدعوة إليها . ومن هنا كان إغراؤه بالفساد ومحاكاة ما يتخيله ويرويه بين الظرفاء والظريقات . أما شعر كثير وأمثاله فهو كالرسالة الخاصة من رجل واحد إلى امرأة واحدة ، وهو وإن أغرى بشيء فلا يغري المرأة بأن تذهب إلى ملاقة الرجال الكثيرين والنساء الكثيرات ، ولكنه يغريها بعلاقات قلبية كالعلاقة بين كثير وعزة ، وجميل وبثينة ، وعروة وغفراء ، وقيس ولبنى ، وليس هذا مما يدفع العاشقة إلى مجالس الظرفاء والظريقات ، بل لعله مما يدفع إلى العكوف والاعتزال .

ويقول^(٢) الدكتور طه حسين بك :

ومن الغريب أن هؤلاء الشعراء والفلاسفة الذين كانوا يلقون في العصر العباسي ضروباً من المحن تختلف قوة وضعفاً باختلاف الخلفاء والوزراء كانوا محبين إلى هؤلاء الخلفاء والوزراء . فكثير من هؤلاء الخلفاء والوزراء كان يحب شعر بشار ويلد لشعر أبي نواس ، ومع ذلك فقد ضرب بشار حتى مات ، وحبس أبو نواس في عصر الرشيد ، كما حبس في عصر الأمين ، ولو أدركه المأمون لقتله ولو كان إعجاب المأمون بأبي نواس شديداً جداً .

ومصدر هذا التناقض في سيرة الخلفاء والوزراء مع الشعراء والفلاسفة أن هؤلاء الخلفاء ومشيرهم كانوا يحبون حياتين مختلفتين : حياة للشعب يحتفظون فيها بجلال الدين ومجده وعظمة الخلافة وقوتها السياسية ، فهم من هذه الناحية محافظون . وحياة لأنفسهم وللخصائهم في القصور ومن وراء الحجب يتركون فيها لأنفسهم حريتها الفطرية ، فيلهون ويلعبون ، وينادمون ويشربون ، ويقتربون ضروباً من الآثام .

(٢) حديث الأربعاء ج ٢ ص ١٣

(١) شاعر الغزل ص ٧٩

وفي رأبي أن الغزل البريء حسن وجميل . ونقرؤه في كثير من الشعر العربي ،
حتى من غير العذريين .

ولم يعرض أحد لهذا بالقدح ، أو الذم ، أو التجريح .
فهو إما أن يكون رسالة بين قلبين ؛ تتمثل فيها الإخلاص ، والوفاء ، وصفاء الروح ،
وطهارة القلب .

وأكرم بهذا من مثل طيبة ، ومن صفات نبيلة !
وهو إما أن يكون صورة للخيال الفسيح ، والمعنى الدقيق ، واللفظ العذب .
وأكرم بهذا من فن ! له روعته وتأثيره .
أما الغزل الماجن ، الذي يثير الشهوة ، وتحرك له العاطفة الجاحمة ، فهو المقصود
بهذا النهي ، والذم ، والتجافى .

وقد يؤكد هذا المعنى أننا نعرف في شعر بشار ، وفي شعر أبي نواس لوناً من الغزل
الماجن . وهذا سر ما أصابهما من حرج ، وعنت ، وتضييق .
على أن شعرهما ليس كله في الغزل الماجن ، حتى يكون كله ذمياً في أعين الناس ،
وفي أعين الحاكمين . بل في شعرهما معارف أخرى ، وأخيلة أخرى ، هي حسنة في
عيوننا ، كما كانت حسنة في عيون هذا العصر الذي عاشا فيه .
ولا اعتبر هذا تناقضاً في حياة هؤلاء الحكماء .

إن اختلاف الحكم على بشار وأبي نواس ، والإعجاب بشعرهما تارة ، والإعراض
عنه طوراً ليس باعته تناقض سيرة الخلفاء . يحتفظون بجلال الدين ، ومجد الخلافة ،
فيضيقون على بشار وأبي نواس . ويخلون إلى أنفسهم ، ويتركون لها حريتها ، فيروقههم
شعر بشار وأبي نواس . ولكن باعته لون الشعر . فإن كان ماجناً فاجراً كرهوه ،
وذموه ، كما نكرهه الآن ونذمه . وإن لم يكن كذلك أحبوه ، وارتضوه ، كما نحب
الآن ونرتضيه .

الباب الرابع

أثر الغزل

نعله بان لك فيما تقدم مدى شغف العرب بالغزل ، وأنهم جروا على مسننه منذ البداوة ، وظل قائماً بينهم في عصر يولونه مزيداً من العناية وحسن التقدير .
أنشدوه في بيوت الله وامتدحوه بمثل هذه الأقوال التي قدمت شرطاً منها لطائفة من رجال العلم والفقه والدين .

ولا يخفى ما في الغزل من آثار كريمة تهذب النفس ، وتصلح الحس ، وتوقظ الهمم ، وتبعث المروءة . كما لا يخفى أن بعض الملوك والحكام والأمراء اتخذوا الشعر ، ومنه الغزل ، أداة صالحة لتربية أبنائهم ، وتزويدهم بهذه الآثار .

كان ذو الرياستين^(١) يبعث مولى له وأحدائاً من أهله إلى شيخ عالم بخراسان ، له أدب وحسن معرفة بالأمور ، فقال لهم يوماً : أنتم أدباء وقد سمعتم بالحكمة ، ولكم حُداء ونعم قال : فهل منكم عاشق ؟ قالوا : لا ، قال : اعشتموا ، فإن العشق يطلق اللسان ويفتح جِيلة البليد والبخيل ويبعث على التلطف ، وتحسين اللباس ، وتطيب المطعم ، ويدعو إلى الحركة والذكاء وتشريف المهمة .

وقال ذو الرياستين إن بهرام جور كان له ابن وكان يرشحه للأمر من بعده ، ولكنه نشأ ناقص المهمة ، ساقط المروءة ، حامل النفس ، سيء الأدب ، فغمه ذلك ، فوكل به من المؤدبين والمنجمين والحكماء من يلزمه ويعلمه ، وكان يسألهم عنه ، فيحككون له

(١) المستطرف ج ٢ ص ١٣٥

ما يفهم من سوء فهمه ، وقلة أدبه ، إلى أن سأل بعض مؤدبيه يوماً فقال له المؤدب :
قد كنا نخاف سوء أدبه ، فحدث من أمره ما صيرنا إلى الرجاء في فلاحه . قال :
وماذا الذى حدث ؟ قال : رأى ابنة فلان المرزبان فعشقه فغلبت عليه فهو لا يهدأ
إلا بها ، ولا يتشاغل إلا بها .

قال بهرام : الآن رجوت فلاحه .

وقال ^(١) الرشيد يوماً لجلسائه : أنشدوني شعراً حسناً فى امرأة خفيرة كريمة .

فأنشدوا وأكثروا . ثم أنشده ابن مصعب قول محمد بن بشير الخارجى :

بيضاء خالصة البياض كأنها قمر توسط جُنح ليل مبرد

موسومة بالحسن ذات حواسد إن الحسان مظنة للحسد

فقال الرشيد : هذا والله الشعر . لا ما أنشدتمونيه سائر اليوم ، ثم أمر مؤدب

ابنيه محمد الأمين وعبد الله المأمون فرواها الأبيات .

ورأى ^(٢) سعيد بن مسلم ابناً له قد شرع فى رقيق الشعر وروايته فأنكر عليه ،

فقبل له : إنه قد عشق . فقال دعوه فإنه يلطف ، وينظف ، ويظرف .

وسئل ^(٣) أبو نوفل هل يسلم أحد من العشق ؟ فقال : نعم ، الجفاف الجافى الذى

ليس له فضل ولا عنده فهم . فأما من فى طبعه أدنى ظرف أو معه دماثة أهل الحجاز

ورقة أهل العراق فهيهات !

ولم كان للغزل هذه المنزلة الرفيعة ؟

الغزل ضرب من ضروب الشعر يحمل اللفظ العذب ، والمعنى الشائق ، والخيال

الرائع . وفى ذلك خير للأدب ومتعة للأدباء .

(١) الأغاني ج ١٤ طبعة قديمة ص ١٥٣

(٢) زهر الآداب ج ٤ ص ٨٩

(٣) نهاية الأرب ج ٢ ص ١٣٩

والغزل يمثل المرأة ، ويصفها ، ويحدثنا عن حسنها وجمالها . والمرأة زينة الحياة
وبهجتها ، فالحديث عنها لذيذ ، ووصفها حلو جميل .
يقول الدكتور أحمد ضيف^(١) :

إن النساء منبع من منابع الشعر ، والشعراء مدينون لهم بأفضل الصفات لديهم ،
وهي وصف شعور الناس . والشاعر الذى يشعر بالحب لا يتكلم عن نفسه فحسب وإنما
يجمع آلام العشاق وأنينهم فيتألم ويئن معهم . وليس أعذب من هذه الآلام ولا أحب
إلى النفس من سماع هذا الأنين . إن الشاعر يصوغ بكلماته اهتزازات القلوب ، ورنات
ما يجول بها من المعانى ليدفعها إلى النفوس فتصبو إليها ويدفعها بين العشاق ، فيرى
كل قلبه ، وكأنه ينظر فى مرآة يرى فيها صورته . وذلك لا يكون إلا فى الشعر .
وإذا كنا نجد فى الشعر ما يروح عن أنفسنا ، ويذهب عنها عناء العمل ، وأعباء
الحياة فإن للغزل فى الترويح عن النفس حظاً عظيماً لا يعدله حظ المدح أو الهجاء
أو الوصف أو الحماسة أو الأدب أو الرثاء .

والحياة ثقيلة الأعباء ، والأعمال كثيرة الأشواك . وما أحوجنا إلى ما يذهب
عنا الهم والحزن ! .

على أن الباحث المدقق حين يقرأ شعر الغزل ، وحين تتأثر عاطفته بما يحوى
من آيات الحب والهوى قد يرى فيه لوناً آخر من ألوان الجمال .
يرى أمثلة حية لركة الحس ، وحدة الذهن ، والتضحية ، والطموح ، والوفاء ،
والصبر .

وإليك البيان :

(١) بلاغة العرب بالأندلس ص ٧٩

الفصل الأول

رقة الحس

ليس من شك في أن الغزل لغة القلوب. لذلك كان الغزل يناجي القلوب، وكانت القلوب تهفو إليه وتصبو .

لا أريد هذه القلوب القاسية التي لا تحركها إلا المادة ، ولا يثيرها إلا روح الانتقام، بل أريد القلوب الحية الطموحة التي ترى الجمال أيّاً كان نوعه ، فتهتز به وترنو إليه . إن الله قد وهب للمرأة جمالا فائداً ، وخلق لنا قلوباً . فكيف لا تتفتح لما وهبه الله ؟ .

إن من شأن القلوب أن ترق وتلين .

إن من شأن القلوب أن تعجب وتطرب .

فكيف بها أمام المرأة ؟ أمام فتنتها وزينتها . أمام دلتها وجمالها !

إنها لاشك ترق إليها ، وتعجب بها ، وقد ينقلب الإعجاب إلى حب وغرام . والمرأة رقيقة لينة .

والرجل حتى يستحوذ على لها وهواها لا بد أن يكون مثال الرقة واللين .

والمرأة ذات تجنّ ودلال :

تهجر الرجل وتطلب أن يسمى إلى ودّها .

وتظلم الرجل وتطلب أن يعترف أنه المذنب الملوم .

وتسبىء إلى الرجل ولا تعترف أنها أساءت .

وتقسو على الرجل ولا تعترف أنها قست .

والرجل أمام هذا كله لا بد أن يكون مرهف الحس صافي القلب .

فإذا حدثها كان عذب الحديث .

وإذا ناجاها كان رقيق النجوى .
يبثها حزنه وآلامه ، فى قوة وروعة تأثير .
يتوسل إليها بماء العيون وخفقات القلوب .
لا يشكو منها آلاماً ، فهي لا تبعث الآلام !
ولا ينسب إليها ذنباً ، فهي لا ترتكب الذنوب .
ولا يرد إليها قولاً ، فهي ذات الحول والسلطان !
ألا ترى فى هذا كله الحس الرقيق ، والطبع الصافى ؟ .
بلى .

تصفح أحوال المحبين واحدة واحدة . فإنك ترى فى كل حال أمثلة للرفة واللين
والمودة والرحمة .

واقرا غزل المحبين . فإنك ترى كيف يكون الرجل حين يتحدث إلى حبيبته ،
وحين يناجى طيفها وخيالها . وحين يشكو إليها حرقة الحب ولوعة الفراق . بل حين
تتفرح العيون ، وتصفّر الوجوه ، وتذبل الأجسام .
ترى ذلك كله ويروّك ما ترى ، وتتمنى أن تكون بين المحبين ، حتى تكون
لك هذه العاطفة الرقيقة ، وهذا القلب النقي الصافى .

وقد مر بك أن بعض الناس ينتقصون الحب لما فيه من سهاد ونحول ، وحيرة
وقلق ، وحزن وآلام . ولا يخفى أن هؤلاء على جانب من الغفلة والجهل ، فإن هذه
العيوب التى تنقصوا بها الحب هى فى الحقيقة من حسناته ومحامده ، فهي مظهر
من مظاهر العاطفة ورقة القلب .

وماذا تكون الحياة إذا خلت من العاطفة والقلب ؟ .

للحياة مظهران يسعى الناس جاهدين إليهما : مظهر المادة ، ومظهر الروح . وكلما
تسامى الناس وتصافت نفوسهم كانوا أقرب إلى مظهر الروح . فلم لا تكون هذه

الأحوال بين المحبين مظهراً من مظاهر الروح ؟ . وهو الذى ينشده كثير من الناس
فلا يجدونه ، وقد وجده الحُبون ونعموا به ، وإن جرّ عليهم ألواناً من النعمة والعذاب .

وصدق بشار إذ يقول :

فقلت : دعوا فنبى وما اختار وارضى فبالقلب لا بالعين يبصر ذو الحب
فما تبصر العينان فى موضع الهوى ولا تسمع الأذنان إلا من القلب
وما الحسن إلا كل حسن دعا الصبا وألف بين العشق والعاشق الصّب
ثم تعال لننظر من أحوال المحبين ومن غزل المحبين :

كان الصيد عادة من عادات العرب يتخذون منه أداة للتسلية ، وسبيلاً للحصول
على الغذاء . وكثيراً ما كانوا يصيدون الظباء . ولكننا نرى كثيراً من المحبين يطلقون
سراحها ، ويفكون قيودها ، فقد عرفوا فى الحب مرارة الأسر والضيق ، فكانوا مثال
الرحمة والحنان ، ثم عرفوا فى الحب قيمة الحسن والجمال ، وفى الظباء عيون تشبه عيون
الحبيب ، ومن أجل هذه العيون تكرم العيون جميعاً ، فلا يصيب أصحابها ذل وهوان .
قالوا :

مر الجُنُونُ^(١) برجلين قد صادا ظبية ، فربطاها بحبل وذهبا بهما ،
فلما نظر إليها وهى تركض فى قيود من الحبال دمعت عيناه ، وقال لهما :
حلّاهما ، وخُذّا مكانها شاة من غنمى ، فأعطاها ، وحلّاهما فولّت تعدو هاربة
وفى ذلك يقول :

أيا شبه ليلى لا تُراعى فإننى لك ، اليومَ من وحشية لصديق
ويا شبه ليلى لو تلَبَّثت ساعة لعلَّ فؤادى من هواه يُفَيِّق
تفرّ ، وقد أطلقتها من وثاقها فأنت ليلي ، لو علمت ، طليق

وخرج الوليد^(١) يتصيد ذات يوم فصادت كلابه غزالا فأنى به ، فقال خلوه ،
فأريت أشبه منه جيداً وعينين بسلامي ، ثم أنشأ يقول :

ولقد صيدنا غزالا سانحاً قد أردنا ذبحه لما سَنَحَ^(٢)

فإذا شِبهُكَ ما تنكره حين أزجى طرفه ثم لمح

فتركناه ، ولولا حبكم فاعلمى ذاك لقد كان انذبح

أنت يا ظبي طليق آمن فاعد في الغزلان مسروراً وروح

وكان لكثير^(٣) غلام تاجر فباع من عزة بعض سلعهم ، ومطامته مدة ، وهو
لا يعرفها فقال لها يوماً : أنت والله كما قال مولاي : —

قضى كل ذي دين فوق غريمه وعزة ممطول معني غريمها

فانصرفت عنه خجلة — فقالت له امرأة — : أتعرف عزة ؟ قال : لا والله .

قالت : فهذه والله عزة . فقال : لا جرم والله لا آخذ منها شيئاً أبداً ولا أقتضيها .

وعرف كثير الخبر فرق لرقته ، وجازاه على إحسانه فأعتقه . ووهب له المال الذي
كان في يده .

يقولون : لا يعرف الشوق إلا من يكابده .

وقد عرف المحبون الشوق لأنهم كابدوه ، وذاقوا حلوه ومره ، فأكرم بعضهم
بعضاً ورحم بعضهم بعضاً .

كم رأينا أنهم يجتمعون ويتحدث بعضهم إلى بعض فيذكرون ما يقع بينهم وبين هوى
نفوسهم ؟ فإن كان خيراً طربوا له وفرحوا به ، وإن كان بؤساً بكته العيون وتفطرت له القلوب .

قال العباس بن الأحنف :

رق قلبي لأهل العشق إنهم إذا رأوني وما ألقى يرقوناً

(١) الأغاني ج ٧ ص ٤٨

(٢) يقال سَنَح الطائر أو غيره : أتى من يمينك إلى يسارك .

(٣) الأغاني ج ٩ ص ٢٨

وكم رأينا ما فعله كثير حين كان يرسله جميل إلى حبيته بثينة ليأخذ منها موعداً
أو يبثها ما في نفسه من حب وهيام . والمحـب أدري بما يشـجى المحبين .

وكثيراً ما كانا يلتقيان ويتذاكران النسيب فتشجيهما غصص الهوى .

التقى^(١) ذات مرة فقال كثير : يا جميل أترى بثينة لم تسمع بقولك ؟

يقـيك جـمـيل كل سوء ، أـماله لـديـك حـديـث أو إـليـك رـسـول

وقـد قـلت في حـبـي لـكم و صـبـابـي تحـاسـن شـعـر ذـكـر هـن يـطـول

فإن لم يكن قولي رضاك فعلمي هـبـوب الصـبـايا بـئن كـيف أقـول

فما غاب عن عيني خيالك لحظة ولا زال عنها والخيـال يزول

فقال جميل : أترى عزة يا كثير لم تسمع بقولك ؟ .

يـقـول العـدا : يـاعـز قد حـال دـونـكم شـجـاع عـلى ظـهـر الطـريق مـصـم

فـقلت لـها : و الله لو كان دـونـكم جـهـنم ما رـاعت قـوادي جـهـنم

وكـيف يـرـوع القـلب يـاعـز رـائـع ووجـهـك في الظـلـماء للـسـفـر مـعـم

وما ظلمتك النفس ياعز في الهوى فلا تنقـي حـي فما فيـه مـنـم

قالوا : فبكيا قطعة من الله ثم انصرفا .

والتقى عمر بن أبي ربيعة بجميل : فقال له عمر : أنشدني ، فأنشده :

خـليـلى فـيـما عـشـتـما هـل رآيـتـما ؟ قـتـيـلا بـكى مـن حـب قـاتـله قـبـلي

ثم قال جميل : أنشدني يا أبا الخطاب . فأنشده :

ألم تسأل الأطلال والمتربعا بـيـطـن حـلـيات دـوارس بـلقـعا

ونرى مثل هذه النجوى بين المحبوبتين .

وكأنني بهما تجتمعان في خلوة من الرقباء ، وفي هدأة من شواغل الحياة ، فتناجي

كل واحدة الأخرى ، وتحديثها أحاديث الغرام والهوى . ماذا فعل حبيب قلبها ؟ ،

وماذا فعلت هي؟ وماذا قال لها؟ وبماذا أجابت؟ وماذا كتب لها؟ وبماذا ردت كتابه؟
هذه النجوى أكثر من تلك روعة.

لأنها صورة عن عاطفة المرأة . وهي — كما نعرف — قوية ، ثائرة ، جامحة .
ثم انظر كيف يكون المحبوب أمام حبيبته .
يقول عبد الله بن طاهر :

نحن قوم تليّنا الخـُـدقُ الفُجـلُ ، على أننا نلین الحديداً
طوع أيدي الأطباء تقتادنا المـين ونقتاد بالطمان الأسود
نملك الصيّد ثم تملكنا البـيـض المصونات أعيناً وخدوداً
تتقى سخطنا الأسود ونخشى سَخَطَ الخُشْفِ^(١) حين يبدى الصدودا
فترانا يوم الكريهة أحراراً ، وفي السلم للغواني عبيداً
ويقول ابن الرومي^(٢) :

أصبحت مملوكاً لأحسن مالِك
لم يَمْنه أرقى وفيه لقيته
لوكـان كـل حُسْنه إسـجـاحه^(٣)
حتى أضـر بمـقلتي إلـحـاحه
كـلا ، ولا دـمـي وفيه سـفـحـته
حتى أضـر بوجنتي تسـفـاحه
ويقول يزيد بن الطُّثري :

أنا الهائم الصبُّ الذي قاده الهوى
برته دواعي الحب حتى تركنه
إليك فأمسى في حبالك مُسَلِّماً^(٤)
سقيماً ولم يترك لحماً ولا دماً
ويقول البحتري^(٥) :

ألا هل أناها بالمغيب سلامي
وهل علمت أني ضنيت وأنها
وهل خُبرت وجدى بها وغرامي
شفائي من داء الضنى وسقامي

(١) الخشف ولد الفزال (٢) ديوان ابن الرومي للأستاذ كيلاني ص ٢١٣

(٣) يقال أسجج الرجل: ترفق وسهل ألفاظه (٤) الأغاني ج ٨ ص ١٦٥

(٥) يقال أسلم: انتقاد (٦) ديوان البحتري ص ٢٢٢

ومهزوزة هز القضيـب إذا مشـت تثنت على دل وحسن قـوام
أحلت دمي من غير جرم وحرمت بلا سبب يوم اللقاء كلامي
فداؤك ما ألقيت مني فإنه حشاشة^(١) جسم في نحول عظامي
صلى مغرمًا قد واطر^(٢) الشوق دمعـه سـجـامًا^(٣) على الخدين بعد سـجـام
ويقول^(٤) ابن زيدون :

أنى تضيـع عهدك أم كيف تخلف وعدك
وقد رأتك الأمانى رضا فلم تتعدك
يا ليت شعري وعندي ما ليس في الحب عندك
هل طال ليـلك بعدى كطول ليلي بعدك
سانى حياتي أهـبا فلست أملك ردك
الدهر عـبـدى لما أصبحت في الحب عبدك

فانت ترى من هذه الأمثلة أن الرجل ضعيف أمام حبيبته ، وإن كان في ميدان
الوغى بطلا مغواراً ، وأنه عبد ذليل لها ، أصابه بسببها السقم والضنى . ومع ذلك فإنه
يحبها ويهواها ، ومع ذلك فإنه يفديها بما أبقت من حشاشة جسمه ، يهب لها حياته
فانه لا يملك أن يرد لها سؤالاً ، وهى البخيلة المنعة فى حبه ووصاله .

ليست العبودية عند المحبين عيباً ، يكسر من أنفتهم وعزة نفوسهم ، فذل الحبيبة
لا يفوقه عز السلطان . ألا ترى ابن زيدون يقول وقد أصبح فى الحب عبداً : إنه
ملك الدهر وساد الناس جميعاً ؟

وانظر ما يجرى بين المحبين :

يقول أبو إسحاق الموصلى :

(١) أى بقية جسم (٢) أى والى لانزال دمعـه (٣) سـجـم الدمع : سال .

(٤) بلاغة العرب فى الأندلس ص ٨٢

حدّرت قلبي أن يعود إلى الهوى لما تبدل بالنزاع نزوعا
فأجابني لا تخش مني بعدما أفلت من شرك الغرام وقوعا
حتى إذا داع دعاه إلى الهوى أصفى إليه سامعاً ومطيعاً
كذّالة أخذتها فكما دنا منها الضّرام تعلّقت سرّيعاً
ويقول الهذلي :

ويعنني من بعض إظهار ظلمها إذا ظلمت يوماً وإن كان لي عذر
مخافة أني قد علمت إذا بدا لي الهجر منها ما على هجرها صبر
وإني لأدري إذا النفس أشرقت على هجرها ما يبلغني في الهجر
ويقول^(١) ابن الرومي .

أبكيتني فبكيت من غير ذنب جنيت
وقلت لي امض عني مصاحباً فضيت
ولو أمرت بأن أقضى الحياة قضيت
أضعفتني فرعيت وخنّتي فوفيت
أطعت في الأعداء وكلهم قد عصيت
ويقول عمر بن أبي ربيعة^(٢) :

كدت يوم الرحيل أقضى حياتي ليتني مت قبل يوم الرحيل
لا أطيّق الكلام من شدة الخو ف ودمعي يسيل كلّ مسيل
ذرفت عنها وفاضت دموعي وكلانا يلقي بأبّ أصيل
ويقول قيس بن ذريح^(٣) :

وإني لأهوى النوم في غير حينه أعمل لقاء في المنام يكون

(١) ديوان ابن الرومي للأستاذ كيلاني ص ٩٢ (٢) الأغاني ج ١ ص ١٩٥

(٣) الأغاني ح ٩ ص ٢١٤

تحدثني الأحلام أني أراكم
شهدتُ بأنى لم أحل عن مودة
وأن فؤادى لا يلين إلى هوى
ويقول جميل^(١) :

وما زلتُم يا بئسَ حتى لو اننى
إذا خدرتَ رجلى وقيل شفاؤها
وما زادنى النَّسأىُ المَفرَّقَ بعدكم
وما زادنى الواشون إلا صِباةً
ألم تعلمى يا عذبة الريق أننى
لقد خفت أن ألقى المنية بغتة
ويقول وضاح اليمى^(٢) :

قالت فزرتنا قلت كيف أزورك
قالت فكن لعمومتى سألها معاً
فتزورنا معهم زيارة آمن
ويقول مرداس بن همام الطائى^(٣) :

هو يتك حتى كاد يقتلنى الهوى
وحى رأوا منى أدانيك رقة
وماذا ترى فى هذه الأبيات ؟

ترى بعض أمثلة للركة بين الأحباب .

(١) الأغاني ج ٨ ص ١٢٦

(٢) الأغاني ج ٦ ص ٢١٧

(٣) ديوان الحماسة ج ٢ ص ١٦٣

فيا ليت أحلام المنام يقين
وأنى بكم لو تعلمين ضنين
سواك وإن قالوا بلى سِيلين

من الشوق أَسْتَبْكِي الحمام بكى ليا
دعاء حبيب كنت أنت دعائيا
سلوا ولا طول التلاقي تقاليا
ولا كثرة الناهين إلا تماديا
أظن إذا لم ألق وجهك صاديا
وفى النفس حاجات إليك كما هيا

وأنا أمرؤ لخروج سرك خاشى
والطف لإخوتى الذين تماشى
والسرُّ يا وضاح ليس بفاشى

وزرتك حتى لا منى كل صاحب
عليهم ولولا أنت ما لان جانبي

فالقلب الرقيق يلبي دعاء الحبيب ،
والقلب الرقيق يرضى بظلم الحبيب لأنه يخاف هجرها . وكم في الهجر من ألم وعذاب !
والقلب الرقيق يطيع الحبيب مهما كان ظلوما ، ويرعى وده مهما كان
للعهد خائنا .

والقلب الرقيق يلتمس لحبيته العاذير فيما تقول وتفعل . فهجر الحبيبة في نظر
الحبيب تدلل ، وعذاب الحب في نظر الحبيب ابتلاء .
والقلب الرقيق حين يلم بصاحبه داء يدعو الحبيب فيزول ما به من أوجاع .
وبعد الحبيب يذكي في قلبه نار الشوق والحنين ، كما أن كثرة لقائه لا تجعل للملل
سبيلا إلى نفسه . بل يسعى الوشاة للوقيعة بينه وبين حبيبه فلا يزيده ذلك
إلا حبا لها وكلفا بها .

يظل طول أيامه لا يطفى غلة عطشه إلا أن يرى وجهها الضاحك الوسيم . يخاف
أن يأتيه الموت بفتة وفي نفسه حاجة إليها . وما أكثر حاجات المحبين ! .
والقلب في سبيل الحبيب يلطف مع الأخوة ، ويرق للأعمام ، حتى يزورها معهم ،
وهو آمن مطمئن ، لا يخاف العيون .

بل يكون لئن الجانب مع العواذل والوشاة حتى لا يحولوا بينه وبين الحبيب ،
حين يود أن يراه وما أكثر ما يود أن يراه ! وإنا لنرى من مظاهر الرقة أن الحبيب
يضرع إلى حبيبه ويتوسل إليه بما يكنه قلبه من حب وغرام ، وما يحجره عليه هذا الحب
من آلام وأسقام ، لعل الحبيب يكون رحيمًا شفيقًا ، فيجود له بالوصال ، وكم في الوصال
من لذة ونعيم ! .

يقول بشار بن برد^(١) :

يا عبدُ بالله فرجى كُربى فقد برانى وشفنى نصي

وَضِيتُ ذَرْعًا بِمَا كَلِفْتُ بِهِ مِنْ حُبِّكَ وَالْحُبُّ فِي نَعْبِ
فَقَرَّجِي كُرْبَةً شَجِيتُ بِهَا وَحَرَّ حُزْنٍ فِي الصَّدْرِ كَاللَّهَبِ
ويقول :

رَفَعِي يَا عَبْد عَنِّي وَاعْلَمِي أَنِّي يَا عَبْد مِنْ لَحْمٍ وَدَمٍ
إِنَّ فِي بَرْدِي جَسْمًا نَاحِلًا لَوْ تَوَكَّأْتُ عَلَى لَا نَهْدَمِ
خَتَمُ الْحُبِّ لَهَا فِي عَنقِي مَوْضِعَ الْخَاتَمِ مِنْ أَهْلِ الدَّمِ
ويقول الأحوص^(١) — في سلامة القس :

أَسْلَامٌ هَلْ لِمَتِّيمٍ تَنْوِيلُ أَمْ هَلْ صَرِمَتْ وَغَالُ وَدَكِّ غُولُ
لَا تَضُرِّي عَنِّي دَلَالُكَ إِنَّهُ حَسَنٌ لَدَيَّ وَإِنْ بَخِلَتْ جَمِيلُ
أَزَعَمْتُ أَنْ صَبَابَتِي أَكْذُوبَةٌ يَوْمًا وَأَنْ زِيَارَتِي تَعْلِيلُ

كما نرى من مظاهر الرقة ما يكون بين المحبين من حديث . وحديث المحبين حلو
لذيذ ، لأنه يترجم عن إحساسهم وشعورهم ، ولأنه يعبر عما تكنه قلوبهم من لوعة
وحرقة ، وغرام ، وهيام . ولذلك كان الحديث عذبا رقيقا . ولذلك كان عند المرأة فنا
من فنون الجمال ، رغب فيه المحبون ، وامتدحه شعراء الغزل .

وإني أضرب هنا بعض الأمثلة ، وحين أتحدث في الكتاب الثالث عن شئون
الغزل وشجونه ستري من الحديث قولا مفصلا :
قال الهذلي^(٢) :

فَنِلْنَا سِقَاطًا مِنْ حَدِيثِ كَأَنَّهُ جَنَى النَّحْلِ أَوْ أَبْكَارُ كَرَمٍ تَقَطَّفُ
حَدِيثًا لَوْ أَنَّ الْبَقْلَ يُؤَلَّى بِمِثْلِهِ زَهَا الْبَقْلُ وَاخْضَرَّ الْعِضَاءُ^(٣) الْمَصِيفُ
وقال ابن الرومي^(٤) :

وحديثها السحر الحلال لو أنه لم يحن قتل العاشق المتحرز

(١) الأغاني ج ٨ ص ٣٣٧ (٢) البيان والتبيين ص ١٩١ (٣) العفاء : شجر له شوك

(٤) نهاية الأرب ج ٢ ص ٧١

إن طال لم يملل وإن هي أوجزت ود المحدث أنها لم توجز
وقال عمر بن أبي ربيعة :

قد دعاني وقد دعا هن للهـو شجون مهمة ^(١) الأشجان
فاجتينا من الحديث ثماراً ما جنى مثلها لعمر ك جاني
وقال كثير :

وكنت إذا ماجئت سعدى بأرضها أرى الأرض تطوى لي ويدنو بعيدها
من الخفريات البيض ود جليسا إذا ما انقضت أحداثه لوتعيدها
فأنت ترى من هذا كله أن في شعر الغزل صورة صادقة عن حال المحبوب .
تتبين في هذه الحال : كيف يكون الحس المرهف ، والعاطفة الرقيقة ، والطبع
الصافي ، والقلب النقي ؟

ولم كان الحبيب تروقه الحرية ؟
ذلك لأنه يروقه أن يكون حراً طليقاً في حياة الهوى .
يلقى حبيبته حيث شاء . ويطلب وصلها ورضاها في كل وقت . ينعم معها
بالابتنسامة الحلوة ، والحديث العذب . ويكره القيود ، وما أكثر قيود الحب ! :
فالدلال ، والرحيل ، والعواذل ، والوشاة ، والغيرة ، كل هذه قيود ، بغیضة إلى قلب
الحبيب ، ثقيلة على نفسه .

ومن هنا كان المحبون أحراراً كراماً ، يبغون كل ما هو حر كريم .
ولم كان الحبيب حلواً الحديث ؟
ذلك لأنه يريد كسب الرضا ، وأن يصل إلى القلب ، ويستثير كوامن النفس ،
ولن يكون كذلك إلا إذا أوتي حسن القول ، وحلاوة الحديث ، ورقة التعبير ،
وجمال المعنى .

ولم كان الحبيب يقبل ظلم الحبيب ؟

يقبل ظلمها في كل شيء : تسيء فيحسن ، وتصد فيصل ، وتبخون فيفي .
ذلك لأن القول الطيب ، والعمل الطيب يميلان القلوب فترق ، وتصفو .
وفي ذلك كسب للرضا ، وكسب للوصال .

أرأيت لم كان الحب رقيق العاطفة ، مرهف الوجدان ، طيب الإحساس ؟
وهل رأيت أن المحبوبة لا ترضى من حبيبها أن يكون غليظ القلب ، جاف الطبع ،
إذن لا نفضت من حوله ، وانقطع ما بينهما من ود ، وعاشا في احتراب ، يولد بينهما
ألوانا من الشرور والآثام .

وهيات أن يقوم في هذه الحرب صفاء ، ووفاء !.

الفصل الثانى

سعة الحيلة

يحدثنا شعر الغزل عن أعمال المحبين ، وهى تتطلب فطنة وذكاء ، وتتطلب حيلة ودهاء ! .

وإذا كانت الحاجة تفتق الحيلة ، كما يقولون ، فما أكثر حاجات المحبين ! .
هو فى حاجة إلى رضاها ، فليكدح ذهنه حتى ينعم بهذا الرضا .
هو فى حاجة إلى عفوها ، فليسلك شتى الوسائل حتى يمجو من قلبها آثار الخطيئة والمجران .

هو فى حاجة إلى أن يلقاها حتى يفوز بلذة اللقاء ، وما يوحيه من حديث ونجوى .
وما السبيل إلى ذلك ؟

إن عيون العواذل ترقبه ، وعيون النهار تفضحه ، وعيون الأهل والأقارب تحرسها وترعاها .

فكيف بالحب أن يفقأ هذه العيون ، وأن يتخطى هذه الأسوار ، وأن يكافح هذه الصعاب ؟

إنها بعيدة الدار . ارتحل بها أهلها ، خوف الفضيحة والعار ، أو انتقل بها زوجها حيث بلده وهو ناء بعيد .

فليرتحل . ولكن كيف الوصول إليها ؟ فليعمل الحيلة حتى يفكر فى طريق الوصول ، ثم فى طريق اللقاء .

وحين اللقاء ، كيف يحذر عيون الرقباء ، وما أكثرها ؟ !

إن للمحبين لغة يعرفونها ويفهمونها ، لغة الحركات والإشارات والغمزات
واللحظات ، فإذا لم يكونوا أهل فطنة وذكاء ما عرفوا حل هذه الرموز .
يعيشون حيناً حتى لا يعرف العذول أن هناك قلوباً تخفق بالحب فلا يفضحها ،
ولكن يملها حتى تنعم بالحب فترة من الزمن ، بل يتجاوزون هذا العبوس إلى اللوم
والتعنيف ، مبالغاً في التخفي والحيلة ، بل يتجاوزونه إلى القطيعة والهجر حتى لا ينكشف
أمرهم بين الناس .

يقول عمر بن أبي ربيعة :

فلما تواقفنا وسمتُ أشرقتُ وجوه زهاها الحسن أن تتقنعا
تباهن بالعرفان لما رأيتني وقلن : امرؤ باغ أكل^(١) وأوضعا
ويقول العباس بن الأحنف :

الله يعلم ما أردت بهجركم إلا مساترة العدو الكاشع
وعلمت أن تسترى وتباعدي أبقي لوصلك من دُنُو فاضح
ويقول :

يا للرجال العاشقين تواقفا وتخطباً من غير أن يتكلما
حتى إذا خافا العيون وأشفقا جعلوا الإشارة بالأنامل سلماً
وإنا لنرى في أحوال المحبين وفي أبيات الغزل كثيراً من الأمثلة ، نعرف فيها
حدة الذهن ، وسعة الحيلة ، وقدرة الفكر والعقل .

نرى أن كثيراً من رجال الغزل يحتالون حين يزورون هوى نفوسهم ، فيتنكرون
في أزيائهم ويغيرون هيتهم حتى لا يفتضح أمرهم ، وحتى يفوزوا بما يبتغون .
هذا جميل^(٢) بن معمر العذري أتى بثينة ليلاً في ثياب راجع لبعض الحى ويمم

(١) أعياء السفر وأسرع في السير .

(٢) الأغاني ج ٨ ص ١١٣

دارها سائلا ، يتظاهر أمام الناس بأنه يسأل الصدقة والعطاء وكان في الحق يسأل الود والوصال .

انتحى ناحية حيث كانت حبيبة قلبه تكرم ضيفانها ، ولو درت لأسرعت إليه بقلبها . وقد سأله : من أنت ؟ فقال : مسكين ! فجلس وحده ، فعشت ضيفانها وعشته وحده ، ثم جلست هي وجارية لها على صلاتهما واضطجع القوم منتحين . وأراد جميل أن يسمعها صوته حتى تعرف أمره .
فقال :

هل البائس المقرر دانٍ فمصل من النار ، أو مُعطى لحافاً ملابسُ
فقلت لجاريتها : صوت جميل والله ! اذهبي فانظري . فرجعت إليها فقالت :
هو والله جميل ! فشقت شهقة سمعها القوم فأقبلوا يجرون ، وقالوا : مالك ! فطرح برداً لها من حبرة في النار وقالت : احترق بردى ، فرجع القوم ، وأرسلت جاريتها إلى جميل فجاءتها به ، وجادت له باللقاء .

انظر ماذا فعل جميل ؟ وماذا فعلت بثينة ، وكيف التقيا ؟ .

الأي دل هذا على ذكاء ، وفطنة ، وسعة حيلة ؟

وكان العرجي ^(١) يحب أم الأوقص . خرج ذات يوم إلى جنبات الطائف متنزهاً فبصر بها في نسوة جالسة فعرفها وأحب أن يتأملها من قرب ، دفعته الحيلة إلى مادفت إليه جميلاً إذ رأت أعرابياً معه سقاء ابن فرغ إليه العرجي ثيابه وأخذ قعوده ولبنه ، ولبس ثيابه ومر قريباً من النسوة ، فصحن به : أمعك لبن ؟ قال : نعم ، ومال إليهن وجعل يتأمل أم الأوقص ، وينظر أحياناً إلى الأرض ، كأنه يطلب شيئاً ، وهن يشربن من اللبن ، فقالت امرأة منهن : أى شيء تطلب يا أعرابي في الأرض ؟ ، أضاع منك شيء ؟ قال : نعم ، قلبي . فلما سمعت أم الأوقص كلامه نظرت إليه ، وكان أزرق

فعرفته . فقالت : العرجى ورب الكعبة ! ووثبت وسترها نساؤها ، وقلن : انصرف عنا
لا حاجة بنا إلى لبنك .

فمضى منصرفاً وقال فى ذلك :

أقول لصاحبى ، ومثل ما بى شكاه المرء ذو الوجد الأليم
إلى الأخوين مثلهما إذا ما تأوَّبه مورقةُ المموم
لحبنى والبلاء لقيتُ ظُهرًا بأعلى النقع^(١) أخت بنى تميم

ونرى كثيراً من رجال الغزل يحتالون فى سبيل وصال الحبيبة ، فيرسلون الرسل
ويفرونهم بالمغريات ، ويرسلون لهم الفكرة الصائبة ، والحيلة البصيرة ، ويطلبون منهم الفطنة
واليقظة والحذر . وهؤلاء الرسل كم يحتالون ؟ حتى يصلوا إلى ما يريدون .
انظر وتأمل .

ماذا فعل قيس حتى رأى حبيبته لبنى ؟

طالت علة قيس ، وطال عذابه بفراق لبنى . فليطلب الشفاء بالتقرب منها .
ارتحل إلى المدينة وأتى امرأة من موالى بنى زُهرة يقال لها - بُريكة - ولم يشأ
أن ينزل رحله حتى وعده أن تقضى حاجته كائنة ما كانت ، فنزل ودنا منها فقال :
أذكر حاجتى ؟

قالت - إن شئت .

قال - أنا قيس بن ذريح .

قالت - حيّاك الله وقربك ! إن ذكرك لجديد عندنا فى كل وقت .

قال - وحاجتى أن أرى لبنى . نظرة واحدة كيف شئت .

قالت - ذلك لك علىّ .

فأقام عندها فترة من الزمن وأخفت أمره على الناس حتى لا ينكشف السر .

(١) موضع قرب مكة .

وهنا رسماً الخطة ، ودبرا الفكرة ، وأعملا الحيلة .

فماذا كان ؟

كان أن زارت بريكة لبني وزوجها ، وكان أن حملت معها كثيراً من الهدايا .
وكان أن لاطفتها وزوجها بهذا ، حتى يأنس بها ، كما أشار بذلك قيس .
نفذت بريكة هذه الخطة ، وكانت لبقة فطنة ظريفة ، وأكثرت من الزيارة حتى
أنس بها زوج لبني .

وحين شعرت بريكة ببارقة الأمل قالت لزوج لبني : اخبرني عنك : أنت خير
من زوجي ؟ قال : لا . قالت : فلبني خير مني ، قال لها : لا . قالت : فما بالي أزورها
ولا تزورني ؟ قال : ذلك إليها .

فأتتها ، وسألتهما الزيارة وأعلمتهما أن قيساً عندها ، فأسرعت لبني إلى أن تلقى
حبيبها ، وكان ما كان من شكوى وبكاء ، ومن شئون وشجون .
وأنشدها هذه الأبيات التي قالها في علة فراقها :

أعالج من نفسي بقايا حُشاشة على رفق والعائدات تعود
فإن ذكرت لبني هَشِشْتُ لذكرها كما هَشَّ لِلثَّدَى الدَّرُور وليد
أجيب لبني من دعائي تجلداً وبى زفرات تنجلي وتعود

وماذا فعل عمر بن أبي ربيعة حتى رأى هواه كلثم المخزومية ؟

كانت كلثم^(١) هذه تضرب رسل عمر وتؤذيهم حتى لا يعودوا إليها . ولكن عمر
أعمل الحيلة حتى يصل إلى كلثم . ابتاع أمة سوداء . وكانت لطيفة رقيقة ، وأحسن إليها
وكساها وأنساها وعرفها خبره . وقال لها : إن أوصلت لي رقعة إلى كلثم فقرأتها فأنت حرة
ولك معيشتك ما بقيت . فقالت : اكتب لي مكاتبة^(٢) واكتب حاجتك في آخرها .

(١) الأغاني ج ١ ص ٢٠٤

(٢) أن يكتب الرجل عبده على مال يؤديه إليه مقسطاً فإذا أداه صار حراً .

ففعل ذلك عمر .

وهنا جاء دور هذه الأمة السوداء ، وجاء دور لباقتها وفطنتها وذكاؤها .
ذهبت واستعانت ببعض بنات جنسها ، ولعلها ذكرت الحرية ، فرقت لها قلبها
حتى أدخلتها على سيدتها كلثم ، وكان أن حادثتها ولاطفها - وكانت رقيقة في الحديث
لبقة في الملاطفة دفعت إليها المكاتبة ، وتوسلت إليها أن تقرأها ، وأن يصيبها من هذه
القراءة خير ، فعاهدتها وأعطتها الكتاب فإذا أوله :

من عاشقٍ صبٍّ يُسرُّ الهوى	قد شفه الوجد إلى كلثم
رأتك عيني فدعاني الهوى	إليكِ للحنين ولم أعلم
قتلتنا ، يا حبذا أنتم ،	في غير ما جُرم ولا مآثم
والله قد أنزل في وحيه	ميناً في آية المحكم
من يقتل النفس كذا ظالماً	ولم يُقدِّها نفسه يظلم
وأنتِ ثأري فتلافى دمي	ثم اجعليه نعمة تُنعمي
وحكمي عدلاً يكن بيننا	أو أنتِ فيما بيننا فاحكمي
وجالسيني مجلساً واحداً	من غير ما عارٍ ولا محرم
وخبّريني : ما الذي عنديكم	بالله في قتل امرئ مسلم

وكان كلثم حين قرأت هذا الشعر رقت قلبها ، ولكن خافت أن يكون من عمر
ملقاً ونفاقاً فدفعت رسوله هذا الظن دفعاً كريماً . قالت : يا مولاتي : فما عليك
من امتحانه ؟ وما زالت بها حتى أخذت منها موعداً للقاء . وتلاقيا ومكث عندها
شهرًا لا يدري أهله أين هو ؟ ثم تزوجها وأنجب منها ولدين أحدهما جُوان .
فأصبحت حرة طليقة جزاء ما فعلت من حيلة وذكاء وتدير .

واستطاع عمر بهذا كله أن يصل إلى ما يريد ، وإلى أكثر مما يريد .
والفضل في ذلك يرجع إلى هذه الأمة السوداء ؟ ولولا ما كان لهذه الأمة

من ذكاء وفطنة وحسن تدبير ما أفلحت في الوصول إلى ما تبغى ، ويبغى عمر .
كيف أثرت على خادم كلثم حتى أدخلتها عليها ؟

في ذلك حيلة ، وحسن تدبير .

ثم كيف أثرت على كلثم نفسها حتى أصغت إلى قولها ، وقرأت كتاب عمر
وكانت من قبل جامحة نافرة ، تؤذى الرسل ، وتكره ذكر عمر ؟

في ذلك حيلة ، وأية حيلة !

خافت كلثم أن يكون شعر عمر فيها نوعاً من الملق والرياء لا يحمل قلباً خالصاً ،
وحباً صافياً ، فعاد لها شيء من النفور والجروح ، بعد أن كاد يرق له القلب . ولكن
هذه الأمة السوداء استطاعت أن تزيج عن كلثم هذا الخوف ، واستطاعت أن تزين
أن تختبره ، وتمتحنه ، لعلها تظفر بخير من وراء هذا الامتحان .

وكيف تعرف الحبيبة أمر حبيبها ، وأنه جاء يسعى إليها ، طالباً ودها ووصالها .
كان لجليل^(١) ابن عم أخذ يلومه على حب بثينة لوما عنيفاً ، ولما رأى ألا مناص
من هيامه بها رق له وكان عونته في رؤيتها فلجأ إلى رجل من رهط بثينة ، وأخبره
الخبر واستعده كتماناً ، وسأله مساعدته فيه .

فقال له : لقد جئتني بإحدى العظام . ويحك ! إن في هذا معاداتي الحى جميعاً
إن فطن به . فقال : أنا أتمرز في أمره من أن يظهر . ثم أتياه وأقاما عنده ، وأرسل
إلى بثينة بوليدة له بنحتم جميل ، فدفعه إليها فلما رآته عرفت وجاءته وتحدثا ليلتهما ،
وفي ليالٍ أخرى .

وفي مرة أخرى أرسل لها كثيراً يسألها موعداً واقفاء ، ولم يجعل العلامة بينه
وبينها خاتماً يدسه إليها بل أبياتا من الشعر تسمعها ثم يجيب على هذا السؤال ، وأبوها
حاضر لا يعرف من الأمر شيئاً .

(١) الأغاني ج ٨ ص ١١٩

لقي جميل بثينة آخر مرة حيث كانت تغسل ثيابها في مكان يقال له « وادي الدوم » فذكر هذه العلامة في بضعة أبيات خاطب فيها عزة ، وكان الأولى أن يكون الخطاب إلى بثينة ، ولكن هي الحيلة حتى لا يعرف أبوها وحتى لا يفتضح الأمر . قال ينشد أباه وبثينة تسمع :

فقلت لها : يا عز أرسل صاحبي إليك رسولا ، والموكل مرسل
بأن تجعلي بيني وبينك موعداً وأن تأمريني ما الذي فيه أفعل
وآخر عهدي منك يوم لقيتني بأسفل وادي الدوم والثوب يُغسل

قالوا : فضربت بثينة خدرها وقالت اخساً اخساً ! فقال لها أبوها مهيم^(١) يا بثينة .
فقلت : كلب يأتينا إذا نؤم الناس من وراء الرابية ، ثم قالت للجارية : ابغينا من الدومات خطباً لنذبح لكثير شاة ونشويها له ، ولكن كثيراً كان عجولاً لأن صاحبه جميلاً ينتظره في شوق ولهفة ، وما كان كثير يريد قرى ولكنه أراد موعداً لجميل .
وقد ظفر بما أراد ، فليذهب إلى جميل ليزف إليه بشرى أن بثينة ستلقاه وأن موعدهما الدومات . وفي هذا احتيال وذكاء . لا ينكر كثير نفسه إعجابه بهما . فيقول : مارأيت مثل علم أحدهما بضمير الآخر ! ما أدري أيهما كان أفهم .

وكان أن تواعد عمر أبي ربيعة^(٢) مع بنت محمد بن الأشعث الكندية حتى يلقاها وجعل الآية بينه وبينها أن تسمع ناشداً ينشد — إن لم يمكنه أن يرسل رسولا يعلمها بمصيره إلى المكان الذي وعدا وذلك قوله :

وآية ذلك أن تسمعي إذا جئتم ناشداً ينشدُ

ولجأ إلى رجل اسمه بُدَيْح ليكون رسوله إليها فأبي . وقال :

مثلي لا يعين على مثل هذا .

ولكن عمر كان صاحب حيلة وفطنة ودهاء فغيب بقلته بعيداً ثم جاء بديحا

(١) كلمة يمانية معناها : ماذا بك ؟ (٢) الأغاني ج ١ ص ٨٨

نفسه ، وقال له : قد أضللت بفلتي فانشدها لى فى زقاق الحاج ، وذهب بديح عن طيبة
قلب قنشدها فخرجت بنت محمد بن الأشعث وقد فهمت الآية وأتت عمر لموعده وعرف
بديح أن خدعه عمر ، وقال له : سحرتنى وأنا رجل ! فكيف برقة النساء وضعف
رأيهن وما آمنك بعدها ولو دخلت الطواف ظننت أنك دخلته لبلىة !

فأنت ترى من هذا : ماذا فعل جميل حتى علمت حبيته بحضوره ليراها ، إذ دس
إليها طوراً خاتمه مع وليدة لا تكاد تبين ، وطوراً علامة ضمنها كثير بضعة أبيات من الشعر .
وماذا فعل عمر حتى علمت هواه بموعد اللقاء ، إذ دس لها من ينشد ضياع بقلته ،
ولم يكن هناك فقد ولا ضياع ، بل كان موعد ولقاء !

وماذا ترى من حيل النساء ؟ وهن أصحاب فطنة وخداع وذكاء !
المرأة دائماً ذات وسوسة وشك وأوهام . فهى أقرب فى حبها إلى القلق والحيرة
والاضطراب . مهما أظهر الرجل من حبه وعطفه وهيامه . ومهما كان له من سقمه
وصفرته ونحوه خير شاهد ودليل . فإن المرأة تهمة بما ليس فيه ، تهمة بكرهيتها والإعراض
عنها ، وهو الذى يذوب قلبه فى سبيل حبها وتذبل زهرة شبابه كلفا بها ، وشوقاً إليها .
وهل ترى مثل كثير فى حبه عزة ؟

وهل ترى مثل مجنون بنى عامر فى حبه ليلى ؟
إننا نضرب بهذا الحب أصدق الأمثال فى القوة والتماسك ووحدانية البناء .
ومع ذلك لا ترى من عزة ولا ترى من ليلى قناعة ورضا ، ويذهب بهما ضعف
هذا الرضا إلى اتهام صاحبيهما ، وإلى أن يحتالا حتى يعرفا مدى هذا الاتهام من خطأ
أو صواب ، ومن كذب أو صدق .

وكيف السبيل ؟

أما عزة ^(١) فقد أغرت بثينة صاحبة جميل أن تتصدى لكثير وتطمعه فى نفسها

(١) الأغاني ج ٩ ص ٣٦

حتى نسمع ما يجيبها به . فأقبلت بثينة إلى كثير وعزة تمشى وراءها مختفية ، وعرضت عليه الوصل ، ولكن كثيراً كان أكثر وفاء لصاحبه وأكثر حباً لها ، فلم يحقق لبثينة سؤالها ، وأعرض عنها في أدب ورفق وقال :

رمتني على عمد بثينة بعد ما تولى شبابي وارجحن^(١) شبابها
وقال :

ولكنما تَرَمِين نفساً مريضة لعزة منها صفوها ولبابها
وليلي حيث كان الحب بينها وبين المجنون لا يزال غصاً حديث العهد . أرادت أن تحتال حتى تعرف مدى حبه لها وكلفه بها ، وأتاها المجنون ذات يوم وكانت تجلس بفناء بيتها وعندها جوهرات يتحدثن معها ، فجعلت تُعرض عن حديثه ساعة بعد ساعة وتحدث غيره ، وزاد الطين بِلَّةً ، كما يقولون ، أنها أقبلت على فتى من الحى فحدثته فترة طويلة ، وسارته طويلاً ، وتظاهرت بمودته والائتناس به .
فعلت ليلي هذا حتى تعرف حال المجنون ، ولم تكن حاله في حاجة إلى معرفه وبيان ، ولكنها المرأة لا تكاد تصدق إلا بعد بحث واحتيال . أما المجنون فقد اكفهر وجهه ، وزاد وجيب قلبه ، وتطايير الشرر في بريق عينيه ، ولم تمهله ليلي على هذه الحال طويلاً شفقة عليه ، ورحمة به ، فأعلنت حبها له ، وأنشأت تقول :

كلانا مُظْهِرٌ للناس بغضاً وكلُّ عند صاحبه مكين

تبلغنا العيونُ بما أردنا وفي القلبين ثمَّ هوى دفين

وتمكن الحب بين قلوبهما وأصبح لنا في هذا الحب أصدق الأمثال .

وترى نوعاً آخر من حيل النساء لا تلبو به المرأة حبيبها ، ولكن تصونه من العدوان والأذى .

كان توبة بن الحمير يحب ليلي الأخيلية ، وكان يلقاها حتى شهر أمره فعاتبه

(١) اهتز شبابها فصاره وحسنا .

أخوها وقومها فلم يُعْتَب (١)، وشكوه إلى قومه فلم يقطع، فتظلموا إلى السلطان فأهدر دمه إن أتاها، وعلمت بذلك ليلي .

فكيف تخبره ليلي ؟ وكيف تحتال في هذا الخبر ؟

إن زوجها كان غيوراً عليها، وحلف لئن لم تعلمه بمجيئه ليقتلها، ولئن أنذرتة بذلك ليقتلها . وكان من عاداتها أن تبرقع حين تلقاه .

وخرج ذات مرة إليها وكان أهلها يرصدونه وخافت عليه السوء والأذى فخرجت وجلست في طريقه، ولما اقترب منها ألقت البرقع عن رأسها، ففطن لما أرادت وعلم أن قومها يترصدون به، وكرر راجعاً، وبذلك نجا من الموت .
وفي ذلك يقول :

وكنت إذا ما جئت ليلي تبرقعت فقد رايتني منها الفداة سقورها
ولولا فطنة توبة، ولولا حيلة ليلي لكان البلاء العظيم .
ثم اقرأ هذه الأبيات لعمر بن أبي ربيعة :

لما وقفنا نُحْيِيهِمْ وقد صرخت	هوائف البين واستولت بهم أصلاً (٢)
صدت بماداً وقالت لتي معها	بالله لوميه في بعض الذي فعلاً
وحدثه بما حدثت واستمعي	ماذا يقول ولا تعني به جدلاً
حتى يرى أن ما قال الوشاة له	فينا لديه إلينا كاه نقلاً
وعرفيه به كالهزل واحتفظي	في بعض معتبة أن تغضبي الرجل
فإن عهدي به والله يحفظه	وإن أتى الذنب ممن يكره العذلاً
لو عندنا اغتیب أو نيلت نقيصته	ما آب مُغْتَابُهُ من عندنا جدلاً
قلت اسمي فلقد أبلغت في لطف	وليس يخفى على ذي اللب من هزلاً
هذا أرادت به بخلاً لإعذرها	وقد أرى أنها لن تعذم العذلاً

(١) أي لم يرهم . (٢) جمع أصيل وهو العشى .

ما سُمِّيَ القلب إلا من تقلَّبه ولا الفؤاد فؤاداً غير أن عقلا
هذه الأبيات فالها عمر في وداع الثريا ، حين انتقلت إلى الشام مع زوجها
سُهَيْل بن عبد العزيز .

إقرأ هذه الأبيات ، وتأمل هذه الألفاظ :
لَا تَعَيَّيْ بِهِ جَدلاً . وليس يخفى على ذى اللب من هزلا . أرادت به بخلا لأعذرها .
لن تعدم العللا . ولا الفؤاد فؤاداً غير أن عقلا .

ألا تدل هذه العبارات على سعة الحيلة ، وبقظة العقل ؟
إذا وقعت خصومة بين المحبين فالغلبة لمن يتسلح لها بالحيلة والقفطنة ، وفصاحة القول .
وإذا جرت بينهم أحوال فإن ذا اللب يستطيع أن يميز الخبيث من الطيب ،
وأن يعرف الجد من الهزل .

وإن المرأة في كثير من شجون الحب تتلمس الأسباب ، حتى يكون لها العذر
في الصد والهجران .

وإن للمحبين عقولا ، وعقولا مرهفة ، تستطيع أن تدرك بها الأمور ، وأن تتبين
الحق من الباطل .

ثم تأمل القضية التي تحدثنا عنها هذه الأبيات :
أو بعبارة أخرى كيف تكون المرأة واسعة الحيلة ، إذ تهتم الرجل ليكون لها العذر
في أن تجفوه ، وكيف يدفع الرجل عن نفسه هذه الآثام ؟

تقسو المرأة على حبيبها وتهجره تدللاً منها وتجنباً ، وقد يتذلل لها الرجل ويتوسل ،
فتمعن هي في الجفوة والهجر ، حتى يزداد بها الرجل كلفاً كما قال الشاعر :

وزادني شغفاً بالحب أن منعت أحبُّ شيء إلى الإنسان ما منعا
وكذلك حبيبة عمر تهجره ، ولا تجود له بالوصل ، ثم ترسل إليه رسولا
تلومه وتعنفه وترجره .

ماذا فعل عمر حتى يلقي هذه العاصفة من اللوم والتقريع ؟
لم يفعل شيئاً .

ولكنها المرأة تمن في تعذيب الرجل ، وفي اتهامه بالسوء حتى يعود إليها أكثر
ما يكون تذلاً وتوسلاً .

أرسلت إليه رسولها بعد أن أوحى إليها أن تكون فطنة حذرة ، وأن تكون
لينّة رقيقة ، حتى لا تثير غضبه ، فإنه يكره العذل ، وأوصتها أن تبش هذه الدعوى
التي تتلخص في أن الوشاة سبّوها لدى عمر وانتقصوها ، وأسأوا إليها واحتمل عمر
هذه الإساءة ، كأنه يصدقها ، فلم يدفع عن الثريا هذه المنكرات ، وإن هذا الكلام
نقل إليها من صدوق أمين ، دون زيادة أو نقصان .

كيف يغضى عمر عن قول الوشاة ؟ إنه لظالم .
وكيف لا يفعل مثل فعلها ، إذا جاءها واش ينتقصه ؟ فإنه لا يعود إلا كثيراً حزيناً .
إنه إذن كاره ، جاف القلب ، يستحق منها البعد والصد ، والمهجران .
هذه هي الدعوى وتلك هي المدّعية .

فماذا يرى المدّعى عليه ؟

يرى عمر أن ذلك كله حيلة ، لا تجوز في شرعة العقلاء .

قلت : اسمعى فلقد أبلغت في لطف وليس يخفى على ذى اللب من هزلا
ويرى أن الثريا بهذه الحيلة تريد أن تبرر أمامه هجرها له وبعدها عنه ،
حتى يكون لها العذر فيما فعلت ، وذلك شأنها تلجأ إلى الحيلة ، حين تضيق
بها السبيل .

هذا أرادت به بخلاً لأعذرها وقد أرى أنها لن تعدم العلا
ويرى أن للرجل عقلاً ينير له مسالك الحياة ، ويجنبه مواطن التلف والخطل .
وعقل عمر لا يصدق هذه الأحاييل ، ولا تجد إلى عقله سبيلاً .

واقراً ما يقول أبو نواس^(١) :

لما جفاني الحبيب وامتنعت	عنى الرسالات منه والخبر
واشتد شوقى فكاد يقتلنى	ذكر حبيبي والهمل والفكر
دعوت إبليس ثم قلت له	فى خلوة والدموع تنحدر
أما ترى كيف قد بُليت وقد	أقرح جفنى البكاء والسمهر
إن أنت لم تلق لى المودة فى	صدر حبيبي وأنت مقتدر
لا قلت شعراً ولا سمعت غناً	ولا جرى فى مفاصلى السكر
ولا أزال القرآن أدرسه	أروح فى درسه وأبتكر
وألزم الصوم والصلاة ولا	أزال دهرى بالخير آتمر
فما مضت بعد ذلك ثلاثة	حتى أتانى الحبيب يعتذر
ويطلب الود والوصال على	أفضل ما كان قبل يهتجر ^(٢)
فيا لها منة لقد عظمت	عندى لإبليس ما لها خطر

ألا تضحك معى حين تقرأ هذه الأبيات ؟ لأنها تدل على ظرف ودعابة حلوة .
ثم ألا تعجب معى حين تقرأ هذه الأبيات ؟ لأنها تدل على معنى دقيق ، وتصوير
رفيق وخيال جميل .

ثم تدل على يقظة واحتيال ، وحسن تدبير .

أبو نواس هجره الحبيب فماذا يفعل ؟

يشتد به الشوق حتى كاد يقتله ، فهل يسلم نفسه إلى الرضا والخنوع ؟

ليس أبو نواس بالرجل الخامل ، حتى يقنع بالذل والهوان ، وليس بالرجل الغافل
الذى تعييه الحيلة ، وينقصه رأى السديد .
لابد أن يحتال حتى ينعم برضا الحبيب .

(١) عصر المؤمن ملحق ج ٣ ص ٢٣٣ (٢) يقال هجره واعتجره بمعنى جفاه .

فكيف الحيلة ؟

يعرف أن إبليس يفرى الإنسان ويفويه حتى ينساق إلى هواه .
فلم لا يتخذ من الشيطان رسوله للحبيب ، حتى يزين له الوصال بعد الجفوة ،
والرضا بعد الصدود ؟

فكيف وصل أبو نواس إلى الشيطان ؟

دعاه في خلوة ، وبكى بين يديه ، وكشف له عن آلامه وأسقامه ، لعله
يرق ويرحم .

ثم بين أنه من أشياعه وأتباعه ، فهو يقول الشعر ويسمع الغناء ، ويحتسى الخمر ،
ومن الحق على إبليس أن يساعد شيعته وتابعيه .

ثم أئذره إن لم يكن رسوله إلى حبيبه أن يتخلى عن نصرته وتأيينه ، بل يجاهده
ويغالبه ، فيقرأ القرآن ، ويلزم الصوم والصلاة ، ويفعل الخير .

رق إبليس لركة حاله ، وخاف أن ينتقص واحداً من مريديه ، فأتى الحبيب ، وأخذ
يوسوس له ، حتى جاء بعد قليل من الزمن ، يعتذر إلى أبي نواس ، وكان من قبل
أبياً جوحاً .

ثم اقرأ ما يقول بشار^(١) :

يا مَنْظَرًا حَسَنًا رَأَيْتُهُ	مِنْ وَجْهِ جَارِيَةٍ فَدَيْتُهُ
بَعَثْتُ إِلَى تَسْوَمِي	ثَوْبَ الشَّبَابِ وَقَدْ طَوَيْتُهُ
وَاللَّهِ رَبِّ مُحَمَّدٍ	مَا إِنْ غَدَرْتُ وَلَا نَوَيْتُهُ
أَمْسَكْتُ عَنْكَ وَرَبِّمَا	عَرَّضَ الْبَلَاءَ وَمَا ابْتَغَيْتُهُ
إِنْ الْخَلِيفَةُ قَدْ أَبِي	وَإِذَا أُنِي شَيْئًا أَبَيْتُهُ

وَمُخَضَّبٌ^(١) رَخَصَ^(٢) البنا ن بكى على وما بكيتُهُ
ويشوقني بيت الحبيب إذا أذكرت وأين بيته
قام الخليفة دونه فصبرت عنه وما قلبيته
ونهاني الملك الهمام عن النساء وما عصيته
لا بل وقيت فلم أضع عهداً ولا رأياً رأيتُهُ

فأنا نرى بشاراً وقد منعه المهدي عن الغزل كيف يكدح الذهن؟ وكيف يحتال؟
حتى يقول هذا الشعر .

وفي هذا الشعر غزل .

فيه ذكر لجمال المرأة وأنه يفدى هذا الجمال بروحه .

وفيه ما يقع بين المحبين أول الأمر من سوم ، وإغراء ، ومناغة .

وفيه شوق لبيت الحبيب وما في هذا البيت من ذكريات وشجون .

أليس هذا كله غزلاً؟

بلى . . . !

ولكن بشاراً كان ما كراً خيئاً فتظاهر بأنه أعرض عن هذا طاعة للخليفة
وإذعاناً لأمره .

خاف بشار أن يناله من المهدي مكروه ، ومال إلى أن يشبع في الغزل هوى نفسه ،
فتلطف ، وتحايل ، حتى كان منه غزل على هذه الصورة الرائعة الجميلة فلم يغضب الخليفة
ولم يتعرض لأذاه .

ونرى في شعر الغزل أمثلة كثيرة نقرأ فيها كلمات الحيلة والعقل ، والعلم ، والجهل ،
بل نرى أن بعض الشعراء يضيق ذرعاً فينشد الناس أن يتفقوا له حيلة ، حتى يصل
إلى حب المرأة ورضاها .

(٢) رخص البنان : ناعم لين الملمس .

(١) خضب يده بالخطاب لونها .

قال الشاعر^(١):

شكوتُ فقالت كلُّ هذا تبرُّمٌ
فلما كتمتُ الحب قالت لشدَّ ما
وأذنو فتعصيني ، فأبعد طالباً
فشكواي تؤذيها وصبري يسوءها
فيا قوم هل من حيلة تعرفونها
وقال الأعمى التُّطيلي^(٢):

فانظر بعقلك إن العين كاذبة
ولا تقل كلُّ ذي عين له نظر
وقال العباس بن الأحنف^(٣):

لو كنت عاتبةً لسكن روعتي
لكن ملأت فلم تكن لي حيلةً
وقال إبراهيم الموصلي^(٤):

وعلمتني كيف الهوى وجهلته
وأعلم مالي عنديكم فيردني
وقال قيس بن الملوح — المجنون — :

خليلى هل من حيلة تعلمانها
فإن أنما لم تعلمانها فلستما
وقال عمر بن أبي ربيعة :

فقمنا وقد أفهمنا ذا اللب أنما
أتين الذى يأتين من ذاك من أجلى

(١) تزيين الأسواق ص ١٠

(٢) بلاغة العرب ص ٦٩

(٣) الأغاني ج ٨ ص ٣٥٥

(٤) معجم الأدباء ج ١ ص ١٨٠

ولعل القارىء حين يدرك هذا كله يؤمن معى أن للعقل شأنًا عظيمًا فى الغزل ، وأن الحب إذا لم يكن ذا فطنة ، وذكاء وحيلة ، وتدبير ، لم يكن أهلاً لهذا الغزل . وقد قدمت لك أن من شئون الغزل ما يتطلب الفطنة وسعة الحيلة ، وأن فى لغة الغزل إشارات وحركات يتطلب فهمها فطنة وسعة حيلة ، وأن فى شعر الغزل ما يصف رجال الغزل ونساءه بالفطنة وسعة الحيلة . وفوق ذلك فالغفلة صفة ذميمة لا يرضاها الحب فى حبيبته ولا الحبيبة فى محبوبها ، ومن شأن المحبين أن يتجافوا كل ما هو ذميم سقيم .

وفى حياة الغزل سمو وفن وجمال ولا يحيا هذه الحياة ولا ينعم بظلالها الوارفة الكريمة إلا الأذكياء النابهون .

قلنا إن من أثر الغزل العاطفة . ونقول هنا إن من أثره العقل أيضاً . وقد يصح أن نتساءل :

كيف يجتمع القلب والعقل فى الغزل؟ وهما أمران قد يكون بينهما شيء من التباعد والتنافر . فذو العاطفة يصبح أسير عاطفته ، لا يبالي ما تأتى به صروف القدر ، لا يفكر فى شيء إلا فى أن يروى ظمأه ، ويشبع غليله ، وذو العقل يزن مسائل الحياة وزناً دقيقاً ويحسب لكل شيء حسابه ، ولا يأبه فى كثير لمسائل القلب والروح .

لا شك فى هذا التباعد بين القلب والعقل ، ولكنى لا أرى هذا التباعد بينهما فى حياة الغزل ؛ بل أرى أنهما يتساندان ويتعاونان لخير الرجل والمرأة ؛ ذلك أن القلب إذا غلبه الحب فإن العقل لا يعرقل هذا الحب ، ولا يقف فى سبيله ، بل يسعى جاهداً فى أن يغذى عاطفته ، ويحقق لها ما ترنو إليه وأنصبو .

الفصل الثالث

الطموح

الطموح هو الرغبة في الوصول إلى الأمل البعيد .
وفي سبيل تحقيق هذا الأمل لا بد أن يركب صاحبه الأخطار والأهوال .
فالجندي في ساحة القتال حين يكون بعيد الأمل لا بد أن يجاهد ويناضل
ولو أدى ذلك إلى حتفه وهلاكه . وحينئذ يكون له الفوز والنصر المبين . فإذا خاف
الشدائد ، وتقايس منه العزم وفترت الهمة أصابته الخيبة والإخفاق .
وكذلك المحب حين يهفو قلبه إلى الحبيب لا بد أن يكون طموحاً حتى يظفر
بتحقيق ما يريد .

فإن في الحب آلاماً . وإن في الحب أهوالاً . وإن في الحب نضالاً . فإذا لم يكن
المحب طموحاً وقف عند أول صدمة يلقاها من الحبيب وبذلك يموت حبه قبل
أن يولد وتنطفئ جذوته قبل أن تشتعل .
أما إذا كان طموحاً فإن عزمه لن ينثنى ، وإن قوته لا تضعف أمام غصص
الحب ، مهما كانت مريرة المذاق ، فإن قوة عزمه تصهر الخطوب ، وإن نور أمله
يكشف له ظلام الطريق ، ويهديه سواء السبيل .

يلقى من الحبيب هجراً طويلاً ، فيحتمل ، حتى تدنو ساعة الوصال .
يقف العواذل بينه وبين الحبيب سداً منيعاً ، فلا يقنط من رحمة الله ، بل يجاهد
حتى يظفر باللقاء .

يقسو الأهل والأقرباء ويلومونه كما يلومونها ، ويقفون حجر عثرة في سبيله كما

يقفون في سبيلها . ولكن الأمل يحدوها إلى تحطيم هذه الأحجار حتى تتلاقى القلوب .
يحولون بينه وبينها ، بالرحيل تارة وبالزواج طوراً ، وهم بذلك يحولون بين الأجسام
أما الأرواح فهي تتآخى وتتناجى . حتى الأجسام لا يحولون بينها . فإنه يرتحل إليها
ويتحمل عناء السفر حتى يلتقاها وتلقاه .

ما أكثر قيود الحب !

وما أكثر آلامه !

والرجل الطموح تهون أمامه عظام الأمور . وبسمة الآمال يهون أمامها كل
صعب جموح ، فما بالناس إذن نسخر من هؤلاء الأحاب ، ونرميهم تارة بالسفه ، وتارة
بالخبل ، وتارة بالجنون ؟ .

ولم لا نقول : إن لهم في الحياة رسالة عقدوا العزم على أدائها ، يسوقهم الأمل ،
ويحدوهم الرجاء ؟

ولكنها رسالة شاقة عنيفة لأنها تتصل بالقلب ، تتصل بالروح ، تتصل بالمرأة
وهي سر الحياة . صدمتهم في هذه السبيل رياح عاصفة هوجاء ، فأبلوا في كفاحها بلاء
حسناً ، نشيد الآن بآثاره ، ونتحدث عن ذكره .

وإننا لنرى في الحب ضروبا من الطموح .

فالحب لا يفتأ يطلب حبيبه ، ويجاهد في سبيل طلبه ، ولا يجد اليأس سبيلا
إلى قلبه حتى يظفر بقلبه .

يقول جميل العذري :

أفق أيها القلب اللجوج عن الجهل	ودع عنك فجلا لاسبيل إلى فجعل
فلو تركت عقلي معي ما طلبتها	ولكن طلابها ^(١) لما فات من عقلي

(١) طلي إياها .

ويقول قيس بن ذريح :

خليلى إني ميت أو مُكَلَّمٌ لُبَيْتِي بَسْرَى فَاَمْضِيا وَذِرَانِي

ويقول عمر بن أبي ربيعة :

أَمْسَى بِأَسْمَاءَ هَذَا الْقَلْبَ مَعْمُوداً إِذَا أَقُولُ صَحَا يَعْتَادُهُ عِيداً
أَجْرِي عَلَى مَوْعِدٍ مِنْهَا فَتُخْلِفُنِي فَمَا أُمَلِّ وَلَا تُوفِي الْمَوَاعِيدَا

ويقول أبو نواس :

أَلَمْ تَرَانِي أَنْفَيْتَ عَمْرِي بِمَطْلِبِهَا وَمَطْلِبِهَا عَسِيرِ
فَلَمَّا لَمْ أَجِدْ سَبِيلاً إِلَيْهَا يَقْرِبُنِي وَأَعِيتُنِي الْأُمُورِ
حَبَجَجْتُ وَقُلْتُ قَدْ حَجَجْتُ جَنَّاتٍ فَيَجْمَعُنِي وَإِيَّاهَا الْمَسِيرِ

فإن جميلاً يأتي عليه طموحه إلا أن يطلبها، وأن يسعى في طلبها، ولو كانت عزيزة المال . وكأنه شقى بهذا فيخاطب قلبه اللجوج بأن يرعوى عن حبه . ولكن هيهات ! ويعلل طلبه إياها بأنها سلبته عقله ، والأمر ليس كذلك . إنما هو الطموح يدفعه إلى أن يراها ، ولو أباح الوالى قتله إن فعل .

وقيس — كما حدثنا الرواة — حين قال هذا البيت — يرتحل متعللاً بالصيد ليرى لبنى ، فلما أعياه الجهد ، ولم يرها ، ولم يجد من يرسله ، قال له رفاقه : قد عرفنا ما أردت بإخراجنا معك . إنك لم ترد الصيد وإنما أردت لقاء لبنى . وقد تعذر عليك فأنصرف الآن . ولكن طموحه أبى عليه أن يبرح المكان حتى يراها ، وقد تم له ما أراد . وعمر لا يمل محبوبته مهما تجنت وأخلفت فهو لا يزال يطلب وصالها حتى يظفر به .

وأبو نواس أعيته الأمور في طلبها ، ولكن أبى عليه طموحه إلا أن يجتمع بها في الحج إلى بيت الله . والمحـب يعيش بالأمل في وصال الحبيب ، الذى يراه قريباً وإن رآوه بعيداً ، والذى لا يقنع فيه بالقليل ، والقليل منه جميل .

ويقول محرز^(١) المُكَلَّى :

كفى حَزَنًا ألا يزال يعودنى على اليأس طيفٌ من خيالكِ يا نَعْمُ
وأنتِ مكان النجم مَنّا وهل لنا من النّجْم إلا أن يُقابِلنا النجم
ويقول ابن الرومى :

سَمِدَتِ مَقَلَتى بِوَجْهِكِ لولا أنها أعقبت بطول السهاد
ليس فيما كسيت من حلل الحسن ولا فى هوى من مستزاد
ويقول عمر بن أبى ربيعة :

فَعِدِى نائلاً وإن لم تنيلى إنه ينفع الحبَّ الرجاء
ويقول كثير :

ولست براضٍ من خليل بنائل قليلٍ ولا أرضى له بقليل
ويقول جميل :

وقد تلتقى الأشتات بعد تفرق ولا تُدركُ الحاجات وهى بعيد
يرى محرز أن محبوبته منه بمكان النجم يقابله وينعم برؤياه .

وابن الرومى يرى أنها بالغة فى الحسن والجمال إلى حد أنه لا يقبل المزيد .

والحب كما يقول عمر ينفعه الطموح ، ولذا يطلب من حبيبته أن تعدّه بالوصال ولو لم تجد به .

والحب كما يقول كثير طموح لا يرضى فى هذا الوصال بالقليل .

وطموح الحب كما يقول جميل يحمل صاحبه على أن يرتقب اللقاء بعد طول افتراق ويدرك الحاجة ، ولو كانت بعيدة المنال .

والحب طموح يترفع بحبيبته إلى مكان رفيع كريم ، فهى تسكن السماء ، وهى فائقة الحسن والجمال ، وهى سيدة الناس ، وهى أكرم من أن تباع وتشتري بالمال .

يقول العباس بن الأحنف :

هي الشمس مسكنها في السماء فز الفؤاد عراء جميلاً
فلن تستطيع إليها الصعود ولن تستطيع إليك النزولاً
ويقول عمر بن أبي ربيعة في زينب بنت موسى يذكر نسوة معها :
قد فزن بالحسن والجمال معاً وفزن رسلاً بالدّل والخفّر
يُنصتن يوماً لها إذا نطقت كما يُشرفنها على البشر
ويقول قيس بن الملوّح — المجنون — في حبيبته ليلي :

ألا إن ليلي كالمنيحة ^(١) أصبحت تقطعُ إلا من ثَقِيفٍ حبّالها
فقد حبسوها بحبس البدن وابتغى بها الريح أقوام تساحت ^(٢) مالها
نرى أن العباس يسمو بحبيبته ، فيجعل لها في السماء مسكناً .

ويريد بهذا أن يجعلها عزيزة المنال ، وأنه ليس بمستطيع أن يصعد إليها ، وليست بمستطاعة أن تنزل إليه ، ولا أظن العباس وهو الصب المقيم يقف حيال محبوبته هذه عاجزاً ، ولا بد أن سيسعى لها مهما طال به الجهد ، حتى يصل إلى عليائها ويناجيها وتناجيها .

ونرى عمر يصف مجلس نسوة ، وهن يتحدثن وينهين محبوبته ، وإنه ليسمو بهذه المحبوبة حتى يجعلها سيدة الناس ، تتحدث فيصفي إليها النسوة كما يصفي المحكوم إلى الحاكم والرعية إلى الراعي .

أما قيس — المجنون — فإنه يسخر بالمال ويهزأ بهؤلاء الذين يعتبرون المرأة ساعة تباع وتشتري . فإنهم قد زوجوا ليلي إلى رجل من ثقيف دفع من المهر قدراً عالياً ، تزوجها وارتحل بها . ليلي حبيبة نفسه يحبسونها كما تحبس الناقة التي لا تملك من أمرها

(١) المنيحة : — بفتح الميم — الشاة أو الناقة يعطيها صاحبها رجلاً يضرب لبنها ثم يردّها إذا انقطع اللبن ، وكثر استعمالها في كل موهوب .
(٢) من السحت وهو المال الحرام .

حولاً ولا قوة ، يحبسونها كارهة مرغمة لأنها أسلمت قلبها إلى قيس ، ولا ترضى سواه
بديلاً . من أجل قليل من المال يحبسون هذا القلب النقي الصافي بعيداً عن حبه وهواه
ألا بئس هذا المال !

لقد صدق قيس إنه يسمو بالحب فوق ما في الدنيا من عَرَض ومال ، إنه لا يباع
بشئ ، ولا يعدله جزاء .

والحب طموح يرتفع بحبه إلى المثل الأعلى . فحبه لا يماثله حب ، ولا يبلى إذا طال
به العهد . هو امتزاج بين روحين لا يفصم الموت عراه .

يقول وضاح اليمين في حبيبته روضة .

س فما قست حبها بمشال	قست ما كان قبلنا من هوى النا
ولا وجدنا كوجد الرجال	لم أجد حبها يشاكله الحب
وهوى روضة للمنى غير بالى	كل حب إذا استطال سيبلى
جِدَّةً عندنا وحسن احتلال	لم يزدته تقادم العهد إلا

ويقول قيس بن ذريح :

تعلق روحى روحها قبل خلقنا	ومن بعد ما كنا نطافاً وفي المهد
فزاد كما زدنا فأصبح نامياً	وليس إذا متنا بمنصرم العهد
ولكنه باق على كل حادث	وزأرنا فى ظلمة القبر واللحد

نرى فى هذه الأبيات أن وضاحاً إذا قاس حبه فى روضة بحب من كان قبله من الناس
لم يجد له مثيلاً ، وأن حبه لها غير بال ، بل يزيده تقادم العهد جدة ونماء .
أما قيس فإنه قد جعل حبه امتزاجاً بين روحين ، قبل أن يخلقا وفى النطفة والمهد .
ثم جعله باقياً خالداً لا تجوز عليه أحداث الزمن من زوال وفناء .

هذا وإن المحبوب ليتسامى في جميع صفاته وأحواله حتى ينال رضا الحبيب فهو
يكون دائماً مثال الأناقة في هندامه ، مثال الرقة في حديثه . مثال النبل في سجاياه .
يطلب العلا ويسعى إلى المجد حتى يرضى طموح نفسه ، وحتى تحمد عند الحبيب فعائله .
وصدق كثير إذ يقول :

ويرتاح للمعروف في طلب العلا لتُخَمَدَ يوماً عند ليلى شمائله

الفصل الرابع

التضحية

كل شيء في هذه الحياة يحتاج إلى طلب ، وكل طلب يحتاج إلى كد وعمل ، ويلقى الإنسان في سبيل هذا العمل كثيراً من الصعوبات والمشقات . فإذا احتملها ، وإذا ذللها ، وإذا غلبها فهو ذو العزم وهو ذو التضحية والقوة . وإذا لم يحتملها وناء بأعبائها الثقال فهو ضعيف النفس ، فإترأهمة . وسيكون له هذا الحظ المنكود من الخيبة والإخفاق .

وقد عرفت فيما سبق أن للمحبين طموحاً ، يدفعهم هذا الطموح إلى الكد والجهد والعمل ، حتى يصلوا في حبههم إلى تحقيق ما يريدون ، أو حتى ينالوا رضا الحبيبة ووصالها ودون هذا الرضا أحمال ثقال ، وأهوال جسام .

في الحب لذة ومتمعة ، تدفع بالأحباب أن يضحوا بالرخيص والعالى .
في الحب صفاء ووفاء . يدفع بالمحبين أن يضحوا بما ملكت أيديهم ، ولو كانت أرواحهم ، وهي أغلى ما في الوجود .

في الحب أعمال تتطلب الجهاد العنيف ، والعزم القوي ، والتضحية البالغة ، والشجاعة النادرة .

فماذا يفعل المحبوب حين يفارقه الحبيب ؟

وماذا يفعل المحبوب حين يهجره الحبيب ؟

إنه يتوجع ويتألم ، ويشوقه الحنين إلى أن يذكره وأن يتصوره ، وقد يحجره ذلك إلى أن يهجر النوم ، ويرعى النجوم ، وأن يرتحل وينتقل ، حتى يراها وتراه ، ويلقى في رحيله ضروباً من المصاعب والآلام .

وكم في هذا من أ كدار يشقى بها الحبيب ! .
إنها ستنال من راحته فلا يطيب له عيش ، ولا يهدأ له بال .
إنها ستنال من جسمه فهو مصفر الوجه ، ناكل الجسم ، داعم العيون .
ولكن المحبوب يضحي في سبيل الحبيب ، فيحتمل هذه الأ كدار ، ويأسو
هذه الجراح .

وماذا يفعل المحبوب حين يرقبه العواذل ، وحين يرصده الأهل والأقارب ؟
إنهم يضيقون عليه الخناق ، ويحيطونه بألوان من القلق والفرع ، والتهديد والوعيد .
إنهم يطلبون دمه ، ويجدون من الحاكم عوناً على إهدار هذا الدم البرىء ، فلن
يكون منهم قصاص ، ولن ينالوا جزاء .

ولكن يضحي المحبوب في سبيل الحبيب . فليحارب هؤلاء جميعاً ، وليغالب
هؤلاء جميعاً . وكم يلقي في هذه الحرب وفي هذا الغلاب ضروباً من المحنة والبلاء ؟
بل إننا لنقرأ في سير الأحاب أن كثيراً منهم قد لقي حتفه في سبيل الحب .
ليس هناك دليل أبلغ في التضحية من أن يجود المحبوب بنفسه ، والجود بالنفس
أقصى غاية الجود .

وإذا كان لنا أن نظرب لهذا الفتى الذى خرّ في ميدان الوغى ، دفاعاً عن الوطن ،
فلم لا نظرب هؤلاء الذين خروا صراعاً في ميدان الحب وفاء للحبيبة .
إن هؤلاء جميعاً كبار النفس ، عظام الآمال ، ذوو عزم وشجاعة .
فلم لا نظرب هؤلاء الأحاب الذين ماتوا في سبيل الحب ، ماتوا أطهاراً أبراراً ،
ماتوا كراماً أحراراً . فلنترحم عليهم ، ولنقرأ في صفحات حياتهم مثلاً كريماً للتضحية
في البطولة والشجاعة .

وإن الحديث عن التضحية يتطلب الحديث عن الشجاعة . فالشجاعة تدفع الحب
إلى أن يجاهد ويفال ، إلى أن يناضل ويقاتل ، وفي ذلك مصائب وآلام ، فهو يضحي

باحتمالها وبما يلقى في سبيلها . أما الجبان الرعديد فإنه يخاف هذه الآلام ومرارتها في النفس ، ويدفعه هذا الخوف إلى أن يحجم ويستسلم ، إلى أن يقنع بالقليل ، وأن يرضى بالذل والهوان .

ولذلك نرى المحبوب يفخر بشجاعته ، وهو أهل لهذا الفخار ، فهذه الشجاعة هي الوسيلة التي تجعله يحتمل آلام الحب وصراع الهوى ، ولولا الشجاعة ما استطاع إلى حياة الحب سبيلا .

كيف يرضى المحبوب حبيبته إذا لم يكن شجاعاً ، يغالب آلام الهجر والفراق ، والتدلل والتمنع ؟

كيف يرضى المحبوب حبيبته إذا لم يكن شجاعاً يغالب آلام السفر ، وآلام السهر ، ويجاهد قسوة الرقباء من العواذل والأقرباء ؟ .

إنه لن يستطيع ذلك إلا إذا كان له من الشجاعة حظ كبير .

كم ينال المحبوب رضا حبيبته إذا عرفت أنه شجاع لا يخاف الردى ، ولا يهاب المنون ! ذلك لأن الحبيبة يروقها أن يكون حبيبها سباقاً إلى كل حميد كريم ، ولن يكون ذلك إذا لم يكن شجاعاً .

والحبيبة يروقها أن يتفانى الحبيب في حبها ، وأن يجاهد في هذه السبيل جهاداً شاقاً عنيفاً . وان يستطيع ذلك إذا لم يكن شجاعاً .

وكم كان لهذا أثره في نفوس المحبين ، فهم يخاطرون لينالوا رضا الحبيب . وهم يبذلون في هذه المخاطرة حتى يكون لهم من هذا أوفى نصيب . بل كم دفع هذا الشعور إلى الغلبة والفوز ! .

ولعلك تقرأ في أحوال المحبين وفي شعر الغزلين بعض هذه الألوان التي تحدثنا عنها في معاني التضحية والشجاعة .

فالمجنون — قيس بن الملوح — في سبيل لقاء حبيبته ليلي كانت يغشى بيتها رغم أنهم كانوا يحولون بينه وبينها . ولم يكفهم ما كانوا يفعلون به من عنف وأذى فشكوه إلى الوالي فأهدر دمه ، ولما أخبروه لم يرعه ذلك ، وقال : الموت أروح لي فليتهم قتلوني ! . وكان من أثر الحب في نفسه أن أصابته لومة في عقله فترك الطعام والشراب . فذهبت أمه إلى ليلي . وقالت لها : إن قيساً قد ذهب حبك بعقله ، وترك الطعام والشراب فلو جئته وقتاً لرجوت أن يثوب إليه بعض عقله . فقالت ليلي : أما نهاراً فلا آمن قومي على نفسي ولكن ليلاً . فأنته ليلاً ، وتحدثا طويلاً ، ونصحته أن يبقى الله ، وأن يبقى على نفسه . ولعله كان آخر لقاء بينهما .

وجميل العذري لقي حبيبته بثينة ذات يوم وأخذها يتحدثان أحاديث الهوى وكان الحديث طويلاً ، لأنه كان بعد غيبة وفراق ، فطال غياب بثينة . ولما طال غياب بثينة عن بيتها بحث عنها أبوها وأخوها حتى هجما عليهما حيث كانا يلتقيان . ولكن شجاعة الحب غلبت شجاعة الأخ والأب فوثب عليهما جميل ، وانتضى سيفه ، وشد عليهما فاتقياه بالهرب وأخذت بثينة تنشده أن ينصرف وتقول له : إن أقت فضحتني ، ولعل الحى أن يلحقوك ، ويأبى جميل الهرب ويقول لها : أنا مقيم وامضى أنت وليصنعوا ما أحبوا ، وما زالت تناشده وتتوسل إليه حتى انصرف .

وذهب في يوم آخر ومعه صديق له ليرى بثينة وقد أجهدهما السفر وما أصابهما من جوع وعطش ولما كان اليوم الثالث من سفرهما ألقيا عصا التسيار وكان الرجال غُيباً ، وأخذ جميل يتحدث إلى نسوة الحى ، ولكن الحديث لم يدم طويلاً فأقبل جماعة من الرجال ، وكان الوالي قد أباح دمه إن وجد في بلادهم ، فقالوا له : ويحك أنج وتقدم ! فهزى بهم وسخر منهم . وكان بينه وبينهم جهاد ونضال أبلى فيه بلاء حسناً ، ثم قفل راجعاً بعد أن ذاق من هذا النضال أهوالاً ، وبعد أن سارست ليال وستة أيام ما التفت إلى طعام .

وأراد الخروج إلى الشام فهجم ليلاً على بثينة فقالت له :
 أهلكنى والله ، وأهلكت نفسك ! ويحك أما تخاف ؟ فقال لها : هذا وجهى
 إلى الشام إنما جئتكم مودعاً ، فحادثها طويلاً ، ثم قال لها وهو يبكى :
 ألا لا أبالى جفوة الناس ما بدا لنا منك رأى يابسين جيل
 وما لم تطيعى كاشحاً أو تبدلى بنا بدلاً أو كان منك أهول
 وقيس بن ذريح : حين حالوا بينه وبين حبيبته لبنى قد جد به الوجد ، وبلغت
 به الصبابة حتى مرض ، وأعياه المرض إلى أن كان يشرف على الموت . فقال له أبوه .
 يا بنى . الله الله فى نفسك ، فإنك ميت إن دمت على هذا . فقال :
 وفى عروة^(١) العذرى إن مت أسوةً وعمر بن عجلان^(٢) الذى قتلت هند
 وبنى مثل ما ماتا به غير أنتى إلى أجل لم يأتنى وقته بمد
 ولكن قيساً لا يسولبنى ، فهو يسمى إلى رؤيتها رغم أنه طلقها . فشكا أبوها
 أمره إلى الحاكم فأباح دمه ، إن تعرض لها ولما بلغ أباه الخبر عاتبه وتجهمه ، وقال له :
 انتهى بك الأمر إلى أن يهدر الحاكم دمك : ولم يعبا قيس بلوم أبيه ولا بإهدار
 دمه . وقال :

إن تك لبنى قد أنى دون قربها حجاب منيع ما إليه سبيل
 فإن نسيم الجو يجمع بيننا ونبصر قرن الشمس حين تزول
 وأرواحنا بالليل فى الحى تلتقى ونعلم أنا بالنهار نقيلاً
 وتجمعنا الأرض القرارُ وفوقنا سماء نرى فيها النجوم تجول
 إلى أن يعود الدهر سلماً وتنقضى ترات بغاها عندنا وذحول^(٣)

(١) هو عروة بن حزام شاعر إسلامي كان متيماً فى بنت عمه عقراء .

(٢) هو عبد الله بن العجلان شاعر إسلامي كان متيماً فى هند مات أسفاً على فراقها حين طلقها .

(٣) جمع ذحل : الحقد ويقال طلب بذخله أى بثأره .

إذ رق له يزيد بن معاوية ، وحقن له دمه ، وأباح له أن ينتقل إلى حيث يشاء
وأن يرتحل إلى أى بلد ولو كان بلد لبنى .

وإنك لترى فى هذه الآيات من الشعر بعض هذه النواحي التى تحدثنا فيها
عن تضحية المحبين وعن شجاعتهم ، وعن المخاطرة بنفوسهم فى سبيل إرضاء الحبيب .

يقول قيس بن الملاح :

فوالله ما فى القرب لى منك راحة ولا البعد يسلينى ولا أنا صابر
ووالله ما أدرى بأية حيلة وأى سرام أو خطارٍ أخطر
ويقول :

وقد يتلى قوم ولا كبليتى ولا مثل جدى^(١) فى الشقاء بكم جدٌ
غزتنى جنود الحب من كل جانب إذا حان من جند تقول^(٢) أتى جند
ويقول جميل :

يقولون جاهد يا جميل بغزوة وأنى جهاد غيرهن أريد
لكل حديث عندهن بشاشة وكل قتيل عندهن شهيد
ويقول :

ولست بناس أهلها حين أقبلوا وجالوا علينا بالسيوف وطوقوا
وقالوا جميلٌ بات فى الحى عندها وقد جردوا أسيافهم ثم وقفوا
وفى البيت لَيْثُ الغاب لولا مخافة على نفس جُلِّ والاله لأرغفوا^(٣)
هممت وقد كادت مراراً أطلعت إلى حربهم نفسى وفى الكف مرهف
وما مرّ فى غير الذى كان منهم ومنى وقد جاءوا إلىّ وأوجفوا
فكم مرّج أمراً أتيج له الردى ومن خائف لم ينتقصه التخوفُ

(١) حظى ونصبي . (٢) رجوع بعد الغزو . (٣) يقال أرغفه أى أعجله .

ويقول :

لقد ظن هذا القلب أن ليس لاقياً
فليت رجلاً فيك قد نذروا دمي
ويقول كثير :

يقول العدا يا عز قد حال دونكم
فقلت لها والله لو كان دونكم
وكيف يروع القلب يا عز رائع
وما ظلمتك النفس يا عز في الهوى
ويقول وضاح اليمين :

قالت : ألا لا تلجئ دارنا
قلت : فإني طالب غيرة
قالت : فإن القصر من دوننا
قالت : فإن البحر من دوننا
قالت : فحولي إخوة سبعة
قالت : فليث رابض بيننا
قالت : فإن الله من فوقنا
قالت : لقد أعييتنا حجة
فاسقط علينا كسقوط الندى
إن أبانا رجل غائر
منه وسيف صارم باتر
قلت : فإني فوقه ظاهر
قلت : فإني سابح ماهر
قلت : فإني غالب قاهر
قلت : فإني أسد عاقر
قلت : فإني راحم غافر
فأت إذا ما هجع السامر^(١)
ليلة لانا ولا زاجر

ويقول :

قد يكتُم المرء حبه حَقَباً
ماذا تريدن من فتى غزل
وهو عيـدٌ وقلبه كـيد
قد شفه السُّمُّ فيك والسَّهْدُ

(١) أي التمامون .

يهددوني كَمَا أَخَافَهُمْ هِيَاتَ أَنِّي يُهَدِّدُ الْأَسَدُ
ويقول امرؤ القيس :

وبيضة^(١) خدر لا يرام خباؤها^(٢) تمتعت من لهوبها غير مُعَجَّل^(٣)

تجاوزت أحراساً إليها ومعشراً على حِرَاصاً لو يُسِرُّون مقتلى

فأنت ترى في هذا أن المجنون يذكر أنه في حبه معذب معني ، لراحة في القرب من حبيبته ولا صبر على فراقها ، وأنه لا يفتأ يَحْتَال على لقائها ويخاطر في سبيل اللقاء بألوان من المخاطرة فيها محنة وفيها شدة وفيها بلاء . ثم يذكر أن مصابه في الحب لا يعديله مصاب ، وأن حظه مع الحبيب حظ عاثر جائر ، لا يجدف فيه إلا الحزن والآلام . ومع ذلك فإنه راض باسم لهذه الحادثات مهما أظلمت واكفهرت .

ويصور لنا في البيت الأخير من أبياته ما يقع بينه وبين جنود الحب من غزو وقتال ، وما يلقى من هولاء الجنود من شدة البأس وقوة العزم ، وأنهم ذوو صبر وجلد ، لا يملون القتال ، ولا يتركون سبيلاً للراحة والعطمانينة ، وإذا أصاب فريقاً منهم جهد وإعياء جاء فريق آخر أكثر ما يكون قوة ، وأكثر ما يكون مرونة .

وجميل يجعل حياته كلها جهاداً وغزواً ، وهو جهاد كريم شريف ، لأنه جهاد في سبيل الحب ، وفي سبيل القلب ، وإذا مات في هذا الجهاد فهو شهيد .

ثم يذكر لنا إحدى حداثاته وهو يطلب بثينة ، ويسعى إلى لقائها ، وماذا كان يقع بينه وبين أهلها من نزال ونضال ، وأنه كان لا يبالي فهو الليث الشجاع ، وهو ذو السيف المرهف الذي إن ضرب به أصاب مقتل الأعداء ، مهما كانوا من القوة والكثرة ، لا سيما إذا كان يضرب في سبيل حبيبته ، وفي هذه السبيل ترخص النفوس .

ثم يتمنى في البيت الأخير أن يلتقي بخصومه الذين حالوا بينه وبين محبوبته

(١) المرأة شبهها بالبيضة لصفائها ورقتها . (٢) الحباء ما كان على عمودين أو ثلاثة ، والبيت ما كان على ستة أعمدة إلى تسعة والخيمة من الشعر . (٣) لم يجئني أحد عما أريده فيها .
الغزل م - ٩

يتمنى لقاءهم ، كي يكسر شوكتهم ويغلبهم على أمرهم ، ويذيقهم ألواناً من العذاب جزاء ما أذاقوه ، وجزاء ما نال منهم من عدوان وأذى .

وكثير يتحدث إلى حبيبته عزة فيترجم عن مخاطرته حين يطلب لقاءها ، فلا يحول بينه وبينها حائل ، ولو كان جهنم بما تحوى من سعي وشرور . وكيف يروع قلبه ظلمة الطريق ووحشة السفر ؟ إنه يتخذ من وجهها المشرق هادياً ودليلاً . إنه يتخذ من ذكرها ما يبعث في نفسه العزم ، وفي قلبه الهمة والإقدام .

أما وضاح اليمين فإنه يصور لنا حواراً قام بينه وبين حبيبته «روض» ، ويصور في هذا الحوار أنه ذو تضحية وعزم .

خوفته بأبيها ، وهو ذو سريرة وبأس ، فذكر سيفه الصارم البتار ، وأنه يغلب بهذا السيف من يعترضون سبيله مهما كان لهم من حول وقوة .
خوفته بإخوتها السبعة ، وأنهم أهل غلبة وقتال ، فذكر أنه حين يجد الجد ، يكون غالباً لهم قاهراً .

خوفته بأن هناك ليثاً رابضاً بينهما ، فذكر لها أنه أسد عاقر .
خوفته بالله فذكر أن الله وإن كان قوياً جباراً فهو غفور رحيم .
وكان حبيبته رأت فيه العزم والبأس فأجابت سؤاله في أن يأتيها ، إذا جمع السامرون ، وفي أن يسقط عليها سقوط الندى حتى يبلل غصنها الرطيب ، فيهتز نشوان بفرحة اللقاء ، وبسمة الحياة .

وتتجه أبياته الثلاثة إلى مثل هذا المعنى .

ويذكر امرؤ القيس أن دار الحبيبة بعيدة المنال .

فهناك جماعة من الحفظة والأحراس يترصدون به الدوائر إذا اقترب من حماها ، ولكنه مع ذلك لا يبالي : فتراه يتجاوز هؤلاء الأحراس ، ويتخطى هذه الأهوال . وقد قدمنا أنه يسر الحبيبة ويرضيها أن تعرف أن حبيبها فارس مغوار ، يخوض

معامع الحروب فيبلى فيها البلاء الحسن ، وفي ذلك يقول عنتره من معلته .
 هلاً سألت الخيل يا ابنة مالك إن كنت جاهلة بما لم تعلمي
 يخبرك من شهد الواقعة أنتى أغشى الوغى وأعف عند المغنم
 كما يسيئها أن تعرف شيئاً عن جبنه وخوفه . ومن هذا ما فعل يزيد بن الطثيرة
 وقد مر بأعداء له ، فأرادوا به كيداً ، فنزل عن راحلته وأخذ يسبقهم عدواً ، فأدركوا
 الراحلة ، وعقروها ولم يدركوه هو فنجا ، وكأن يزيد يرى في هذا الهرب ما يجعل
 الغانيات لا يقبلن على مودته ، ويصر من ما كان بينه وبينهن من حب ووصال .

لأنهن يكرهن في الحبيب هذه الصفة الذميمة من الجبن والخوف . فقال :

ألا هل أتى ليلي على نأى دارها بأن لم أقاتل يوم صخر^(١) مذوداً^(٢)
 وأنى أسلمت الركاب فمقرت وقد كنت مقداما بسيفي مفردا
 فهل تصر من الغانيات مودتى إذا قيل قد هاب المنون فعرداً^(٣)

وقد يكون قريباً من هذا ما رواه الرواة من أنه كان لفتى من قريش جارية
 جميلة ، فأصابته فاقة ، فابتاعها منه الحجاج . وقدم عليه فتى من أقاربه ، وكان وسياً
 جميلاً . أخذت الفتاة تسارقه النظر . ففطن الحجاج ، ووهبها له ، فأخذها وانصرف
 وباتت معه ليلة ، وهربت قبل أن يطلع النهار .

عرف الحجاج ذلك ، فدعاها ، ليتبين أمرها ، فحدثته حديثاً طويلاً . حدثته
 أن الفتى القرشى سمع ذات مرة زئير الأسد ، فوثب واختلط سيفه ، وحمل عليه ،
 وأتى برأسه ، أما الفتى الذى اخترته لى وهو ابن عمك فقد غشى عليه حين وقعت فأرة
 من السقف ، ومكث زماناً طويلاً ، وأنا أُرش عليه الماء وهو لا يفيق .

قالت الفتاة للحجاج : وقد خفت أن يموت فتهمنى ، فهربت فرعا منك .
 فضحك الحجاج كثيراً ، وخلي سبيلها .

(١) اليوم الذى قاتله فيه أعداؤه . (٢) ذائداً : أى مدافعاً . (٣) هرب وجبن .

كما قدمنا أن المحبوب إذ يرى حبيبته يكون جريئاً مقداماً يغالب خصمه مهما كان شديد البأس قوى الشكيمة .

ونرى في هذين المثالين ما يؤيد ذلك :

كان توبة^(١) قد خرج إلى الشام فمر بينى عذرة فرأته بثينة فجعلت تنظر إليه فشق ذلك على جميل، ولم يكن قد أظهر حبه لها، وكان من أمرها أن تصارعا فصرعه جميل، وأن تناضلا^(٢) فنضله^(٣) جميل، وأن تسابقا فسبقه جميل. فقال توبة لجميل: يا هذا إنما تفعل هذا بريح هذه الجالسة ولكن اهبط بنا الوادى، قالوا: فنزلوا إلى الوادى فصرعه توبة، ونضله وسبقه .

وكان المجنون^(٤) — قيس بن الملوح — يتحدث إلى جماعة من نساء الحى وطال معهن الحديث حتى أقبل غلام شاب حسن الوجه فجلس إليهن وأقبلن عليه فى الحديث وكأنه غاظه أن يرى المجنون يتحدث إليهن، فقال له: هلم نتصارع أو تناضل. فقال له المجنون: إن شئت ذلك فقم إلى حيث لا تراهن ولا يرينك ثم ما شئت فافعل . وقال :

إذا ما انتضلنا فى الخلاء فضلتها وإن يرّم رشقاً عندها فهو ناضلى
ويفهم من سياق هذه الرواية أن المجنون لم يكن بعد قد علق قلبه حب لىلى، ولم تكن قد عرفت فيه هذا الهوى ولو كان لتغير الوضع، وأصبح المجنون لا يبالى، وأصبح الفتى هو الذى يطلب النضال بعيداً عن هؤلاء النساء .
وتحدثنا كتب الأدب عن أمثلة لألوان أخرى من التعذيب، أصابت فريقاً من رجال الحب وشعراء الغزل. ثم أمثلة لمن ماتوا صرعى الحب، واستشهدوا فى سبيله.

(٢) النضال : المباراة فى الرى .

(٤) الأغانى ج ٢ ص ٢٩

(١) الأغانى ج ١١ ص ٢٣٩

(٣) غلبه فى النضال .

الفصل الخامس

الصبر

وتلك هى الصفة الغالبة فى كل عمل يتطلب طموحاً وتضحية .

فالطموح يدعو المرء إلى أن يسعى جاهداً فى إدراك أوفى نصيب فى الحياة .
ويلقى المرء فى هذا الجهاد صنوفاً من المتاعب والآلام . فإذا احتملها وغالبها أصابه
النجاح والتوفيق . وذلك هو الرجل الجلد الصبور . وإذا لم يحتملها أصابته الخيبة
والإخفاق . وذلك هو الرجل الفزع الجزع .

إذن فالصبر من لوازم التضحية .

وقد بسطنا فيما مضى صفحات من طموح المحبين ، وبيننا ألوان التضحية التى دفعهم
إليها هذا الطموح .

وكل ما ذكرناه وبسطناه ينساق إلى أذهانتنا حين نتحدث عن الصبر فى الحب .
فأعمال الحب وما يجرى فيها من غصص وآلام . وأحوال المحبين وما نرى فيها
من متاعب — إذا لم يتسلح لها الأحباب بسلاح قوى من الصبر انفرط العقد قبل
أن يلتئم ، وانتثر الشمل قبل أن يجتمع ، ولم تصبح للحب هذه المنزلة الرفيعة ،
ولا للأحباب هذا الشأن الكريم فإنا نكون أكثر إعجاباً بالحب وأكثر تكريماً
لأصحابه حين نرى فى صفحات تاريخهم ألواناً من الطموح والتضحية ، وألواناً من الصبر
على المكاره واحتمال الأذى .

ونحن إذا طر بنا لهذا التاريخ فلا نتأثر بطرب لما فيه من معان كريمة وصفات طيبة .
وقل لى بربك ماذا يكون فى الحب من جمال ؟ إذا لم تنهر الآلام قلوب المحبين .
ماذا يكون فى الحب من خير ؟ إذا لم يكن فيه للأحباب محنة وبلاء .

وماذا يكون في الحب من فضل ؟ إذا تجرد الأحباب من فضيلة الصبر .

بل ماذا يكون الحب إذا لم يكن الصبر ؟ .

عرف الأحباب ما للصبر من قيمة وأثر فتسلحوا به في ميدان الحب ، حتى يذلّوا صغابه ويحتملوا أساءه . تراهم يتسلون به إذا حزن بهم كرب ، أو أصابهم مكروه . يتسلون به حين يفارقون الحبيب ، وحين يطول به النوى ، وحين يحفوف فيقسو ، وحين تحيط بهم عيون الوشاة الكاشحين .

وترى شعراء الغزل يفيضون في ذكر الصبر ، ومناغاة النفس به ، حتى تحتل الأذى .

وإليك بعض الأمثلة . وسنرى في الكتاب الثالث حيث نتحدث عن شئون الغزل وشجونه ما يكفي ويغنى .

تراهم يذمون الجزع ، ويحثون نفوسهم على الصبر .
يقول المجنون :

أتبكي على ليلي ونفسك باعدت مزارك من ليلي وشعبا كما معا
فما حسن أن تأتي الأمر طائعا وتجزع أن داعي الضباة أسمعها
ويقول :

الله يعلم أن النفس هالكة باليأس منك ولكني أعنيها^(١)
منيتك النفس حتى قد أضربها واستيقنت خلفا مما أمنيها
وساعة منك الهوها وإن قصرت أشهى إلى من الدنيا وما فيها
ويقول كثير :

فقلت لها يا عز كل مصيبة إذا وطفت يوما لها النفس ذلت
أسيتي بنا أو أحسنى لا ملومة لدينا ولا مقلية إن تقلت^(٢)

(١) أعنيها : أكلفها ما يشق عليها .

(٢) تبغضت .

ويقول قيس بن ذريح :

كأنى والله بفراق لبنى تهيم بفقد واحدٍها ثكولُ
ألا يا قلب ويحك كن جليداً فقد رحلت وفات بها الذميل^(١)
فإنك لا تطيق رجوع لبنى إذا رحلت وإن كثر العويل
ويقول العباس بن الأحنف :

تحمل عظيم الذنب من تحبه وإن كنت مظلوماً قتل أنا ظالم
فإنك إلا تغفر الذنب فى الهوى يفارقك من تهوى وأنتك راغم
ويقول جميل :

إنى عشية رُحْتُ وهى حزينة تشكو إلى صبايةً لصبور
وتقول بت عندى فديتك ليلة أشكو إليك فإن ذاك يسير
ويقول أبو الفضل الميكالى :

إن كنت تأنس بالحبيب وقربه فاصبر على حكم الرقيب وداره
إن الرقيب إذا صبرت لحكمه بؤاك^(٢) فى مثوى الحبيب وداره
فالجنون : يرى أن جزع الحب قبيح ذميم .

وهو : يعنى نفسه ، ويكلفها ما لا تطيق حتى تصبر فى سبيل الحب ، وتحتمل مصائبه وآلامه .

وكثير : يروض نفسه على احتمال المصائب حتى تذلل وتهون .

وقيس بن ذريح : يعيب على نفسه الجزع فإنه لا يغنى من الأمر شيئاً .

والعباس بن الأحنف : يدعو إلى أن يحتمل أذى الحبيب ، وإلى أن يبرئه من الذنوب ولو كان ظالماً جائراً ، وتهم أنفسنا بها ولو كنا أظهاراً أبرياء .

وجميل : يصف نفسه بالصبر حين رآها ، وحين أخذت تشكو إليه صباية الهوى .

(٢) أى بؤاك أى إسكنك .

(١) السير اللين .

وأبو الفضل الميكالى : بحث على مجارة الرقيب فإن ذلك يلين قلبه ولعلنا نظفر
من وراء هذا اللين بزيارة الحبيب .

وتراهم يذكرّون فى أشعارهم أن الحب محنة وابتلاء لا يفوز فيه إلا من أوتوا
حظاً كبيراً من الصبر والجلد فاحتملوا مرارته وآلامه .

أما هؤلاء الفرعون القانطون فإنهم لا ينعمون فى الحب بنصيب ، لأنهم يفرون
من ميدانه ، حين تبدو لهم صعابه وأهواله .
يقول المجنون :

قضاها لغيرى وابتلانى بحبها فهلا بشيء غير ليلى ابتلانىا
ويقول قيس بن ذريح :

وحدثتنى يا قلب أنك صابر على البين من لبنى فسوف تذوق
وقال ابن ماكولا :

علمتنى بهجرها الصبر عنها فهى مشكورة على التقبيح
وأرادت بذاك قبح صنيع فعملته فكان عين المليح

الفصل السادس

الوفاء

وما أجل الحب . لأن فيه الوفاء !
بل ما أجل الحياة . لأن فيها الوفاء !
فالوفاء خلق كريم . قلَّ أن يكون إلا بين الأصفياء والخلصاء .
وكم في الحياة من غدر ومكر ولؤم .
ما أجل وفاء العربي ! حين يجود لأخيه بما ملكت يداه ، وحين يصد عنه
العدوان والأذى .

بل ما أجل وفاءه ! حين يكون محباً مفرماً .
وسرى فيما نذكر أمثلة للوفاء بين المحبين .
تحل بهم ضروب من العذاب العنيف ولكنهم مع ذلك يوفون بالعهد . وتقسو
الحياة عليهم ، فتكبيهم بالرقباء والعيون والأعداء . ولكنهم مع ذلك يوفون بالعهد .
يبذل الوشاة الجهود الجبارة تارة مع الحبيب ، وطوراً مع الحبيبة ، حتى يفصموا
عرا هذا الحب . ولكن المحبين لا يبالون ويوفون بالعهد .
يجعل الحاكم دم الحبيب رخيصاً مباحاً ، إذا تعرض للحبيبة ، ومع ذلك فإن
قلبه لا يجور ولا يقسو .

ويزوجون المرأة ذا مال وجاه ، ولكنها تميل حيث مال الهوى ولا تتحول .

فأكرم بهذا الوفاء !

وأكرم بهؤلاء الأحباب !

فما ذا نرى من وفاء المجنون ؟

كان يحب ليلي . وقد أعياه هذا الحب وأضناه ، حتى كان حديث الناس جميعاً .
وهؤلاء نسوة جلسن إليه ، وأخذن يغرينه ، ويصورون مآله في صورة كريهة ألينة .
لعله بنأى عن حبها ، وينفر منها . ولكن هذا لم يزد إلا حُباً لها وسعياً إليها .
قالت النسوة : ما الذى دعاك إلى أن أحلت بنفسك ما ترى فى هوى ليلي ،
وإنما هى امرأة من النساء ! هل لك فى أن تصرف هواك عنها إلى إحدانا فنساعفك
ونجزيك بهواك ، ويرجع إليك ما عَزَبَ من عقلك وجسمك !
قال المجنون : لو قد رت على صرف الهوى إليكن ، لصرفته عنها ، وعن كل
أحد بعدها .

وعشت فى الناس سوياً مستريحاً .

قالت النسوة : ما أعجبك منها ؟

قال المجنون : كل شئ رأيت وشاهدته وسمعت منها أعجبنى ، والله مارأيت شيئاً
منها قط إلا كان فى عيني حسناً وقلبي علقاً ، ولقد جهدت أن يفتح منها عندى شئ
أو يسمع أو يعاب ، لأسلو عنها فلم أجده .
قال المجنون

بيضاء خالصة البياض كأنها قر توسط جُنَحَ ليل مُبرِدِ

موسومة بالحسن ذات حواسد إن الجمال مظنة للحسد

وهذا أبوه يلجأ إلى الخيلة حتى يقع بينهما ، ويعكر حبه لها ، لعله ينفر منها ،
ويعرض عنها ، ولكن هيهات !

سأل رجلاً من الطائف أن يمر بالمجنون ويخبره أنه لقي ليلي وجلس إليها وتحدث
معه ، وجر الحديث إلى أنها أخذت تذكر المجنون بالسوء وأنه يكذب عليها ، ويشهرها
بفعله ، وأنها ما اجتمعت به قط كما كان يقول .

فعل الرجل ذلك وكان فطناً لبقاً فى التحدث إلى المجنون حتى استرعى سمعه ، وأثار

وعيه ، وأخذ يسرد له من صفاتها ما جعل المجنون يصدق قوله ، ولما أخبره بأنها تنقص سيرته ، وتهجن عمله ، نأى عنه جانباً وقال غير مكترث بما حكى :

إذا هبَّت الريح الشَّمال فأنما جواى بما تُهدى إلى جنوبها
قريبةٌ عهدٍ بالحبيب وإنما هوى كل نفس حيث كان حبيبها
وحسبُ الليالى أن طرحتك مطرَحاً بدارِ قَلَى تَمسى وأنت غريبها
حلال ليلي شتمنا وانتقاصنا هنيئاً ومغفور ليلي ذنوبها
وهل ترى بعد ذلك وفاء ؟

يبلى جسمه فى سبيل الحب ويهده المرض والإعياء وهو لا يبالي . ثم يأخذونه بالحيلة وبالوعد المعسول والوعيد المرير — فلا يصل هذا كله — وهو جد كثير — إلى قلبه ولا يثنى من عزمه ، بل يزداد كلفاً بحبيبة قلبه ، وهوى نفسه .

ومن وفاء جميل :

كان جميل يحب بثينة ويسعى لرؤيتها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، وذهب يوماً ليلقاها ولكن أهلها وقد علموا بقدومه منعوها أن تلتقى جميلاً . فأنصرف حزينا كئيبا ، وعلم نساء الحى بذلك فأخذن يلمنه ، ويقرعنه ، ويفرينه بأنفسهن ، وفيهن من هى أحسن منها فتنة وجمالا ، ولكن جميلا لا يأبه لهن ، لأن حبه بثينة يشغله عن أية فتاة أخرى ، مهما كان حظها من الحسن والجمال .

وضاقت الدنيا بوجه جميل ماذا يفعل ؟ وقد أهدر الوالى دمه .

كان يصعد بالليل على أكمة من رمل يتنسم الريح من حى بثينة ، لعل هذه الريح تحمل إليه نسمة منها ، فيعلل نفسه بها . وفى ذلك يقول :

أيا ريح الشمال أما ترينى أهيم وأنى بادی النحول
هبي لى نسمة من ریح بَثْنِ ومنى بالهبوب إلى جميل
وقولى يا بثينة حسبُ نفسى قليلك أو أقل من القليل

وهذا أبوه وقد شكّا إليه أهل بئينة فعل جميل من زيارتها والشفف بها ، يلومه ويعنفه ويفريه ، ويزين له فراقها ، ولكن قلب جميل يهوى بئينة ، فلا يسلو عنها ولا يتحول .

قال أبوه : يا بني حتى متى أنت عمه في ضلالك لا تأنف من أن تتعلق بذات بعّل يخلو بها وينكحها ، وأنت عنها بمعزل . ثم تقوم من تحته إليك فتفرك بخداعها ، وتريك الصفاء والمودة ، وهي مضمرة لبعلها ما تضمره الحرّة لمن ملكها فيكون قولها لك تعليلاً وغروراً ، فإذا انصرفت عنها عادت إلى بعلها على حالتها البتذلة . إن هذا للنلّ وضيم ! ما أعرف أخيب سهماً ، ولا أضيع عمراً منك ! فأنشدك الله إلا كفت وتأمّلت أمرك فإنك تعلم أن ما قلته حق ولو كان إليها سبيل لبذلت ما أملكه فيها ولكن هذا أمر قد فات واستبدّ به من قدر له . وفي النساء عوض .

قال جميل :

الرأى ما رأيت والقول كما قلت . فهل رأيت قبلي أحداً قدر أن يدفع عن قلبه هواه ، أو ملك أن يسلى نفسه ، أو استطاع أن يدفع ما قضى عليه ؟ ! والله لو قدرت أن أحمو ذكرها من قلبي ، أو أزيل شخصها من عيني لفعلت ، ولكن لا سبيل إلى ذلك . قال ذلك جميل ، وأخذ يبكي ، فبكى أبوه ومن حضر ، جزعاً لما رأوا منه .

وفي ذلك يقول جميل :

ألا من قلب لا يمل فيذهلُ أرقق فالتعزّي عن بئينة أجهل
سلا كل ذي ودٍ علمت مكانه وأنتَ بها حتى المات مؤكل
فها هكذا أحبيت من كان قبلها ولا هكذا فيما مضى كنت تفعل
وما أجهل وفاء قيس بن ذريح !

قالوا إنه تزوج لبني ، وعاشا في هذا الزواج سعيدين ، ناعمي البال ، ولكن عبوس الأيام أخذ يدنو من هذا العيش رويداً رويداً ، وكانت أم قيس سبيلاً

إلى ذاك العبوس . إذ أنها أحست حين تزوج ولدها قيس أن تضاعف بره لها ، فلا بد أن تسعى للفرقة بينه وبين من كانت سبباً في انقطاع بره ، وهى لبنى ، التى شغف بها حباً ، حتى شغلته عن أقرب الناس إليه ، وهى أمه التى حملته فى بطنها تسعة أشهر . وكان أن مرض قيس ، فوجدت أمه أن الفرصة سانحة ، لو مات قيس فى مرضه هذا ، ولم يترك ولداً ، ماذا يكون الأمر فى هذا المال الذى سيرثه عن أبيه ، وهو جم كثير ؟ إذن من الخير أن يكون لقيس خلف ، يرث هذا المال . ويؤول إليه هذا التراث ، وأين هذا الخلف ؟ وهو متزوج من لبنى ، التى حرم منها الولد . تلك هى الحيلة الدهياء التى تصل بها إلى الفرقة بين قيس ولبنى . وتحدثت أم قيس إلى أبيه فى هذا الشأن ، وألحت عليه ، حتى إذا اجتمع قومه دعاه وقال له :

يا قيس إنك اعتلت هذه العلة فحقت عليك ولا ولد لك ، ولا لى سواك . وهذه المرأة ليست بولود فتزوج إحدى بنات عمك لعل الله أن يهب لك ولداً ، تقر به عينك وأعينا .

فقال قيس :

لست متزوجاً غيرها أبداً .

فقال له أبوه :

فإن فى مالى سعة فتسر بالإماء .

قال :

ولا أسوءها بشيء أبداً والله .

قال أبوه :

فأبى أقسم عليك إلا طلقها .

فأبى ، وقال :

الموت والله على أسهل من ذلك . ولكنى أخيرك خصلة من ثلاث خصال :

قال : وما هي ؟

قال : تتزوج أنت فلعل الله أن يرزقك ولداً غيرى .

قال : فما فى فضلة لذلك .

قال : فدعنى أرتحل عنك بأهلى ، واصنع ما كنت صانعاً لو مت فى عاتى هذه .

قال : ولا هذه .

قال : فادع لبنى عندك وأرتحل عنك ، فلعلى أسلوها فإنى ما أحب بعد أن

تكون نفسى طيبة أنها فى خيالى .

قال : لا أرضى أو أطلتها . وحلف لا يكرهه سقف بيت أبداً حتى يطلق لبنى ،

وقد هجره أبواه حتى يطلق لبنى ، ودام هذا الهجر طويلاً ، وقيل إنه بلغ عشر سنين ،

وكان أن طلق قيس لبنى مرغماً كارهاً .

ولما قيل له : هذه لبنى ترتحل الليلة أو غداً ، جزع جزعا شديداً ، وسقط مغشياً

عليه ، لا يعقل ، ثم أفاق وهو يقول :

حذار الذى قد كان أو هو كان

فراق حبيب لم بين وهو بان

بكفيك إلا أن ما حان حائن

وإنى لمفّن دمع عيني بالبكا

وقالوا غداً أو بعد ذاك بليلة

وما كنت أخشى أن تكون منيتى

ويقول :

بخير فلا تقدم عليها وطلق

واقربت عين الشامت المتخلق^(١)

ومحلت فى رضوانها كل موبق^(٢)

أبيت على أثباج موج مفرق

يقولون لبنى فتنة كنت قبلها

فطاوعت أعدائى وعاصيت ناصحى

وددت وبيت الله أنى عصيتهم

وكلفت خوض البحر والبحر زاجر

(٢) مهلك .

(١) الذى يتكلف ما ليس فى خلقه .

كأنى أرى الناس الحبين بعدها عصارة ماء الحنظل المتفلق
فتفكر عيني بعدها كل منظر ويكره سمى بعدها كل منطق
وكان يذكرها ، فتثير في نفسه الذكرى الآلام والأسقام . وكان يأتي موضع
خبائها ويتمرغ فيه ويبكى ويقول :

بتّ والهمّ يا لبني ضجيجي وجرت منذ نأيت عني دموعي
وتنفست إذ ذكرك حتى زالت اليوم عن فؤادي ضلوعي
أتناساك كي يُربغ^(١) فؤادي ثم يشتد عند ذاك ولوعي
يا لبني فدتك نفسي وأهلي هل لدهر مضى لنا من رجوع
وكان قيس يلوم نفسه على إطاعة أبيه في طلاق لبني . ويقول :

وما كان عليّ لو اعتزلته وأقت في حياها أو في بوادي العرب ، أو عصيته فلم
أطعه . هذه جنابتي على نفسي فلا لوم على أحد . وهأنذا ميت مما فعلته . فمن يرد روعي
إلى ؟ وهل لي سبيل إلى لبني بعد الطلاق ؟

وهذه أم قيس ترسل إليه فتيات من قومه . لعلهن فائنات في الحسن والجمال .
ويذهب إليه هؤلاء الفتيات ، يعرضن عليه ما وهبن الله من فتنة وزينة ، ويتحدثن
إليه حديث اللهو والدعابة والمرح ، ولكنه لا يلتقي إليهن وعيه ، ولا يصغى إلى مواطن
الظرف في حديثهن وفي مظهرهن فهو واجم ، مطرق ، حزين ، كسير النفس . حتى
إذا أعيتهن الحيلة ، ولم يظفرون منه بطائل ، أخذن يعبن لبني ، ويسخرن من كلفه
بها ، وهي لا تفوقهن في الحسن والجمال . فلما أطلن أقبل عليهن وقال :

يقرّ بعيني قريها ويزيدني بها كلفاً من كان عندي يعيها
وكم قائل قد قال تبّ فعصيته وتلك لعمري توبة لا أتوبها
فيا نفس صبراً لست والله فاعلمي بأول نفس غاب عنها حبيبها

وكان هؤلاء النسوة قرآن في هذا الشعر لوناً من ألوان وفاء قيس ، وأنه لا ينفك عن حب لبني مها كانت المغريات ، فيئسن من هجره لها ، وذهبن إلى أمه يعرضن عليها ، أنهن أخفقن في الرسالة التي تعدّين لها وهي القطيعة أو الفراق بين قيس ولبنى . وانظر ماذا فعل الوفاء بين قيس ولبنى ؟ .

مرض قيس ، ولعله مرض الحب الذي أضناه ، وأعياه وأهلكه . وظن أبوه أن الفرصة سانحة لصرفه عن لبنى . فدرس إليه فتيات الحى ، وكن جميلات بارعات فى الجمال ودخل إليه طبيب ليداويه ، وكان الفتيات يحادثنه ، ويطلن السؤال عن سبب علته . أما سبب العلة فقد أبان لهن ولنا فى هذه الأبيات :

عِيدَ قَيْسٍ مِنْ حَبِّ لَبْنَى وَلَبْنَى داء قيس والحب داء شديد
وإذا عادنى العوائد يوما قالت العين لا أرى من أريد
ليت لبنى تعودنى ثم أقضى إنها لا تعود فيمن يعود
ويجّ قيس لقد تضمن منها داء خبل فالقلب منه عميد

أعرفت أنه داء الحب ، والحب داء شديد ! ومن شأن المريض أن يجد فى عيادة العواد ما يخفف عنه الهم والحزن . ولكن عواد قيس لم يكونوا سبباً من أسباب التخفيف والترويح ، لأنه لا يرى فيهم أو فيهن من يريد . وليته وجد لبنى تعوده . إذن خلف عنه الألم ، وزال عنه المرض ، ليته يجدها ، ولو قضى نجه بعد ذلك لقضاه وهو راض مطمئن ، لأنه رآها ، ولأنه أشبع بصره من محياها ، ولأنه روى قلبه من حديثها ونجواها . وهل تتحقق الآمال ؟ لا . فلا لبنى تعوده ، ولا هو بناج مما يترتب على هجرها إياه من مصائب ونكبات .

وتدبر معنى هذه الأبيات :

تقول ليلي الأخيلية :

وذى حاجة قلنا له لا نبج بها فليس إليها ما حيت سبيل

لنا صاحبٌ لا ينبغي أن نخونه وأنت لأخرى صاحبٌ و خليل
ويقول الصَّمَّةُ القشيري :

إذا نأت لم تفارقني علاقتها وإن دنت فصدود العاتب الزّاري
فخال عيني من يوميك واحدة تبكي لفرط صدود أو نوى دار
ويقول داود بن سلم :

وكم لام فيها من أخ ذى نصيحة فقلت له أقصر فغير مصيب
أتأمر إنساناً بفرقة قلبه أتصلح أجسام بغير قلوب
ويقول بشار :

يا عبد حي عن قريب وتأمل عین الرقيب
وارعَى ودادى غائباً فلقد رعيتك فى المغيب
أشكو إليك وإنما يشكو الحب إلى الحبيب
غرضى إليك من الهوى غرض المريض إلى الطبيب
ويقول ابن الدمينه :

لك الله إني واصل ما وصلتنى بما أوليتهــــــــــــــــــــنى ومثيب
فلا تتركى نفسى شعاعاً فإنها من الوجد قد كادت عليك تذوب
وإني لأستحييك حتى كأنما على بظهر الغيب منك رقيب
ويقول سعد بن مطرّف (وكان يهوى ابنة عم يقال لها سعاد) :

أغار على طرفى لها فكأننى إذا رام طرفى غيرها لست أبصر
وأحذر أن تصنى إذا بحت بالهوى فأكتمها جهدى هواى وأستر
وكان من سعاد أن كرهت أن ينتشر بين الناس خبر حبه لها ، فهجرته فكتب لها :
مِتْ شوقاً وكدتُ أهْلِكُ وجداً حين أبْدَى الحبيب هجراً وصدّاً
بأبى من إذا دنوت إليه زادنى فى القرب منه نأياً وبعداً

لا وحييه لا وحق هواء ما تناسيته ولا خنت عهدا
حاش لله أن أكون خليفا من هواء وقد تقطعت وجدا
كيف لا . كيف عن هواء سُلوَى وهو شمس الضحى إذا ما تبدى

ويقول ابن الأعرابي :

لقد علمت سمره أن حديثها نجيع كما ماء السماء نجيع^(١)
إذا أمرتني العاذلات بصرمها هفت كبد عما يقلن صديع
وكيف أطيع العاذلات وحبها يؤرقني والعاذلات مجوع
ويقول الحسين بن مطير :

فيا عجبا للناس يستشرفوني^(٢) كأن لم يروا بعدى محبا ولا قبلى
يقولون لى أصرم يرجع العقل كله وصرم حبيب النفس أذهب للعقل
ويا عجبا من حب من هو قاتلى كأنى أجزيه المودة من قتلى^(٣)
ومن بينات الحب أن كان أهلها أحب إلى قلبى وعينى من أهلى
ولعلك حين تتدبر هذه الأبيات تعرف فيها ألوانا من الوفاء ، يحدثك عنها الشعراء حديثا شائقا جذابا .

فليسلى الأخيلية مثال الوفاء لمن تحب ، وتعلن فى صراحة أنه لا ينبغي أن تخون هذا الحبيب ، ولو سولت لإنسان نفسه أن يبنى بها حاجة ، فإنها لا تحقق له هوى نفسه ، فهى لا ترضى أن تخون حبيبها ، ولا ترضى لهذا الإنسان ، الذى تسول له نفسه السوء أن يخون حبيبته إذا هى حققت له ما يريد .

والصمة القشيري مثال الوفاء لمن يحب . فإذا نأت فإنه يذكرها ، ويرعى ودها ،

(١) يقال ماء نجيع : حلوصى . . (٢) استشرفه : نظر إليه بصره .

(٣) أى تعجب من حى لمن يقتلنى كأن مودتى له جزاء لقتله لى .

ولا تفارقه علاقتها . وإن دنت فإنه يحتمل صدها ، وهجرها وتجنبها عليه ، واتهامها له ، وذلك إخلاص منه ووفاء .

وداود بن سلم : لا يطيع فيها العواذل ، وهم يريدون أن تكون الفرقة بينهما ، وأن تقوم الخصومة بين الحبيب والحبيبة ، حتى لا يكون ود ، ولا يكون وصال . أما هو فيسخر من هؤلاء الناس ، ولا يصفى بقلبه إلى ما يشتهون ، وكيف له ذلك ؟ وهو جسم والحبيبة قلبه ، وإن تصلح أجسام بغير قلوب .

وبشار : يحمله الوفاء على أن يرعاها في الغيب ، كما يحمله على أن يطلب منها ذلك تأكيداً لما بينهما من حب وهيام ، كما يدعو الوفاء إلى أن يشكو إليها ما في خبيثة نفسه ، وإنما يشكو المحب إلى الحبيب . ثم يختم هذه الأبيات بكثير من التذلل والتوسل فهو مريض بحبها ، وهو مُعنى بأوصاب الحب وآلامه ، وحاجته إليها في علاج ما به كحاجة المريض إلى الطبيب ، أو كحاجة من يشرف على الهلاك إلى من يأخذ بيده ، ويعيد إليه أمل الحياة ، وبسمة الوجود .

وابن الدمينه : وفى إلى حبيبته ، فهو يذكرها ، ويثنى عليها ، ويتمدح فعالها ، مهما تجنت وظلمت ، ثم هو يضرع إليها ، حتى ترد إليه شيئاً من الأمن والطمأنينة ، وترد إليه شيئاً من الهدوء والاستقرار . ثم يحدثنا عن نوع من الوفاء ، جميل محبوب ، ذلك هو الوفاء الذى لا يكون رياء ونفاقاً ، بل يكون صادراً من القلب ، ومن القلب الحى البرىء ، وذلك هو الوفاء الذى يجعل المحب يرعى ود الحبيبة فى الغياب . وهذا هو قوله :

وإني لأستحييك حتى كأنما على بظهر الغيب منك رقيب
وما أجمل وفاء سعد بن مطرف !

هذا طرفه الذى يبصر به ويرى ، يريد أن يجعله خالصاً لمحبوته ، يراها وحدها دون سائر الناس ، أو يتمثلها وحدها فى كل ما يرى ، حتى كأنه إذا رام النظر إلى غيرها

فإنه يفقد حاسة الرؤية والإبصار ، أليس ذلك وفاء ؟ بلى . وليس مثله وفاء .
وفي الأبيات الأخرى يظهر مزيد حبه لها ، وكلفه بها ، ويقسم بحبها ، وهواها
— وإنه لقسم لو تعلمون عظيم — أنه ما نسيها ، ولا خان عهدها . ثم هو بعد ذلك
يعتبرها المثل الأعلى ، يعتبرها الشمس في وقت إشراقها ولعانها ، تضيء العالم ، وتنير
ظلمات الوجود .

ويعلن ابن الأعرابي ، كما يعلن الحسين بن مطير أنهما لا يطيعان العواذل ،
وهم يريدون الفرقة بين الحب والحبيب . ويصور ابن الأعرابي أن هذه الرغبة
من العواذل لا تلقى تأييداً فحسب ، بل تكون سبباً في المزيد من الوصال ، وفي المزيد
من الشوق والحنين إليها .

كما يصور الحسين بن مطير أن تحقيق هذه الرغبة من العواذل يودي إلى الهلاك ،
ويذهب بعقله وفؤاده ، ويزيد على ذلك أن حبيبته تقتله بصددها ودلالها ، وتجنّبها ،
ورغم ذلك فإنه يحبها ، وهو في عجب من هذا ، كيف يحب من يقتله ، وكيف يكون
جزاء القاتل مودة ، وحناناً ورحمة ؟ كما يزيد على ذلك أن وفاءه لها يجعله يحب أهلها ،
وهم الرقباء عليها ، وهم العواذل بينه وبينها ! .

هذه صور من ألوان الشعر ، تحدثك عن وفاء الشعراء الغزلين ، وتريك فوق
ذلك كثيراً من المعاني الجميلة ، التي تربط بين قلوب المحبين ، فيظهر فيها الحب الصافي
والإخلاص الجميل .

هذا الذي قدمت من أمثلة عن سعة الحيلة ، ورقة الحس ، والتضحية والطموح
والصبر ، والوفاء ، وما يتصل بهذه الصفات الطيبة — يعطينا صورة صادقة عن خلق
العربي ، يحملها إلينا الشعر ، في ضرب من ضروبه وهو الغزل .
وسواء كانت هذه الصفات من خلق أي عربي ، أو كانت من خلق العربي

الغرم المقيم . فما لاشك فيه أن كثيراً من العرب يتحلون بكثير من هذه الصفات فقد عرف عن العربي في الغالب أنه صبور ، وأنه وفى ، وأنه طموح .

ولكن مما لاشك فيه أيضاً أن العربي المحب أكثر صبراً وأكثر وفاء ، وأكثر طموحاً ، وأكثر رقة في الحس ، فوق ما يمتاز به من صفات أخرى كركة الحس وسعة الحيلة ، وحلاوة الحديث . وبعبارة أدق فإن الشعر العربي حين يتحدث عن الغزلين وأحوالهم ، وحين تتلخص في هذا الحديث صورة عن أخلاقهم ، فإننا لانعدو هذه الأمثلة التي بسطنا ذكرها من قبل .

وإذا كان الأمر كذلك فمن الواجب علينا نحن القارئین ، ونحن الناشئين أن نتدبر شعر الغزل ، وأن نتفهم في معانيه ومراميه ، لتلك الصورة الهائلة المأجنة ، التي يجري وراءها البسطاء والغفلاء ، بل تلك الصورة الطيبة ، التي تشع علينا قبساً من الخلق الكريم ، ومن التهذيب الصحيح .

إن من الجهل والغفلة حقاً أن يفهم بعض الناس أن الغزل عبث ولهو وتسلية ، ولو تدبروا الأمر قليلاً لعرفوا أن الغزل أداة صالحة للتربية والتهذيب .

فعلينا إذن أن نقرأ هذه المواقف الرائعة من الغزل ، وعلينا إذن أن ندرس هذه المعاني الرقيقة في شعر الغزل ، ونحن إن فعلنا ذلك عن صدق ومعرفة ، وطهارة قلب نكون بلا شك قد أفدنا عقولنا من طريق ما توحى من معان ، وأفكار ، وآراء ترتفع بالعقل الإنساني إلى درجات من الرقي ، والسعة ، والتوثب . ونكون بلا شك قد أفدنا نفوسنا من طريق ما توحى من مثل صالحة للخلق الكريم ، وما أحوجنا إلى هذه المثل الصالحة من تضحية ، وطموح ، وصبر ، ووفاء ! .

وجميل بالغزل أن يدفع الناس إلى التحلى بهذه الصفات .
فالطموح يدفع صاحبه إلى أن يتحلّى بالفضائل ، ويتخلّى عن الرذائل .

لا في دائرة الغزل فحسب ، بل في كل قول يقوله ، وفي كل عمل يعمله . لأن له نهجاً سليماً ، يخشى إذا تجاوزه . وتخطاه أن تنتقصه حبيبة قلبه وهواه . فهو دائماً يتسامى في أخلاقه وأعماله ، حتى يكون قريباً من وصلها ورضاهها .

والعقل سلاح المرء في الحياة . ينفذ به بين مسالكها إلى حيث تكون السلامة والعافية لأنه عرف كيف يقود نفسه في ظلمات الحب ، ومعامع الهوى . وهي كثيرة الغيوم ، كثيرة الأشواك ، كثيرة الأخطار . عرف كيف يصل بثاقب رأيه ، ونافذ بصيرته إلى تحقيق ما يريد ويبقى .

والعاطفة الرقيقة تدفع صاحبها إلى أن يكون مثال العطف ، والشفقة ، والرحمة . لأنه عرف في الغزل مرارة الحرمان ، وكره هذا النوع من البخل والهجر ، فأصبح لديه كل شيء يمثاله كريها ذمياً .

يجب الحرية لكل كائن حي . لأنه عرف نعمة الحرية في الغزل . يجب أن يكون عطوفاً رءوفاً ، شقيقاً محسناً . لأنه عرف لذة العطف في الوصل واللقاء .

يجب أن يكون هادئاً ، ليناً ، وادعاً ، حلواً الحديث ، رقيق القول ، غرداً ، طروباً . لأنه عرف كيف تصل الكلمة الطيبة إلى القلب الطيب . لأنه عرف بالرفقة كيف ينال رضا الحبيب . ولأنه عرف كيف تكون اللذة ، ويكون الطرب حين الوصل ، وحين يزوره الطيف ، وحين النجوى .

والصبر يدفع صاحبه إلى احتمال صروف الزمن ، وما أكثر آلامها ! لأنه عرف في الغزل صنوفاً من الحن فاحتملها ، ولأنه تغلب على صعاب الحب ، واحتمل في سبيل ذلك ألواناً من المشقة والعناء . ولأنه تجلّد وصابر ، حتى وصل إلى تحقيق مبتغاه .

والوفاء يحمل صاحبه إلى أن يكون وفياً إلى أسرته ، وإلى وطنه ، وإلى المجتمع الإنساني .

لأنه عرف في الغزل كيف يكون الوفاء جميلاً ، وكيف يكون القدر ذمياً
فخرى به أن يتبع كل ماهو حسن جميل ، وأن يطرح كل ماهو بغيض ذميم .
وتلك هي الصفات الكريمة التي إذا تحلى بها الإنسان كان مثال الكمال والسمو .
وتلك هي الصفات التي عرفناها في الغزل بين رجاله ، وفي شعره .
فلم لا نتحلى بها ؟ ولا نهتدى بهديها ؟
أو بعبارة أخرى :
لم لا نقرأ شعر الغزل ؟ ولم لا نتدارسه ؟ حتى نطفر منه بهذه الحلية ، وبهذا الهدى .
إننا حين نقرأ الغزل ، وحين نستخلص منه هذا الهدى الكريم ، من الطموح ،
والتضحية ، والعقل ، والعاطفة ، والصبر والوفاء نكون قد جنينا أطيب الثمرات .
وذلك هو أثر الغزل .

البناء الفني

تطور الغزل

الغزل لون من ألوان الحياة ، كأي فن من الفنون ، ينشأ وينمو ، ويتعرع ، ويتأثر بما حوله من أسباب الحياة ، فيقوى أو يضعف ، ويزدهر أو يذبل .

فإذا أصابه من أسباب الحياة ، ما كان عوناً له نما وانتشر ، وصال فيه الشاعر وجمال ، وعذبت ألفاظه ، ورقت معانيه ، وتداوله كثير من الشعراء ، واكتفى به بعضهم دون أبواب الشعر الأخرى . فجدوا فيه وتفننوا ، وأبدعوا وأتقنوا ، وجازاهم الملوك والحكام بألوان من البذل والعطاء ، وجعلوا من قصورهم ومن مجالسهم محافل سمر ، وأدب ، يتناشدون فيها ما تجود به قرائح الشعراء ، وكان من جمهرة الناس إعجاب بهم ، ودراسة لشعرهم ، وإشادة بما يحمله هذا الشعر من وصف الجمال ، وأحاديث الهوى . وإذا فقد هذه الأسباب ذبل واضمححل ، ورغب عنه الشعراء .

تطور الغزل في نواح كثيرة :

تطور من حيث النوع :

إذ وجد بجانب الغزل بالمرأة نوع آخر هو الغزل بالذكر .

وتطور من حيث الأقسام :

إذ وجد بجانب الغزل الصناعي الغزل العذري ، والغزل الماجن .

وتطور من حيث القلة والكثرة ، كما تطور من حيث المعنى والأسلوب .

وذلك ما أئنه في الفصول الآتية :

أما الأسباب التي دعت إلى هذا التطور فهي دواعي الغزل التي أشرنا إليها من قبل .

الفصل الأول

الغزل بالمذكر

والغزل كما قدمنا يتصل بالمرأة ، يصف الشعر حسنها ، ويتحدث عن جمالها .
ويذكر حال الحب نحوها ، من شغف بها ، وتودد إليها .

هذا هو الغزل في معناه العام الذي جرى به العرف من قديم الزمن ولكن أصابه في هذه الناحية تطور ، سواء كان هذا التطور حسناً أو قبيحاً ، كريماً أو غير كريم ، ذلك هو الغزل بالمذكر ، وفي طائفة من الشعر العربي تقرأ هذا النوع من الغزل .
يصف الشاعر جمال الفتى ، كما يصف الشاعر الآخر جمال الفتاة . ويصف شغفه به ، وميله إليه كما يصف الشاعر الآخر شغفه بالمرأة وميله إليها .

نشأ هذا الحب من الغزل أيام الحكم العباسي حين خالط العرب الفرس ، ونفذت الحضارة الفارسية إلى حياة العرب ، فبعثت فيها ألواناً من اللهو والمجون ، ووصل بهم السرف في هذه النواحي إلى هذا التطور من الغزل بالمذكر ، فأصبح غير بغيض إلى طائفة من الشعراء أن يكون غزلهم بالمذكر ، وأصبح غير بغيض إلى جمهرة من الناس أن يصفوا إلى هذا الشعر ، وأن يتذوقوا مافيه من روعة وجمال .
وهذه أمثلة من غزل الشعراء بالمذكر :

يقول أبو نواس في غلام اسمه رَحْمَة :

أحببت من شعر بشار لحبكم	يتقاً كلفت به من شعر بشار
يارحمة الله حلّ في منازلنا	وجاورينا فدتك النفس من جارٍ
إذا ابتهلت سألت الله رحمة	كنيت عنك وما يعدوك إضماري

ويقول البحتري في غلام اسمه « نسيم » :

دعا عبرتي تجرى على الجور والقصد أظن نسيما قارف الهم من بعدى
خلا ناظري من طيفه بعد شخصه فيا عجباً للدهر فقد على فقد
ويقول حماد عجزد في غلام اسمه « بشر » :

أخى كف عن لومى فإنك لا تدرى بما فعل الحب المبرح فى صدرى
أخى إن تلحانى وقلبك فارغ وقلبي مشغول الجوانح بالفكر
أخى إن دأى ليس عندى دواؤه ولكن دوائى عند قلب أبى بشر
دوائى ودأى عند من لو رأيت يقلب عينيه لأقصر عن زجرى
فأقسم لو أصبحت فى لوعة الهوى لأقصر عن لومى وأطنبت فى عذرى
ولكن بلائى منك أنك ناصح وأنت لا تدرى بأنك لا تدرى

ويقول عبد الله بن المعتز فى غلام اسمه « نشوان » يترضاه بعد هجر وجفوة :

بأبى أنت قد تما ديت فى الهجر والغضب
واضطبارى على صدو دك يوماً من العجب
ليس لى إن فقدت وج مك فى العيش من أرب
رحم الله من أعا ن على الصلح واحتسب

ويقول الحسين بن الضحاك فى غلام اسمه « يسر » :

سائل بطيفك عن ليلى وعن سهرى وعن تتابع أنفاسى وعن فكري
لم يخل قلبى من ذكراك إذ نظرت عيني إليك على صحوى ولا سكرى
سقيماً ليوم سروى إذ تنازعنى صفو المدامة بين الأنس والخمر
وفضل كأسك يأتينى فأشربه جهراً وتشرب كأسى غير مستر
وكيف أشمِّله لثمى وألزمه نحري وترفعه كفى إلى بصرى

فليت مدة يومى إذ مضى سلفاً كانت ومدة أيامى على قَدَر
حتى إذا ما انطوت عنا بشاشته صرنا جميعاً كذا جارين فى الحُفَر

ويقول الفتح بن خاقان بن احمد فى غلام اسمه « شاهك » :

أشاهك لىلى مذ هجرت طويل وعينى دما بعد الدموع تسيل
وبى منك والرحمن مالا أطيعه وليس إلى شكوى إليك سبيل
أشاهك لو يجزى الحب بوده جزيت ولكن الوفاء قليل
ويقول^(١) أمية بن عبد العزيز بن أبى الصلت فى صبي مليح رآه فى أحد
متنزهات مصر :

منفرد بالحسن والظرف بحث لديه بالذى أخفى
لهفى شكوت وهو من تيهه فى غفلة عنى وعن لهفى
قد أزهر الورد على خده لكنه ممتنع القطف
كأنما الخال به نقطة قد قطرت من كحل الطرف

ويقول^(٢) اسماعيل بن اسحق الأزدي فى غلام اسمه « ابن البرى » :

الحاظه ترجان منطقته ووجهه نزهة لعاشقه
هذه الظرف والكمال فما يمر عيب على طرائقه
قد كثرت قالة العباد فما تسمع إلا سبحان خالقه

ويقول^(٣) الحسن بن وهب فى غلام اسمه « شفيع » خادم التوكل — وقد أصابه
ما جعله يحتجم :—

ليت شعرى يا أملح الناس عندى هل تعالجت بالحجامة بعدى
قد كتمت الهوى بمبلغ جهدى ققشا منه بعض ما كنت أبدي
وخلمت العذار فليعلم النا سُ بأنى إليك أضفى يؤدى

(١) معجم الأدباء ج ٧ ص ٦٧ (٢) معجم الأدباء ج ٦ ص ١٣٧ (٣) المقفد الفريد ج ٨ ص ١١٣

من عَذِرِي من مقلتيك ومن إشد سراق وجه من حول حمرة خد
ويقول محمد بن أحمد الكاتب في غلام يكنى « أبا سعد » : —
حاربتني الأيام فيك أبا — مد بسيف الهوى وسهم البعاد
ليس لي مفزع سوى عبرات من جفون مكحولة بالسهاد
في سهادي لطول أنسى بذكرها لك أعتياض من الكرى والرقاد
وكان ابن داود يهوى غلاما اسمه « محمد بن جامع » هوى أفضى به إلى التلف .
فدخل عليه أحد رفاقه ، وقال له : يا سيدي ما بك ؟ فقال : حب من تعلم أورثني
ما ترى . فقلت : ما يمنعك من الاستمتاع به مع القدرة عليه . فقال :
الاستمتاع نوعان : محظور ومباح ، أما المحظور فمعاذ الله منه ، وأما المباح فهو
الذي صيرني إلى ما ترى .

ولعلك ترى أن هذا الغزل بالذكر لا يختلف عن الغزل العام ، في كثير
من ألفاظه ومعانيه .
فالمحبوب كلف بحبيبه ، مُعَتَّى بحبه ، يتوجع من حرقه الهوى ، ولوعة الفراق .
ويبتلى بألوان من الصد والهجر ، كما يبتلى بالعواذل والرقباء .
وذلك كله تراه في كثير من هذه الأبيات .
والحبيب طيف يزور الحبيب لاما ، فينعم بأنسه ويناجيه ، ويتحدث إليه ،
ويشبهه مكنون غرامه وهيامه ، وقد يغيب عنه هذا الطيف فيصيبه الهم والحزن ، كما
يصيبه الأرق والسهر .
وترى هذا في شعر الحسين بن الضحاك وغيره ممن تغزلوا في المذكر .
وفي شعر الغزل العام تقرأ كثيراً من معاني الصبر والفرع ، والوفاء والفدر ،
والرحمة والجور .

الفرع من هول ما يجرى بين الحبين ، يتذرع لها بالصبر تارة ، وقد يفلت منه الصبر ، فتنتابه الهوم والآلام .

والقدر وكثيراً ما يقع بين الحبين . نتيجة صروف الأيام . أو صروف الهوى ، أو صروف الأهل والأقارب .

والوفاء وهو الوجه الباسم ، الذى يقابل القدر الكريه العابس .
والجور الذى يكون من الحبيبة ، فتزهو ، وتقسو ، وتتجنى ، وتظلم ، والحبيب لا جريمة له ولا ذنب ، يتوسل ، ويترحم ، ويتوب ، وينوب ، وقد يكون غفران ، وقد يكون انسياق فى التجنى والهجران .

وترى مثل هذا فى شعر أبى نواس ، وحماة ، وابن المعتز ، وابن الضحاك ، وغيرهم ممن تغزلوا فى المذكر .

وفى شعر الغزل بالمرأة تقرأ وصفاً لجمال المرأة : جمال البدن من وجه ، وخد ، وقوام ، وعيون ، وأرداف ، وجمال الحديث ، وجمال الدلال .

وفى الغزل بالمذكر تقرأ شيئاً من هذا :

فأمية بن عبد العزيز يصف انفراده بالحسن ، وانفراده بالظرف ، كما يصف خده .
وإسماعيل الأزدي يصف الحاذقه ، ووجهه .

والحسن بن وهب يصف المقلتين ، وإشراق الوجه .

فى حب الفتى طهارة وعفة كما فى حب الفتاة . وهذا ما عناه ابن داود . وفى شعر الغزل بالمذكر طهارة وعفة كما فى شعر الغزل بالمرأة . كما أن فىهما سفهاً وفحشاً وإقذاعا .
نمسك القلم عن ذكر شىء من هذا كله .

ويكاد يخيل إلى أنك لو قرأت ما قيل فى المذكر دون أن تعرف المناسبة التى قيل فيها ، ودون أن تعرف ما يصح أن يكون فارقاً بين المذكر والأنثى من الضمائر ، كأن يكون الخطاب بالضمير أنت فلا تعرف التساء مفتوحة أو مكسورة ، أو يكون بالكاف فلا تعرفها مفتوحة أو مكسورة — لم تستطع أن تجزم بأن هذا غزل فى مذكر أو مؤنث .

الفصل الثانى

أقسام الغزل

١ — الغزل الصناعى :

قد يتجه الشاعر إلى الغزل بوحى من الصناعة ، الصناعة الشعرية . التى تدفعه إلى هذا اللون من الشعر . فيأتى باللفظ العذب . والمعنى الرائع ، دون أن يملأ الحب قلبه ، ودون أن يقصد بقوله هذا امرأة بعينها . شغف بها حباً ، وملك عاطفته ، وشعوره . والشاعر إذ يتحدث عن هذه الناحية ، ويصفها كأنه يريد أن يستوعب أبواب الشعر . وهو إذ يحدثنا هذا الحديث يصور المعانى العامة . التى تجرى بين المحبين . أما حالات المحبين الدقيقة . وأما ما يجرى بينهم من حوادث خاصة فهو لا يصفها ، ولا يصورها ، لأنه لم يرها بعين نفسه .

وكان الشاعر بغزله الصناعى يريد أن يشبع عواطف الناس . لما يعرفه من ميلهم لشعر الغزل ، وأنه قريب إلى نفوسهم . لأنه حديث عن المرأة ، أو بعبارة أدق عن حسن المرأة وجمالها . وتلك مظاهر تغرى بالإعجاب والقبول ولأنه رقيق اللفظ ، رائع المعنى . ولا يخفى أن لهذا أثره فى الإغراء والإعجاب .

وفى ظنى أن الشاعر العربى فى الجاهلية رأى المرأة ، وراقه حسنها وجمالها ، فكلف بها ، وتغزل فيها ، وتحدث فى شعره عن حسنها وجمالها . ولكن هذا الشاعر شغلته أحداث كثيرة ، هى الأحداث التى كانت تشغل العرب فى العصر الجاهلى . فلم يتسع وقته ، ولم يتسع أفق حياته ، ومظاهر عيشه عن أن يجرى فى هذا المجال ، ويتفرغ له ، ويكمل عاطفته وحاسته طوع هواه . ولهذا ابتعد فى شعره عن الغزل الذى

يصور فيه امرأة بعينها ، ويتحدث عن حاله معها ، وهي كثيرة الشئون والشجون ، ابتعد عن هذا قليلا إلى المعانى العامة فى الغزل . أو بعبارة أخرى ابتعد عن هذا إلى الغزل الصناعى .

والغزل على هذه الصورة لا يمثل حبا خاصا . ولا لذة خاصة . ولكنه يصور كثيراً من المعانى العامة التى تجرى بين المحبين . والمقصود بهذا التصوير الفن فى ذاته ، والخيال فى ذاته ، والتشويق فى ذاته ، لا يتجاوزه إلى ما عداه من عاطفة حارة صادقة أو متعة عابرة سافرة .

وقد يظن فى هذا القدر من الشعر أن صاحبه غير مدفوع بحرارة الحب ، ونار الهوى ، فتصوره للمعانى ضعيف فاتر ، كمن يصف معركة ، لم ير أهوالها ، ولا أحداثها ، فهو يتخيل ، ويصور هذا الخيال .

وربما يدفع هذا الظن أن تصوير المعانى ، وإن كان فاتراً ضعيفاً ، ولكنه يثير حساسية القارئ أو السامع ببضعة أبيات من الغزل ، فيعجب ويطرب . وحينذاك وقد تفتح قلبه ، وتفتح ذهنه ، يصفى إلى سائر القصيدة فى وعى ، ويقظة ، وحسن قبول . ولعل القارئ يحتاج إلى بعض الأمثلة لبسط ما نقول :

فى العصر الجاهلى :

يقول امرؤ القيس فى معلقته :

قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل^(١)

ويقول النابغة الذبياني :

عُوجُوا فحيثما النعم دمنة^(٢) الدار ماذا تحييون من نوى^(٣) وأحجار

(١) الدخول وحومل : مكانان بين البصرة وجبل بنجد . (٢) الدمنة : ما اجتمع من آثار الديار . (٣) النوى : الحفير يكون حول الحباء يمنع الطر .

ويقول عنتره :

هل غادر الشعراء من مَثَرَدَم^(١) أم هل عرفت الدار بعد تَوَهُم^(٢)
يا دار عَابِلَة بالجِواء تكلمى وعمى صباحاً دار عبلة واسلمى
ويقول طرفة بن العبد :
خولة^(٣) أطلال بَرْقَة^(٤) تَهْمَدِ^(٥) تلوح كباقي الوشم^(٦) في ظاهر اليد
ويقول عبيد بن الأبرص :
طاف الخيال علينا ليلة الوادى من أم عمرو ولم يُلَمِّمْ بميعاد

في العصر الإسلامي :

يقول جرير .

ما للمنازل لا يُجِبْنَ حزيننا أَصَحِّمْنَ أم قدُم المدي فبلينا ؟
ويقول الفرزدق من قصيدة يمدح بني شيبان :
ألمنا على أطلال سعدى تسلم دوارس لما استنطقت لم تكلم
وقوفاً بها صحبي على وإنما عرفت رسوم الدار بعد التوهم
يقولان لا تنهلك أسي ولقد بدت لهم عبرات المستهام المتيم
فقلت لهم لا تعذّلوني فاتها منازل كانت من نوار بمعلم
ويقول القطامي :

إنا محيوك فأسلم أيها الطلل وإن بليت وإن طالت بك الطيل
ليس الجديد به تبقى بشاشته إلا قليلا ولا ذو خلة يصل

(١) تردم الرجل ثوبه : رقعته . (٢) التوهم : التفرس . معنى البيت : لم يترك
الشعراء لي شيئاً أصلحه . ثم ساءل نفسه : هل عرفت دار محبوبتك بعد شدة البحث عنها .
(٣) اسم محبوبته . (٤) البرقة : مكان اختلط ترابه بحجارة أو حصي .
(٥) وضع في ديار بني عامر . (٦) النقش على اليد ، وهو المسمى (بالدق)

والعيش إلا عيش ما تقرّ به عين ولا حال إلا سوف تنقل
ويقول^(١) يزيد بن ضبة في مطامع قصيدة :

أرى سلمى تصدّ وما صدّدتنا وغير صدودها كفا أردنا
لقد بخلت بنائلها علينا ولو جادت بنائلها حمدنا
وقدضت بما وعدت وأمست تغير عهدا عما عهدنا
ولو علمت بما لا قيت سلمى فتخبرني وتعلم ما وجدنا
تلمّ على تنائي الدار منا فيسهرنا الخيال إذا رقدنا

في العصر المباسي :

يقول^(٢) البحتري في مطلع قصيدة يمدح المتوكل :

ردى على المشتاق بعض رقاده أو فاشركيه في اتصال سهاده
أسهرته حتى إذا هجر الكرى خلّيت عنه ونمت عن إسعاده
وقسا فؤادك أن يابن للوعة بانت تقلقل في صميم فؤاده
ولقد عذرت فها أن طوعاً للهوى وجنّته فرأيت ذل قياده
من منصفى من ظالم ملكته ودى ولم أملك عزيز وداده
إن كنت أملك غير سالف وده قبلت بعد صدوده ببعاده

ويقول من مطلع قصيدة يمدح أحمد بن اسماعيل :

عرجوا فالدموع إن أبك في الربيع دموعي والا ككتاب ا كثنابي
وكثل الأحباب لو يعلم العا ذل عندي منازل الأحباب

ويقول^(٣) المتنبي في مطلع قصيدة يمدح أبا المنتصر شجاع بن محمد :

أرقّ على أرق ومثلي يارق وجوى^(٤) يزيد وعبرة تترقرق

(١) الأغاني ج ٧ ص ٩٥ (٢) ديوان البحتري ج ٢ ص ١٢٩

(٣) ديوان المتنبي ج ١ ص ١٧٧ (٤) الجوى : الحرقّة من حزن أو عشق .

جهد الصبابة أن تكون كما أرى عين مسهدة وقلب يخفق
ما لاح برق أو ترنم طائر إلا اثنتيت ولى فؤاد شقيق^(١)
جربت من نار الهوى ما تنطقى نار الغضى^(٢) وتكل عما تحرق
وعذلت أهل العشق حتى ذقته فعجبت كيف يموت من لا يعشق
وعذرتهم وعرفت ذنبي أنتى غيرتهم فلقيت فيه ما لقوا
ويقول^(٣) بشار في مطلع قصيدة يمدح سليمان بن هشام بن عبد الله :
نأتك على طول التجاور زينب وما شعرت أن الهوى سوف تشعب
يرى الناس ما تلقى بزینب إذ نأت عجيبا وما تخفى بزینب أعجب
وقائلة لى حين جد رحيلنا وأجفان عينيها تجود وتسكب
ويقول^(٤) أبو نواس في مطلع قصيدة يمدح العباس بن عبد الله بن جعفر :
غرد الديك الصدوح فاسقنى طاب الصبوح^(٥)
اسقنى حتى ترانى حسنا عندى الصبيح
قهوة تذكر نوحا حين شاد الفلك نوح
نحن نخفيها ويأبى طيبُ عرف فيفوح^(٦)
ويقول^(٧) :

عاج الشقي على رسم يسائله وعُجبت أسأل عن خماره البلد
يبكى على طلل الماضين من أسد لا در درك قل لى من بنو أسد ؟
ومن نعيم ؟ ومن قيس ولفه ما ليس الأعراب عند الله من أحد
لا جف دمع الذى يبكى على حجر ولا صفا قلب من يصبو إلى وتد

(١) الشيق : المشتاق (٢) الغضى شجر معروف يستوقد به وتكون ناره أبقي . يريد أن يقول :
إن نار الهوى أشد إحراقاً من نار الغضى .
(٣) عصر المأمون ج ٢ ص ٢٧٣
(٤) عصر المأمون ج ٣ ص ٢٤٠
(٥) الصبوح : ما أكل أو شرب صباحاً .
(٦) العرف : الرائحة مطلقاً ، ويكثر استعماله فى الرائحة الطيبة . (٧) حديث الأربعة ج ٢ ص ١٢٠

كم بين ناعت خمر في دَسَا كَرِها وبين باك على نُؤى ومُنْتَضد^(١)
دع ذا عَدِمْتُكَ وأُشْرِبها مَعْتَقَةً صفراء تَفْرِقُ بين الرُّوح والجَسَد
ويقول^(٢) ابن هاني الأندلسي في قصيدة مدح :

فتكات طرفك أم سيوفُ أميك وكؤوس خمر أم مراشفُ فيك
أجلادُ مرهفة وفتك محاجر ما أنتِ راحمة ولا أهْلوك
يا بنت ذى البرد الطويل نجاده أكذا يحور الحكم في ناديك
قد كان يدعوني خيالك طارقاً حتى دعاني بالقنا داعيك
عيناك أم مغناك موعداً وفي وادى الكرى ألقاك أم واديك
ويقول^(٣) ابن عمار في مطلع قصيدة يمدح المعتضد :

أدر الزجاجة فالنسيم قد انبرى والنجم قد صرف العنان عن السرى
والصبح قد أهدى لنا كافوره لما استرد الليل منا العنبرا
والروض كالحسنا كساه زهره وشياً وقلده نداه جوهره

في العصر الحديث :

يقول^(٤) حافظ إبراهيم في مطلع قصيدة يمدح محمود سامي البارودي :
تعمدت قتلى في الهوى وتعمدا فما أئمت عيني ولا لحظه اعتدى^(٥)
كلانا له عذر فعذرى شبيبتي وعذرك أنى هجبت سيفاً مجردا
هوينا فما هُنا كما هان غيرُنا ولكننا زدنا مع الحب سُودداً
ويقول^(٦) أحمد شوقي :

أنادى الرَّسَمَ لو مَلَكَ الجوابا وأجـزـيـه بدمعي لو أنابا

(١) الدسكرة : بيت يكون فيه الشراب والملاهي ، ويقال انتضد الغوم بمكان كذا : أي اجتمعوا وأقاموا . (٢) بلاغة العرب ص ١٧٤ (٣) بلاغة العرب ص ١١٧ (٤) ديوان حافظ ج ١ ص ٤٠ (٥) المعنى في هذا البيت والذي بعده أنني تعمدت قتل نفسي بتعرضي لهواك ، وتعمدته أنت أيضاً بنظرتك إلي ولكن لا ذنب لي لأنني معذور بشبيبتي ، ولا أنت معتمد لأنك معذور بتعرضي لك . (٦) ديوان شوقي ج ١ ص ٥٤

وَقَلَّ لَحْفَهُ الْعِبْرَاتُ تَجْرَى وَإِنْ كَانَتْ سَوَادَ الْقَلْبِ ذَابَا
سَبَقُنْ مُقْبَلَاتِ التُّرْبِ عَنِ وَأَذَيْنِ التَّحِيَّةِ وَالْخَطَابَا
نَثْرِنِ الدَّمْعَ فِي الدَّمَنِ الْبَوَالِي كَنَظْمِي فِي كَوَاعِبِهَا الشَّبَابَا^(١)
وَقَفْتُ بِهَا كَمَا شَاءَتْ وَشَاءُوا وَقَفُونَا عِلْمَ الصِّبْرِ الذَّهَابَا
وَيَقُولُ مُحَمَّدُ عَبْدُ الْمَطْلَبِ فِي مَطْلَعِ قَصِيدَةٍ :

خَلِيلِيَّ قَلْبِي بِسَلْمَى عَمِيدُ وَوَجَدِي بِهَا كُلَّ يَوْمٍ يَزِيدُ
يُذَكِّرْنِيهَا إِذَا جُنَّ لَيْلِي شَمَالُ تَهْبٍ وَغَصْنُ يَمِيدِ
وَبَرْقُ يُلُوحٍ وَطَيْرُ يَنُوحِ وَحَادٍ لَهُ فِي الْمَطَايَا نَشِيدِ
فَأَمَّا الشَّمَالُ فَتُهْدَى شَذَاهَا وَكَالْغَصْنِ ذَلِكَ الْقَوَامُ الْمَيُودُ^(٢)
وَتَوْنُوحُ الْحَمَامِ نَشِيدُ الْغَرَامِ يَشْنَفُ سَمْعِي مِنْهُ الْقَصِيدِ

هذه الأمثلة التي ذكرناها تشهد أن هذه القصائد ، وقد قيلت في أغراض مختلفة بدئت بمثل ماقرأت من أبيات الغزل .

ولم يعرف عن هؤلاء الشعراء أو عن كثير منهم أنهم أحبوا ، ولم تكن قصائدهم الشعرية قيلت في الغزل وحده ، إنما هي بضعة أبيات قد تزيد ، وقد تنقص يقصد منها بدء القصيدة بالغزل .

وصدق المتنبي إذ يقول في هذا المعنى :

إِذَا كَانَ مَدْحٌ فَالنَّسِيبُ الْمَقْدَمُ أَكُلُّ فَصِيحٍ قَالَ شِعْرًا مَتِينًا
وَالْمَتَنَبِيُّ يَعْنِي أَنَّ الشُّعْرَاءَ أَوْ كَثِيرًا مِنْهُمْ حِينَ بَدَءُوا شِعْرَهُمْ بِالنَّسِيبِ لَمْ يَكُونُوا
مُحِبِّينَ ، ذَوِي تَيَمُّمٍ وَغَرَامٍ ، بَلْ أَرَادُوا تَصْوِيرَ مَعَانِي الْغَزْلِ .

(١) الكواعب : ناهدات الثدي والمراد بها هنا الديار قبل أن تستحيل إلى دمن .

(٢) ماد : شئ وتمايل .

وهذا هو الغزل الصناعى .

ولعلك تلحظ أن فى معظم هذه الأبيات تصويراً لكثير من المعانى العامة للغزل ،
وهى لاتعدو :

دار الحبيبة ، والطيف ، وغصص الهوى ، وجمال المرأة .

فالدار مزينة على الحبيب ، لأن فيها مثوى الحبيبة ، وكل أثر من آثارها حبيب
إلى النفس ، يشوقها ، وتحنو إليه .

وإن ما عرف عن العرب من نقلة ، جعلهم يظعنون ويرتحلون ، فيخلفون وراءهم
ديارهم ، فيفعل بها الزمن ، ويفعل بها الريح ، ويقتضى هذا التغيير أن تصير أطلالا
بالية ، يمر الشاعر بها ، أو يتخيل أنه يمر بها ، فيدعوه الوفاء ، والحنين إلى الحبيب
أن يعرج ، وأن يسائل صحبه أن يوقفوا المطى ، وهنا تطوف فى ذهنه الذكريات
فيحيى هذه الدار ، ويحيى ساكنيها ، ويتأسمى على فراقهم وهنا يسائل الربع : كيف
غيره البلى ؟ وأين ارتحل سكانه ؟ يسأله لعله يتحدث عما كان ، وما كان حلوا لذيد ،
ولكن الربع لا ينطق ولا يجيب . ومع ذلك فهو لا ينقم عليه ، بل يدعو الله أن يستقيه
الغيث ، وأن يعود إليه الأهل والأحباب .

وطيف الحبيب نوع من الذكرى ، فإذا غاب شخص الحبيب كان خياله صورة
منه ، ينظر إليه ، ويحدثه ويناجيه ، ويلومه على هجره وتجنیه ، وفى غصص الهوى
يحدثك الشاعر عن الفراق ، وما يترك فى النفس من مرارة وألم ، فهو منهوك القوة ،
ضعيف البدن ، لا يصيبه النوم إلا لماما ، ويحدثك عن جور الحبيبة ، فهى لا ترق
ولا ترحم ، وهى لاتأسو علة بوصول ، بل تزيد فى نكرها ، فهجره وتجنفوه ، وترميه
باللوم والعدوان .

وفى بعض البدايات يحدثك الشاعر عن جمال المرأة ، يحدثك عن ملاحظة وجهها
واعتدال قوامها ، وسحر ألحظها ، ومراسف فيها .

وهذه المعاني وإن وجدت في جميع العصور ، إلا أنها تختلف بعض الاختلاف :
ففي العصر الجاهلي نرى بكاء الأطلال غالبا .

ذلك لكثرة رحيلهم ، ولأن الوصف كان غالبا في شعرهم ، وبكاء الأطلال
لا يعدو أن يكون وصفا ، ولم يخالف هذا النحو فيما ذكرنا من أمثلة إلا عبيد بن الأبرص
حيث تحدث عن الطيف . كما أن أصحاب المعلقات لم يخالفوا هذا النحو أيضاً إلا عمرو
ابن كاثوم حيث قال في مطلع معلقته :

ألاهي بصحنك^(١) فاصبحينا ولا تبقى خور الأندرينا^(٢)

وبقي بكاء الأطلال في كل العصور .

ولكننا في العصر الإسلامي نرى « يزيد بن ضبة » يذكر في مطلع قصيدته صد
الحبيب ، وخیال الحبيب .

وفي العصر العباسي غلب بكاء الأطلال نوع آخر هو الحديث عن غصص
الهوى . وإن كان بكاء الأطلال لا يزال قائما .

والسر في ذلك أن العرب في هذا العصر بعدوا عن حياة البدو ، وما تدعو إليه
من نقلة ورحيل ، وبعثوا في وصفهم عن الأطلال إلى ما تقضى به مظاهر الحضارة
في هذا العصر من وصف القصور ومجالس اللهو وضروب الترف . ثم كان للعرب
من شعراء العهد الأموي تراث من الغزل العذري . ويغلب على هذا النوع من الغزل
تباريح الهوى . وكم لها من هموم وآلام ! . فكان من الطبيعي أن يتأثر الشعر ببعض
ما غلب عليه في العهد الأموي .

وشيء آخر كان له الأثر الفعال . هو أن حضارة الفرس طبعت العرب بطابع
خاص فيه ثورة على القديم . وفيه حرب على ما ألف العرب . وحمل لواء هذه الثورة
الشعراء الذين نشأوا من أصل فارسي ، وزعيم هؤلاء أبو نواس .

(١) الصحن القدح العظيم . (٢) قرية بالشام .

عاب أبو نواس بكاء الأطلال ، ودعا إلى البدء في وصف الحمر ، وكان صارما
عنيفا في تصوير هذا العيب ، كما كان ملجأ في قبول دعوته الجديدة ، وذلك ما تراه
فيما ذكرنا من أمثلة .

كما أن بيئة الأندلس أوحى إلى بعض الشعراء أن يبدأوا بعض قصائدهم بوصف
الطبيعة ، وجمالها ، كما فعل ابن عمار .

وفي العصر الحديث ترى من يذكر في مطلع القصيدة الديار ، كأحمد شوقي
ومن يذكر تباريح الهوى ، كحافظ إبراهيم ، ومحمد عبد المطلب .

٢ — الغزل العذري :

وهذا النوع من الغزل يختلف عن سابقه كل الاختلاف . فهو حديث
عن القلب . القلب الذي أحب ، واكتوى بنار الحب . يتحدث عن هذا الحب ،
وهذه النار . وهو حب صادق برىء ، لأنه يصدر عن وفاء وإخلاص . يصدر
عن ود متبادل ، لا تشوبه شائبة من اللهو والمجون ، والعبث والفجور ، لا تراه وصفاً
ماجناً أو حديثاً خليعاً ، أو قولاً ساخراً .

شاعر الغزل العذري يتحدث عن حبيبة نفسه ، وهي واحدة بعينها ، يذكرها
في غدوه ورواحه ، وفي حله وترحاله ، وفي نومه ويقظته ، وفي رخائه وشدته ، وحين
تجود بوصاله أو تجفوه . وحين يلتئم الشمل ، أو تفرق بينهما الأيام . وهو في هذا كله
يصفها ويصورها ، يصفها وكأن كل شيء فيها فائق جميل ، ويصورها وكأن كل أحوالها
— مهما كانت — لذة وممتعة .

وما أجل هذا الوصف !

وما أروع تلك الصورة !

لأن الحديث فيهما صادر من القلب . وما خرج من القلب حل في القلب .

ولأن الحديث فيهما تمثيل للوفاء والإخلاص ، والتضحية والروءة .

وأجمل بهذه المعانى !

وشاعر الغزل من هذا النوع يكون أكثر رقة في اللفظ ، وجودة في المعنى ، وعمقاً في دقة التصوير ، وحسن الخيال ، لأنه يصدر في ذلك عن حس مرهف ، ومن قلب حى ، ويتحدث بألفاظه ومعانيه وأخيلته عن مثله الأعلى ، وتمثل كل شيء فيها وهذا يدعو لأن يتقن ويدع ، أو يدعو لأن يرسل نفسه على فطرتها ، فيكون ما توحى حلوأ جميلاً ، لأنها فطرة بريئة طاهرة ، والبلد الطيب لا يخرج إلا النبات الطيب .

وهؤلاء الشعراء يمثلون لك في شعرهم الغزل الصادق ، والغزل الحى ، والغزل في كل صورة ، وفي كل شئون وشجون . يرى الشاعر ذلك كله في حياة الحب ، بينه وبين هواه^(١) ، فيحمله إلينا شعره ، فنعجب به ونطرب ، ونطلب منه المزيد ، لأنه قوى ، ولأنه رائع جميل .

وهذا النوع من الغزل ضرب من المثل العليا ، وهذا الضرب لا تجده إلا في قلة وندرة ، لا تجده في شاعر إلا إذا أوتى طهارة القلب ، وصفاء الحس ، وأوتى التوفيق في حبه ، فكانت له المرأة التى توليه من قلبها كما أولاهها من قلبه ، وكانا صادقين في هذا الولاء ، وكانا كريمين في هذا الحب .

حينذاك يوجد الغزل العذرى ، وحينذاك يوجد شاعر الغزل العذرى ، وليس بكثير أن يجود الزمن بشاعر تتمثل فيه هذه الصفات ، ولذلك لم يكن بكثير أن نقرأ أمثلة لهذا النوع من الغزل في بعض العصور ، وعند بعض الشعراء .

وهذا النوع من الغزل ينشأ حيث يتوافر للشاعر هذا التوفيق الذى ذكرنا أسبابه وعوامله .

(١) من يحبه ويهواه .

وفي يقينى أن الغزل العذرى لم ينشأ فى العصر الجاهلى .
لأن شعراء هذا العصر وإن كان قد أثر عن بعضهم أنهم تغزلوا فى امرأة بعينها ،
ولكن غزلهم لم يكن فناً قائماً بذاته ، ولم يكن معروفاً فى ذلك الوقت أن شاعراً ما ،
كان شعره قاصراً على الغزل ، وعلى الغزل بامرأة يحبها وتحبه ، فأودع شعره كل
ما قاله فيها .

ولم ينشأ فى العصر الإسلامى .
لأنه كانت أحداث أخرى : أحداث الدين الجديد ، ونشره ، وفتح الفتوحات ،
ورفع راية الإسلام ، ومن شأن هذا أن يغلب الناس على كل شىء .
وفى العصر الأموى حيث استتب الملك ، وأصبح الناس فى ظله الوارف ،
وفى ضروب من الدعة ، والراحة ، والطمأنينة ، والرخاء ، وأصبح فريق منهم يسكنون
بادية الحجاز لم يكن لهم حظ من هذا الترف . بل كان يؤس وحرمان جرهم إلى حال
من اليأس ، وإلى حال من الزهد وإلى حال من صفاء الروح . يتجرد عن المادة
إلى حياة خالصة طاهرة ، جعلتهم يجنحون إلى الطموح والمثل العليا ، وخدامهم ،
هذا الطموح إلى أن يكون لهم تفكير جديد فى الأدب .
وكأنهم بهذا ثاروا على الأوضاع العابثة ، التى كانت فى مدن الحجاز ، ونشأ عنها
الغزل الماجن ، الذى سنحدثك عنه .

ولعلك تعلم أن العصر الأموى كان عصر بناء وعمران .
لأنه نجاء بعد جهاد عنيف ، وجاء بعد ثورة دامية ، حاربت الظلم والظلمات
وحاربت دولا وعروشاً ، كانت لها نظم وأساليب تخالف ما جاء به دين الإسلام .
فكان لزاماً وقد سكنت النفوس واستقرت أن تبحث لها عن تقاليد جديدة
فى الحياة ، ومن هذه التقاليد ما تعرف من مظاهر الملك .

ومنها أن وجدت جماعات وأحزاب يتنازعون الملك والسلطان .

ومنها أن اتجه كثير من رجال الرأي والفكر إلى ألوان من الإصلاح والاجتماع .
فلم لا يوجد نوع جديد من الغزل ؟ يساير هذا البعث الجديد ، أو هذه الحياة الجديدة .
والأدب وحى الحياة ، ومرآة الوجود .

بلى . وجد الأدب الجديد ، ومنه الغزل العذرى .

فى مثل هذه البيئة ينشأ شاعر الغزل العذرى ، الذى يصور فى شعره عاطفته
الحارة ، وقلبه النائر ، الذى هام حباً بامرأة ، عذبتة ، وأضنته ، ومع ذلك فهو مغرم
بها مقيم ، وهو يجد فى هذا العذاب لذته ومتعته .

إذن فى العصر الأموى نشأ الغزل العذرى ، فوجدنا جماعة من هؤلاء الشعراء ،
وعلى رأسهم جميل بن معمر العذرى الذى أحب بثينة ، وسار على دربه جماعة
من بعده . ويحدثنا كتاب الأغاني عن هذا الشاعر . ونقرأ فى شعره صوراً كريمة
لهذا الغزل العذرى .

ويمحسن قبل أن ندخل فى الحديث عن حياة هذا الشاعر ، وتحليل شعره ، ووصف
ما جرى بينه وبين حبيبة نفسه أن نرسم صورة عن المثل العليا التى يصح أن تجرى
فى حياة المحبين .

فما هى تلك المثل ؟

من هذه المثل :

أن يكون الحب كلفاً بحبيبتة ، وأن يهواها بعين قلبه ، لا بعين هواه ، قلبه
الطاهر البرىء ، لا هواه العايب الساخر ، هوئى تزيده الجفوة قوة ، وتزيده البعاد قرباً .
وأن يكون مغرمًا مدنفًا ، متيماً ، ترى ذلك فى جسمه الناحل المهدود ، وفى قوله
الذى تتلصق فيه صباية الهوى ، وحرقة الغرام .

وأن يكون مجاهداً بما تحوى كلمة الجهاد من عزم وصبر ، فهو يجاهد هوى النفس
حتى يكون بريئاً خالصاً ، وهو يجاهد غصص الحب ، وما أكثرها من هجر وصد ،

ووشاة ، وعواذل ، يجاهد هؤلاء جميعاً ، حتى يغلبهم على أمرهم ، وحتى يصل إلى حبيبة
نفسه ، يلقاها ، وتلقاه ، وتتقابل هزات القلوب ، فيكون الصفاء ، ويكون النعيم .
وأن يكون وفياً أميناً ، لا يخون العهد ، ولا ينقض الميثاق ، يحبها وحدها دون
سائر الناس ، ويتغنى بهذا الحب في كل زمان ومكان ، ويزهو به ولو آذوه وعذبوه .
هذا هو الحب العذرى .

وذلك هو جميل بن معمر العذرى .

أحب جميل بثينة وتغزل بها في شعره ، ولم نعرف أنه تغزل بامرأة أخرى ، إلا أم
الجسیر - وهي أخت بثينة - في بضعة أبيات .
ملكته عليه قلبه ، ولم يفتر حبه لها .

هجرت . وارتحلت عنه : فوصلها ، وسافر إليها .

لامه أهله في سبيل حبها ، وأرادوا أن ينحّوه عنها : فازداد كلفاً بها .
طارده أهلها ، وتر بصوا به ، وأرادوا به كيداً : فاحتمل صنوف السوء والأذى .
قال الوشاة ، وأكثروا من القول : لم يصدق ، ولم يسمع ما يقولون ، بل غاظهم ،
وزاد في نعمتهم .

أهدر السلطان دمه إن سعى إلى رؤيتها ، أو ألم بواديتها : وكان دمه الغالى
رخيصاً إذا قدم قرباناً في سبيل الحبيب !

والآن أترك الشعر ، يترجم عن جميل :

أُبَيِّنُ إِنَّكَ قَدْ مَلَكَتِ فَأَسْجَحِي ^(١)	وخذي بحظك من كريمٍ واصلٍ
فَأَجَبْتَهَا فِي الْقَوْلِ بَعْدَ تَسْتَرْ	حُبِّي بُثَيْنَةَ عَنْ وَصَالِكِ شَاغِلِي
فَلَبَّ عَارِضَةً عَلَيْنَا وَصَلَهَا	بِالْجَدِّ تَخْلُطُهُ بِقَوْلِ الْهَازِلِ

(١) ارفقي وتلطنى .

لو كان في صدري كقدر قلامة^(١) فضلا وصلتكَ أو أتتكَ رسائل

* * *

ويقلن إنك قد رضيت بباطل منها فهل لك في اجتناب الباطل
ولباطلٍ مما أُحِبَّ حديثه أشهى إلى من البغيض الباذل
إيزلن عنك هوى ثم يصلني وإذا هويتُ فما هوى بزائل

* * *

صادت فؤادي يا بشين جبالكم يوم الحجون وأخطأتك حباتي
منيتني فلويت ما منيتني جعلت عاجل ما وعدت كآجل
وتشألت لما رأت ككفى بها أحب إلى بذاك من متشائل
وأطعت في عواذلا فهجرتي وعصيتُ فيك وقد جهدن عواذلي
حاولتني لأبت^(٢) حبل وصالكم مني ولست وإن جهدن بفاعل
فرددتهن وقد سعين بهجركم لما سعين له بأفوق^(٣) ناصل^(٤)
يعضضن من غيظ على أنا ملا ووددت لو يعضضن صمم جنادل
ويقلن إنك يا بشين بخيلة نفسي فداؤك من ضنين باخل

ماذا يعني أن يقول جميل ؟

في المجموعة الأولى :

يحدثنا عن كلفه يثينة ، وأنه شغل بها كل قلبه ، ولم يبق منه شيء خال ،
حتى قدر القلامة ، وأنه وفق لها ، لا يتخلى عنها إلى غيرها من النساء ، مهما كانت جميلة ،
فاتنة الجمال ، ومهما أغرته بضروب من الإغراء .

وفي المجموعة الثانية :

يحدثنا عن الموادل . وكان جميل قد أتى بثينة لوعدها ، وعرف أهلها ذلك ،

(١) القلامة : ما سقط من الشيء المقلوم ، ويقصد بالقلامة هنا القدر القليل اليسير .
(٢) بت حبل وصله : جفاه وقطعه
(٣) السهم الأفوق : السهم الذي به انكسار
(٤) ناصل : لا تصل له .

فحرسوها ، ومنعوها أن تذهب للقاءه ، وطال بجميل الانتظار حتى أسفر الصباح .
فعاد كثيبا ، سيء الظن بها ، وكانت الفرصة سانحة للعاذلات من نساء الحى . أخذن
يلعنه ويقرعنه ، ويكرهن إليه بثينة ويصورن ما حدث من إخلافها الوعد في صورة
قائمة سوداء ، فهي كذوب غادر ، وهى مشغولة بحب سواه .

يقول له نساء الحى هذا القول ، ويفرينه بأطراح هواها ، ويقدمن إليه من هى
أكثر حسناً ، وأكثر روعة ، وأكثر جمالا .

ولكن هذا القول ثقيل إلى جميل ، فهو يعرف أنهم يردن إزالة هواه عن بثينة ،
ويصدهن صداً عنيماً ، لا أمل بعده ، فهو إذا هوى لا يزول هواه .

وفى المجموعة الثالثة :

يحدثنا عما يلقى من حبيبته بثينة . وكيف جازاها على ذلك بالوفاء لها والتفانى فى حبها .
لقى جميل من بثينة أن منته فأخلفت الأمانى ، وأن ثاقلت حين رأت كلفه
بها ، وأنها أطاعت العواذل فهجرتة ، وجفته .

أما جميل فقد رضى بتثاقلها . وعصى العواذل فى هجرها ، وغازطن ذلك ، وود
أن يعضض الأحجار الصلدة ، لا الأنامل ، ويدفعه الوفاء فوق ذلك إلى أن يدفع
عنها أنها بخيلة ، وأنه يرضى بهذا البخل ، ويفدى صاحبته بنفسه ، وهى أعز شئ ، إليه .
ويقول (١) :

خليلى عوجا اليوم حتى تسلم	على عذبة الأنياب طيبة النشر (٢)
ألتا بها ثم اشفعا لى وسلم	عليها سقاها الله من سائغ القطر
وبوحا بذكرى عند بثنة وانظرا	أترتاح يوماً أم تهش إلى ذكرى
فإن لم تكن تقطع قوى الود بيننا	ولم تنس ما أسلفت فى سالف الدهر

فسوف يرى منها اشتياقاً ولوعة
وإن تلك قد حالت عن العهد بعدنا
فسوف يرى منها صدوداً ولم تكن
أعوذ بك اللهم أن تشحط النوى
وجاور إذا ماتت بيني وبينها
عدمك من حبٍّ أمانك راحة
ألا أيها الحبُّ المبرح هل ترى
أجدك لا تبلى وقد بلى الهوى
في هذه الأبيات يحدثنا جميل عن بثه وهواه .

فارقته بثينة ، وفراقها عزيز على نفسه . فهو يرسل لها الرسل ، يحيونها ، ويسلمون عليها . تحية جميل ، وهي صادقة حارة . وسلام جميل ، وهو حلو كريم . ثم يستشفعون له ، ويتوسلون إليها ، لعلها ترق وترحم ، ولعلها تصله بعد جفوة ، وترضى عنه بعد هجران . وجميل حين يتشفع ويتوسل لا يبق على حيلة أو وسيلة ، يكسب بها رضا بثينة . ويعرف مدى حظه من هذا الرضا .

يطلب جميل من الرسولين أن يبوحا لها بذكره ، وفي ذكره لوعة ، وحنين ، واشتياق . وأن يتحدثا عن سالف وده ، وكله صباية ، ووجد ، وغرام .

وليُنظر بعد ذلك قسمات وجهها ، ففيها الجواب الحاسم .

فإن كانت ترتاح إلى ذكره ففي ذلك خير لا يعدله خير .

وانظر كيف أنه يرضى منها بالقليل . لا يطلب أن تبثه الغرام والهوى كما بشا . ولا يطلب أن تقابل الأنين بالأنين ، واللوعة باللوعة . وهيئات أن تقوم المساواة بين الرجل والمرأة في هذا الشأن !

ثم انظر كيف أنه يرضى منها بالجواب السلبى لا الإيجابى . فكل ما يصبو إليه

الانتقطع الود بينه وبينها ، أما الوصال الكامل ، فهذه غاية لا يدركها الحب المتيم .
ثم انظر كيف تعلقت به الآمال . فرتب على هذا القدر القليل أن سيكون لها
في المستقبل لوعة واشتياق . والحب يعيش دوماً في ظلال الأمل .
وتأمل ماذا قال بعد ذلك ؟ .

صوّر لنا الوجه العابس . الذى تصفى فيه الحبيبة إلى من يلوم ويعذل ، فتصد
وتجفو . وذلك غدر ليس من شيمتها . فالحب الصادق لا يرمى حبيبته بتهمة أو سوء
لأنه يرتفع بها عما يعيب ويشين . وهو يدعو الله ألا يكون فراق بينهما دوماً الحياة .
وأن يكون - حين الموت - قبراها متجاورين ، متلازمين . وبهذا يكون الموت حلوا
جميلاً . لأنه عاش الحياة قريباً منها ، ولأنه مات ، ولم يفقد هذا القرب ، وذاك النعيم
فلم يحزن على الموت ؟ إنما يحزن الناس لأن خيراً فاتهم . أما جميل فخيره لا يزال بجانبه
تتناجى أرواحهما في الموت ، كما كانت تتناجى في الحياة ، لا فرق في ذلك ولا نقصان .
ثم أخذ يحدثنا عن حبه ، وما يلقي في سبيله من عناء وشقاء ، وأنه مع ذلك كله
محب ، ويتغنى في هذا الحب ، ولا يرضى عنه بديلاً .

وماذا نرجو من محب صادق . ومن قلب كريم أن يقول غير ما قال جميل . وأن
يحدثنا غير هذا الحديث ؟

ذلك هو الغزل العذرى .

الذى يترجم عن القلب . والذى يصور لك حياة المحبين هذه الصورة الجميلة ،
التي رأيتها والتي يحسن بك أن تتذوقها . حين تقرأ ما ذكرنا من شعر جميل .
وأن تردد هذه القراءة ، وأن تجعل من قلبك ما يناسب هذا الصفاء ، وهذا الطهر ،
وهذا الجمال .

ذلك هو جميل ، وتلك هى بثينة ، يحدثنا الشعر عن حبهما الصادق هذا الحديث .
يحدثنا أيوب بن عباية قال :

سعت أمة لبثينة بها إلى أبيها وأخيها أن جحلا عندها الليلة فأتياها مشتملين على سيفين . فرأياه يحدثها ويشكو إليها بثه ، ثم قال لها يا بثينة : أرأيت ودى إياك وشغفى بك ألا تجزينيه ! قالت بماذا ؟ قال : بما يكون بين المتحابين . فقالت له : يا جميل . أهذا تبغى ! والله لقد كنت عندي بعيداً منه . ولئن عاودت تعريضاً برية لا رأيت وجهي أبداً . فضحك ، وقال : والله ما قلت لك هذا إلا لأعلم ما عندك فيه . ولو علمت أنك تحبينني إليه لعلت أنك تحبين غيري ، ولو رأيت منك مساعدة عليه لضربتك بسيفي هذا ما استمسك في يدي . ولو أطاعتني نفسي لهجرتك هجرة الأبد ، أو ما سمعت قولي :

وإني لأرضى من بثينة بالذي لو أبصره الواشى لقرت بسلامه
بلا وبأن لا أستطيع وبالمنى وبالأمل المرجو قد خاب آمله
وبالنظرة العجلى وبالحول تنقضى وأخيره لا نلتقى وأوائله
وهذا هو الحب الصادق البرى الذى عناء جميل بقوله :

أفى الناس أمثالى أحب فخالهم كخالى أم أحببت من بينهم وحدى
وهل هكذا يلتقى المحبون مثل ما لقيت بها أم لم يجد أحدٌ وجدى

٣ — الغزل المأمون :

وهذا النوع — كما يفهم من اسمه يميل إلى وصف المرأة ، وإلى المبالغة في الوصف وإلى مجاوزته إلى ذكر أمور أخرى في المرأة ، تثير اللذة ، والشهوة .

وينشأ هذا النوع حيث يوجد الترف . بل حيث يوجد السرف فيه ، عند قوم لا هم لهم في الحياة إلا أن ينعموا ، وأن ينعموا بوسائل النعمة كلها ، ما خبت منها وما طاب ، وما جهل وما قبح .

وفي العصر الأموى كانت حياة العرب في العراق والشام قد شغلهم أحداث

السياسة ، وغلبتهم مظاهر الملك . هؤلاء يؤيدون . وأولئك يعارضون وكل يسلك لذلك شتى الوسائل .

وفي الحجاز جمهرة من أبناء المهاجرين والأنصار . وقد شغلوا عن ذلك بلون جديد في الحياة . هم مغلوبون على أمرهم . لأن ملوك بني أمية يضيقون الخناق عليهم ، حتى لا تقوى كلمتهم ، وكانوا يفرونهم في ذلك بالمال والعطاء . وكان جماعتهم الذين يسكنون الحضر أهل ثروة وغنى . فجنحوا إلى الراحة ، ثم اجتناء ثمار الترف والسرف ، فكان اللهو ، وكان العبث ، وكان المجون .

وجعلوا من المرأة أداة هذا العبث ، وحمل الشعر إلينا صوراً من الغزل بالمرأة ، وكان غزلاً ماجناً سافراً ، يرضى هؤلاء المترفين .

وزعيم هذا الغزل الماجن عمر بن أبي ربيعة .

نشأ عمر بن أبي ربيعة من أسرة قرشية ذات حظ من المجد والشرف ، وذات حظ من الثروة والغنى ، كسبته من التجارة بين الحجاز واليمن .

عاش عمر في مكة بعيداً عن السياسة والحزبية ، في بيئة كلها سرف وترف . فنعيم ولها ، وجرى وراء المرأة يجد فيها لهوه ونعيمه .

تحدث عمر عن المرأة ، فعرض لجمالها ، وعرض لحسنها ، وعرض لزيقتها ، وعرض لمواضع دلها ، وفتنتها ، وإغرائها ، وأغرق في ذلك إغراقاً ، ولم يتحرج أن يكون وصفه دقيقاً حساساً .

وكأن عمر في شعره ، وفي غزله كان كالمصور الماهر ، ينشد كل ما هو حسن جميل ، ويجرى وراء ما هو فاتن جذاب ، ليشبع هوى نفسه ، ويمتتع دقيق حسه ، وكما أن المصور يرسم لنا صورة من هذا الحسن والجمال ، لنستمتع بها فترة من الزمن ، وتستمتع بها الأجيال المتعاقبة . فكذلك عمر كان ينشد الجمال في الأنثى أو في الذكر ،

ينشد الجمال في كل مكان ، وكثيراً ما كانت في موسم الحج حيث يتجه الناس إلى بارئهم ، هفوا إليه القلوب ، وتصفى إليه الأرواح .
قالوا^(١) :

كان عمر بن ربيعة يسائر عمرو بن الزبير ويحادثه . فقال له : وأين زين المواكب ؟ يعني ابنه محمد بن عمرو ، وكان يسمى بذلك لجماله . فقال له عمرو : هو أمامك . فركض يطلبه . فقال له عمرو : يا أبا الخطاب أولسنا أكفاء كراما لمحدثك ومسايرتك ؟ فقال : بلى . بأبي أنت وأمي . ولكني مغرى بهذا الجمال أتبعه حيث كان . ثم التفت إليه وقال :

إني امرؤ مولعٌ بالحسن أثبمه لا حظ لي فيه إلا لذة النظر

إذن كان عمر ينشد هذا الجمال . يتحين له الفرصة ، ويسعى إليها ، ويبحث وراءها ، فإذا صادف غنا وقف عنده طويلاً ، وتأمله ، واقترب منه . وغلب عليه ، حتى كأنه مغرم متيم . ويظل في تيممه وغرامه ما بقي مقياً بالمرأة ، مزهواً بالجلوس إليها ، والحديث معها . فإذا فارقها أو فارقته لم يكن يشغل نفسه بها . وبالتالي لم تنطبع في قلبه صورة منها ، يحن إليها ، ويئن على فراقها ، ويسعى ليرأها ، ويستوحى طيفها وخيالها . ولو فعل عمر ذلك ، وفعله طوعاً لقلبه الصب ، لا إشباعاً لذته ومتعته ، لكان محباً حقاً ، وكان حبه عذرياً وغزله عذرياً ، كما كان حب جميل ، وغزل جميل . ولعل هذا ما كرهته بثينة ، إذ زارها عمر بن ربيعة يوماً ، ليكلمها في شأن جميل وقد أهدر الوالى دمه إن وجد عندها . أتاها عمر ووقف على بابها ، وقال لجاريتهما : يا جارية : أنا عمر بن أبي ربيعة فأعلمي بثينة مكاني . فخرجت إليه بثينة في مبادها . وقالت : والله يا عمر لا أكون من نسائك اللأئي يزعمن أن قتلهن الوجد بك . فانكسر عمر .

كرهت بثينة أن تكون واحدة من هؤلاء النساء ، اللاتي يتحدثن عنهن ،
فهي لا تعرف أحاديث اللذة ، ولكنها تعرف حديث القلب ، القلب الذي عرفها
وحدها ، وتحدث إليها وحدها ، وقام بها وحدها ، وهو قلب جميل .
وَمَنْ هَؤُلاءِ النساء ؟

تغزل عمر بعائشة بنت طلحة حفيدة أبي بكر الصديق من جهة أمها ، وزوجة
مصعب بن الزبير .

كان عمر يطوف بالبيت ، ورأى عائشة ، وكانت من أجمل أهل دهرها . فبهت
لما رآها ، وعلمت عائشة أنها قد وقعت في نفسه ، فبعثت إليه بجارية لها ، وقالت :
قولى له : اتق الله ولا تقل هجرا . فإن هذا مقام لا بد فيه مما رأيت . فقال للجارية :
اقرئيها السلام ، وقولى لها : ابن عمك لا يقول إلا خيراً . ولم يزل عمر ينسب بعائشة
أيام الحج ، ويطوف حولها ، ويتعرض لها ، وكان يلقاها وهي تسير بمكة على بغلة ،
ويقول لها : قفى حتى أسمعك ما قلت فيك ، فتقف ، وينشدها .
وتغزل بسكينة بنت الحسين .

كانت سكينة مع نسوة من أهل المدينة من أهل الشرف ، وتذاكرن عمر وشعره
وظرفه وحسن حديثه ، فأرسلن إليه ، وأخذ يحدثهن إلى أن أضاء الفجر .

وتغزل بأم محمد بنت مروان بن الحكم ، وفاطمة بنت عبد الملك بن مروان .
أما أم محمد فكانت تحج ، ولما قضت نسكها أتت عمر بن أبي ربيعة ، وحديثها
مليا ، وقالت له : نَشَدْتُكَ الله أن تشهرني بشعرك ! . وبعثت إليه بألف دينار .
وكذلك كان أمره مع فاطمة إذ رآها في الحج ، وأخذ يحدثها ، وأخذت تحذنه
وتنشده من شعره . وقال فيها الشعر دون أن يذكر اسمها فرقامن عبد الملك بن مروان
ومن الحجاج .

وتغزل عمر بليلي بنت الحارث البكرية .

كانت تجلس في المسجد الحرام ، فرأت عمر ، فوجهت إليه رسولا ، فقالت له :
يا ابن أبي ربيعة حتى متى لا تزال سادرا^(١) في حرم الله تشب بالنساء ، وتشيد
بذكرهن . أما تخاف الله ؟ . قال دعيني من ذلك واسمعي ما قلت فيك وأنشدها
من قوله فيها .

وتغزل عمر بهند بنت الحارث المرية .

كانت تجلس مع نسوة ، وأتاهن عمر ، فأخذ يحدثهن ، ويقول في ذلك شعراً .
وتغزل بلابة بنت عبد الله بن العباس امرأة الوليد بن عتبة بن أبي سفيان ،
كانت تطوف بالبيت ، فرآها عمر ، فكاد عقله يذهب ، وقال فيها الشعر .

وتغزل بالثرثا بنت علي بن عبد الله زوج عبد العزيز بن مروان .

وكانت أكثر النساء قرباً إلى عمر ، وكان كثير الحديث عنها ، والكلف بها .
وتغزل بزيب بنت موسى الجُمَحِيَّة .

ذكرها ابن أبي عتيق عند عمر يوماً ، وأطراها ، ووصف من خلقها ، وأدبها ،
وجالها ما شغل قلب عمر وأماله إليها . فقال فيها الشعر ، وشبب بها ، وبلغ ذلك ابن
أبي عتيق فلامه فيها ، وقال له : أنتلق الشعر في ابنة عمي ؟ فقال عمر :

لا تلمني عتيقُ حسي الذي بي إن بي يا عتيقُ ما قد كفاني

لا تلمني وأنت زينتها لي أنت مثل الشيطان للإنسان

إن بي داخلا من الحب قد أبلى عظامي مكنونه وبراني

وتغزل بالنسوار .

رآها بالمزدلفة ، ففتن بها ، وشغلت قلبه ، وتبعها حتى نزلت بمنى في مضرب^(٢)
قد ضرب لها ، فنزل إلى جنبه ، ولم يزل يتلطف حتى جلس معها . وحادثها ،
وقال فيها الشعر .

(١) السادر : لا يبالي ما صنع . (٢) فسطاط للاقامة فيه .

وتغزل برملة بنت عبد الله بن خلف .
كانت تحج ، وتعرض لها عمر ، وأعجب بها . وقال فيها شعراً . كان سبباً
في أن هجرته الثريا لما علمت أمره .
وتغزل بكلثم بنت سعد الخزومية .
رآها عمر ، وأرسل لها الرسل ، وأخذ يحثال عليها ، حتى لقيته : وأقام عندها
شهرًا ثم استأذنها في الخروج ، فقالت له : بعد أن فضحتني ! لا والله لا تخرج إلا بعد
أن تزوجني ! ففعل وتزوجها . وولدت منه ابنين .
كما تغزل عمر بأخريات كثيرات ، منهن هند وأسماء ، ومنهن جاريته بَعُوم ،
وَحَمْدَة جارية ابن تفاعلة .

تغزل عمر بهؤلاء النساء . وفيهن المحصنات المترفات . اللاتي على حظ عظيم
من الجاه والسلطان . عرض لهن عمر في غزله ، وهو الفتى الفارع الوسيم ، ذو النعمة ،
والترف ، والثراء . وقد وصفه بعض من رآه بين فتيان بني مخزوم ، فقال : « قد فرعهم
طولا ، وجهرهم جمالا ، وبهرهم شارة ، وعارضة وبيانا » .
ولعله بان لك فيما تقدم أن عمر كان كما قلت كالمصور الماهر يعرض للجمال .
فيتحدث عنه ، ويصفه ، ويصوره ، يأخذ منه لذته لوقته ، ثم يطوى صفحة ،
وينشر صفحة أخرى ، فيها حديث ، وفيها وصف ، وفيها تصوير ، وفيها لذة ومتعة ،
ولو لم يكن عمر كذلك ما تغزل بهذه الكثرة من النساء ، وما تغزل بمن لم نذكر
من نساء أخريات .

وأيّن هذا مما كان يفعله الشعراء المذريون ؟

كان الشاعر المذري يقصر حبه وغزله على واحدة بعينها . يرى من الوفاء
أن يكون الحديث عنها وحدها . ويرى من الوفاء ألا يكون الحسن إلا لها ، وألا يكون
القلب إلا لها ، وألا يكون الأنين إلا لفراقها ، وألا يكون الخير إلا في لقاءها ، وأنه

يحيا من أجلها وحدها ، ويكره الموت لأنه سيفرق بينه وبينها ، فإذا جمع الموت بينهما بأن حواهما قبر واحد ، أو كان قبراهما متجاورين فالموت حلو جميل !
كما بان لك أن موسم الحج كان الفرصة السانحة لعمر . إذ كان يقف في طريق الحاج ، يرتقب الحسان ، وهن قادمات من الشام والعراق واليمن ، وكان يتعرض لهن وهن يؤدين معالم الحج . ولا يبالي أن يلقى منهن إعراضاً أو زجراً . فلا يزال يلاين ويلاطف . حتى يكون الرضا والقبول .

وفي ذلك يقول عمر :

فلم أر كالتجمير^(١) منظر ناظر ولا كلياى الحج يفتن ذا الهوى
وبعض هؤلاء النساء كن يخفن التشهير ، والفضيحة ، إذا تنزل فيهن عمر ،
وذكر أسماءهن . وبعضهن يغرينه ، ويرسلن له الرسل ، ويهينن له مجلساً معهن ،
ليحدثهن يوماً أو بعض يوم ، وليقول الشعر فيهن لاهياً متغزلاً .
ومن النوع الأول - كما ذكرنا - عائشة ، وليلي بنت الحارث ، والنوار ، وفاطمة ،
والثريا ، ورملّة ، وكأثم .

ومن النوع الثانى : سكينة بنت الحسين ، وأم محمد بنت مروان بن الحكم ، وهند
بنت الحارث .

أما ما كان من عمر من تعرضه للنساء الجميلات ، ومن جريه وراءهن ،
ومن جهده معهن . فذلك ما بينا سببه وباعثه . وأما أن بعض النساء كن يغرينه ،
ويرسلن له الرسل ليحدثهن ، وينشدهن ، ويشبب بهن ، وفيهن المحصنات ، فذلك
ما يحتاج إلى بعض البيان .

كان للفرز سوق رائجة في هذه الفترة من الزمن . وكان النساء على جانب

(١) رمى الجمرات في مناسك الحج .

من المعرفة والعلم ، معرفة بالشعر ، وعلم بأصوله وفصوله ، وأخباره ونوادره . وكن مترفات ، فائنات في الحسن والجمال . وكن يعرفن من عمر غزله ، ولهوه ، وسمره ، فلم لا يكون لهن من عمر نصيب ؟

وماذا يمنع لو استمعن إليه . وتحدث إليهن ، وسمرن معه فترة من الزمن ؟ وماذا يمنع لو صور جمالهن وحسنهن ، وحمل إلينا شعره صورة من هذا الجمال والحسن ؟ والمرأة هي المرأة تدل بحسنها وجمالها ، وتود لو أن الناس جميعاً تحدثوا عن حسنها وجمالها ، ولكن فيهن محصنات لا يردن أن يشهر بأسمائهن ، فليكن عنهن عمر ، وليقل بعد ذلك ما يشاء .

ولعل ذلك يفسر لنا أن عمر بن أبي ربيعة كان معروفاً لدى جمهرة هؤلاء النساء ، عرفنه من شعره ، وعرفنه من حوادثه ، وعرفنه من أحواله . وحدث هذه المعرفة كثيراً منهن إلى أن يلاطفنه ، ويحدثنه ، وأن يصغين إلى شعره وخاصة ما قيل فيهن ، بل حدث كثيراً منهن إلى أن يحتلن عليه في اللقاء . وأن يسلكن في احتيالهن شتى الوسائل . لم يكتف عمر بهذا كله ، وفي هذا غناء كثير . بل راح يتغزل متأثراً بما سمع . وقد مر بنا أنه تغزل بزینب بنت موسى الجحیة . لأن ابن أبي عتيق وصفها له ، وأطراها . فشغل بها قلب عمر . وشبب بها ، ونرى أن عمر يقول في زینب هذه :

إن بي داخلا من الحب قد أبلى عظامي مكنونه وبراني

وحب من أبلى عظامه وهدّ قواه ؟

هل حب زینب ، وهو لم يرها ، وهي لم تره ؟

لو كان الأمر كذلك لكان عمر مُفْرِطاً في قوله ، مبالغاً في حديثه . أو يقصد ذات

الحب ، أهاجه في نفسه ذكر زینب ، ووصف زینب ، فثارت عاطفته ، وجالت به ذكريات سريرة ، أبلته ، وأضنته .

وظاهرة أخرى يحدثنا عنها غزل عمر .

إن عمر كان أكثر غزله في موسم الحج ، وفي نساء يفدن من الشام والعراق واليمن ، فإذا قضين الحج ومناسكه عُدْنَ إلى بلادهن وأوطانهن . في هذه الفترة كان عمر يتغزل . وهي فترة قصيرة ، لا يلبثن بعدها إلى عودة ، وإلى رحيل . وكذلك كان عمر لا يكاد يرمى شباكاً ، ويعقد الود بينه وبين امرأة ، ويتغزل فيها ، حتى ترتحل عنه ، فيودعها ، ويأسى على فراقها .

ولهذا نجد في كثير من شعره وصفاً للفراق . ولوعته .

يقول عمر في رَملة بنت عبد الله بن خلف :

أصبح القلب في الحبال رهينا مُقَصِّداً يوم فارق الظاعنين

وفي فاطمة بنت عبد الله بن مروان :

كدت يوم الرحيل أقضى حياتي ليتني متّ قبل يوم الرحيل
لا أطيق الكلام من شدة الخو ف ودمعي يسيل كل مسيل
ذَرَفَتْ عَيْنُهَا وفاضت دموعي وكلانا يلقي بلب أصيل
وفي لبابة بنت عبد الله بن العباس :

ودّع لبابة قبل أن ترحلاً واسأل فإن قلّله^(١) أن تسألا

إلْبَثْ بَعْمَرُكَ ساعةً وتأنّها فلعل ما بخلت به أن يُبذلا

ويقول في عائشة بنت طلحة :

من لقلب أمسي رهيناً معنّى مستكيناً قد شفه ما أجنا

إثر شخص نفسى فدت ذلك شخصاً نازح الدار بالمدينة عنا

ليت حظي كطرفة العين منها وكثيرٌ منها القليل المهنّا

ويقول في الثريا :

زعموا بأن البين بمد غد فالقلبُ مما أزمعوا يحف^(١)
تشكو وأشكو ما أجد^(٢) بنا كلُّ لَوْشِكِ البَيْنِ^(٣) يَغْتَرِفُ^(٤)

وظاهرة أخرى تراها في شعر عمر ، دعا إليها غزله في هذه الكثرة من هؤلاء النساء .

ذلك أنه لا يكاد يرى المرأة الجميلة ، حتى يجهد نفسه ، في الوصول إلى حبها ورضاها ، ويسلك شتى الوسائل ، حتى يظفر بما يريد .

ولعلك ترى صورة من جهد عمر في هذه الأبيات التي قالها في كلم بنت سعد الخزومية ، وقد أبت له وصلا :

من عاشق صبٍ بُسرَ الهوى	قد شفه الوجد إلى كلهم
رأتكِ عَيْنِي فدعاني الهوى	إليك للحنين ولم أعلم
قتلتني يا حبذا أنتم	في غير ما جرم ولا مائتم
والله قد أنزل في وحيه	مبيناً في آية المحكم
من يقتل النفس كذا ظالماً	ولم يُقْدها ^(٥) نفسه يظلم
وأنتِ ثأري فتلافي دمي	ثم اجعليه نعمة تُنعمي
وحكى عدلاً يكن بيننا	أو أنت فيما بيننا فاحكى
وجالسيني مجلساً واحداً	من غير ما عار ولا محرم ^(٦)
وخبريني ما الذي عندكم	بالله في قتل امرئ مسلم

(١) وجف القلب : خفق واضطرب .

(٢) قرب الفراق .

(٣) يقال أقاد القاتل بالقتيل : قتله به .

(٤) ما أجهدنا .

(٥) يصبر .

(٦) المحرم : الحرام .

تأمل هذه الآيات ، ترى كيف جهد عمر ، وكيف طلب رضاها ، وكيف ألحف وتوسل ، حتى وصل إلى ما أراد .

ذكر عمر أنه رآها . ولم يرها كسائر الناس . نظرة عابرة . لا تترك في النفس أثراً . بل رآها وتركت في نفسه الهوى .

ثم ذكر أثر الهوى . وأنه هُلك ، وموت ، وعذاب .

ذكر أنها قتلتها ولم يرتكب جرماً وإثماً . قتلتها ومن شأن القاتل أن يكون بغيضاً إلى الناس جميعاً ، لأنه قتل نفساً حرم الله قتلها . ولن يسكتوا عنه حتى يأخذوا بالثأر منه جزاء ما فعلت يدها . أما القاتل هنا فليس بغيضاً إلى أحد ، بل هو محبوب من القتل ، وأهل القتل .

ثم أخذ يستثير عاطفتها الدينية ، التي تحرم قتل النفس . لعلها تتلافى دمه ، وهي بذلك تكون ذات خير ونعمة ، وإحسان ، ألم ترد إليه روحه ؟ ، بعد أن كان مقضياً عليه بالزوال والفناء ! .

هذه قضية .

فيها جان ، ومجنى عليه .

وكل قضية لا بد لها من قاض ، يقضى بالحق والإنصاف .

وفي هذه القضية يريد لها حكماً ، فهو يرضى قضاءها ، وهو يعرف فيها صفات القاضى النزيه الكريم .

وما أعرف قضية يحلو أن يكون فيها الجانى قاضياً إلا مثل هذه القضية . حيث لا يقدر إنسان — أياً كان — أن يسيطر على قلب الحبيب فيجعله يرضى . ويصل ، ويصفح .

لا يقدر إنسان — أياً كان — أن يسيطر على قلب الحبيب إلا الحبيب . فهو الذى يمنح . وهو الذى يستطيع أن يمنح . وهو الذى يقسو ، ويستطيع أن يلين .

هو وحده الذى نطلب منه البذل والعطاء . فإن لم يعط ، ولم يبذل فلا بذل ولا عطاء .

وقضية عمر هذه يراد أن يكون لها نتيجة طيبة كريمة، هي أن تجالسه كلثم مجلساً واحداً، لا إثم فيه ولا فجور. ويرضى عمر بهذا المجلس الواحد، لأنه يكفل ما بعد ذلك. يكفل أن يخلق بينه وبين كلثم آصرة قوية. تجعل بينهما رباطاً وثيقاً. فهو الرجل السامر، الظريف، المحبوب، وهو الرجل الساحر في حديثه، وفي شعره. وقالوا^(١) في ذلك: إن لشعر عمر بن أبي ربيعة لموقعاً في القلب، ومخالطة للنفس ليس لغيره، ولو كان شعر يسحر لكان شعره سحراً.

وقال له بدّيح: قد سحرتني وأنا رجل!، فكيف برقة قلوب النساء وضعف رأيهن؟ وبهذا الشعر استطاع عمر أن يستهوى قلوب النساء، واستطاع أن يظفر بإعجابهن ورضاهن، إذا اجتمع بهن، واجتمعن به. وهذا ما يطلبه عمر أول الأمر، وبعد ذلك يكون ما يريد. وفعلاً كان ما أراد. فقد جذبها إلى نفسه، وطال مكثه عندها أكثر من مجلس ومجلس.

قالوا:

فكث عندها شهراً لا يدرى أهله أين هو.

وهذا الذي قاله عمر في كلثم قاله في الثريا. قال^(٢):

فيم بالله تقتلين محباً	لك بالوصل مخلصاً بذلاً
ولعمري لئن همت بقتلي	كأبداً قد قتلت قبلي الرجالا
حدثيني عن هجركم ووصالي	أحرماً ترينه أم حللاً
فاحكمي بيننا وقولي بعدلي	هل جزاء الحب إلا الوصالا

وظاهرة أخرى تراها في شعر عمر.

ذلك أنه كان كثير الوصف لما كان بينه وبين النساء من مجالس اللهو والسمر.

وكثرة هؤلاء النساء ، وتعدد المجالس والأماكن التي كان يلقاهن فيها . كل ذلك حداه إلى أن يقول الشيء الكثير .

يقول عمر في زينب بنت موسى :

ولست بناس ليلة الدار مجلساً
خلاء بدت قمرأوه وتكشفت
ويقول^(٢) في امرأة كانت إلفاً له :

أبصرتها ليلة ونسوتها
بيضاً حسناً نواعماً قطفها
قالت لترب لها تلافها
قوى تصدتي له ليعرفنا
قالت لها قد غمزته فأبى
بل يا خليلي عادني ذكري

ويقول^(٤) في فاطمة بنت عبد الملك بن مروان :

يا خليلي شفني الذكركر
ضربوا فخر القباب لها
سلكوا شعب^(٥) النقب بها
وطرقت الحى مكتما
وأخ لم أخش نبوته
فاذا ريم على فرش

(١) الدافن في الرمس وهو القبر . (٢) الأغاني ج ١ ص ١٧٠

(٣) أى أسرعت . (٤) الأغاني ج ١ ص ١٩٦

(٥) موضع بالمدينة . (٦) العضب : السيف القاطع .

(٧) أثر السيف : فرنده . (٨) الحجال : جمع حجلة وهي قبة ترين بالستور والنياب .

حوله الأحراسُ ترقبه نَوْمٌ مِنْ طول ما سهرُوا
شبهُ القتلى وما قُتِلُوا ذاكَ إلا أنهم سَمَرُوا
فدَعَتْ بالويلِ ثم دعت حُرَّةً مِنْ شأنها الخفر
ثم قالت للتي معها وَبَحَّ نفسى قد أتى عمر
ماله قد جاء بطرُقنا ويرى الأعداء قد حضروا
لِسِقَاتِي كانَ . عَلَّقْنَا وَلِحِينِي ساقه القيدر

ماذا وصف عمر في هذه الأبيات ؟

أما مجلسه مع زينب بنت موسى :

فيكفي أن تعرف ماذا كان في هذا المجلس إذا عرفت أن عمر لا ينساه أبداً ،
ما دام على قيد الحياة ، وإذا عرفت أنه كان في خلاء ، وأن الليلة مقمرة ، وأن غاب
الحراس والعواذل .

وأما وصف إلفه التي زعموا أنه مرتبها ، وجلس يتحدث إليها ، فذكر أيامه معها ،
وذكر شعره الذي قاله فيها .

وماذا قال ؟

وصف جمالها ، وجمال النساء اللاتي كن معها ، وهن يمشين بين المقام والحجر .
وصف الجمال الحسى : من البياض ، والحسن ، والنعومة ، والنهود الكواعب .
ثم وصف مشيهن ، ووصف غمزهن ، وشرأ كهن في صيد الرجال .

وأما وصف فاطمة :

فقد حدثنا عن رحيلها ، وعن ركبتها ، وكيف ضربوا لها حمر القباب .
حدثنا كيف زارها ، وأنه أخفى أمر زيارته حتى لا تذاع بين الناس ، واحتمل
معه سيفه ، عدّة له من كل أذى ، ومكروه ، واتخذ صاحباً له ، يكون له في هذا
السفر مَؤَلِّماً ودليلاً .

ثم أخذ يصف حفلهم . وما حوله من سهر ، وسمر ، وما حوله من خدم وحشم .
وإذا كان الأحراس في حال كأنهم نُوم من طول ما سهروا .
وإذا كانوا كأنهم قتل من طول ما سمروا .
فما بالك بالمحروسات ؟

لا شك أنهن كن أكثر سهرًا ، وأكثر سمرًا .
ثم حدثنا عمر كيف كان وقع زيارته ؟
لا شك أن زيارة عمر هؤلاء النساء كانت حبيبة إلى نفوسهن ، يجدن فيها لذة
ومتعة . فهو الشاعر الظريف الأنيس ، وهو الشاعر القاتن ، الشائق . القاتن بحلاوة
حديثه ، الشائق بأدبه وأخباره ونوادره .

وكيف يكون هذا الشاعر بغيضًا إلى أى قلب ؟ وخاصة إذا كان قلب امرأة
عربية ، تتذوق الأدب ، وتتذوق الشعر ، وتتذوق الغزل .
لكن للقوم حرمة ، وهذه سلية الملك ، تخاف أن يحمل الشعر إلى الناس نبأها ،
فيقولوا ، ويقولوا . وقد يكون في هذا القول ما يعكر عليها سيرتها ، أو سيرة الملك ،
الذى تستظل بظله .

لهذا قالت : ويح نفسى ! ولهذا عجبت من زيارته ؟ ولهذا جعلت علاقته بها شقاء ،
وقدومه إليها حينًا ساقه القدر .

تغزل عمر في نساء كثيرات كما رأيت . وكان في غزله لاهيًّا . عابثًا ، يقصد منه
المتعة واللذة ، وفي ذلك يقول :

يفرح القلب إن رآكِ وتستعبر عيني إذا أردت احتمالاً
ولئن كان ينفذ القرب ما از داد فيما أراكِ إلا خيالاً
غير أنى ما دمت جالسة عندي سألوه ما لم تريدى زيالاً
فإذا ما انصرفت لم أر للعيش التذاذاً ولا لشيء جمالاً

كان عمر في غزله لاهياً ماجناً ، ولكن لم يصل إلى لهو ومجون العصر العباسي ،
إذ لم يبلغ من الهذر والأسفاف ما وصل إليه غزل أبي نواس و بشار .
ذلك أن العصر الأموي كان ينجح إلى التمسك بالتقاليد العريضة . وأن ملوك
بني أمية كانوا يرقبون أبناء المهاجرين والأنصار في كثير من الحذر ، لأنهم لا يدينون
لهم بالخضوع والطاعة . وأن هؤلاء الشعراء الذين ينتسبون إلى بيوت قريش لم تكن
تسمح لهم تقاليدهم بالخروج في اللهو إلى حد الفجور والاستهتار ، ولعل ذلك ما جعل
شعر عمر مقبولا من الملوك والخلفاء ، لم ينكروه كما أنكروا غيره ، ولم يرتبوا عليه زجراً
أو عقوبة ، كما فعلوا مع آخرين .

الفصل الثالث

شعراء الغزل

لا نستطيع في هذا الفصل أن نتحدث عن شعراء الغزل في إسهاب وإطناب وفي دراسة وتحليل ، ولو فعلنا ذلك لطال المدى واتسع المجال . ولكننا نريد أن نلم بالملمة عاجلة أو موجزة بهؤلاء الشعراء في عصور الأدب ولعلنا في هذه الملمة نتبين ناحية من نواحي تطور الغزل من حيث شعراؤه ، ومن حيث قلتهم أو كثرتهم ، ومن حيث النهج الذي ساروا عليه ، ومن حيث الغاية التي اتجهوا إليها .

في العصر الجاهلي :

العرب في العصر الجاهلي أهل رحلة وأسفار . يجرّون وراء عيشهم حيث يكون الكلاء والماء ، وهم أهل حرب وقتال .

لهذا كان شعرهم مرآة هذه الحياة التي يحيونها .

فهو شعر حماسة وفخر . يذكرون فيه شجاعتهم وبأسهم . ويشيدون فيه بمفاخرهم . وهو شعر رثاء . يذكرون فيه أكثر ما يذكرون قتلاهم في هذه الحروب ، وفي تلك الوقائع .

وهو شعر مدح . يمدحون فيه رجالهم . وما أوتوا من بأس ، وجود ، وصرورة ، ونجدة .

وهو شعر وصف . يصفون فيه ما رأوا وما شاهدوا في قتلهم وأسفارهم .

ولكنهم بجانب ذلك كله يرون المرأة ، حيث ترعى الغنم ، وحيث المحافل والأسواق الأدبية أو غير الأدبية . وهم مرهفوا الحس ، أصفياء النفس ، مرتاحوا البال . يفتنون ويجرون وراء الإبل . وتصفو لهم السماء . وتلمع الرمال .

فكان ذلك — كما قدمنا — يدعوهم إلى الغزل بالمرأة .

ولكنه غزل مبعثر ، لا يمتد باعهم فيه طويلا ، لأن حياة عيشهم ، وحياة بيتهم غلبتهم على ألوان أخرى من الشعر .

وقد وجد في هذا العصر الغزل الصناعي ، الذي يبدوون به قصائدهم ، وهو غالب كثير . وقد تحدثنا عن هذا النوع فيما مضى .

وغزل آخر قريب من الغزل العذري . يذكر فيه الشاعر حبيبة نفسه ، ويجرى وراء حبه لها ، وهيامه بها .

ولكن شاعرنا في هذا العصر لا يخلو من أحداث أخرى ، وأحوال أخرى تسيطر عليه ، وتملي عليه أن يقول شعراً في هذه الأحداث ، وفي تلك الأحوال . وشاعرنا في هذا العصر لا يمتد به النفس طويلا . فيجول ويصول مع حبيبته ، فيخرج لنا هذه الصور الرائعة ، من قصائد الغزل ، التي تكاد تكون قصصاً فيها خيال ، وفيها جمال . ومن هذا النوع :

١ — ما كان من امرئ القيس حيث أحب ابنة عمه — عزيزة بنت شرحبيل — ، وتغزل فيها ، ووصف محاسنها ، وتحدث عن حاله معها ، وذلك في معلقته المشهورة :

قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل
تقرأ هذه المعلقة ، فترى فيها تصويراً دقيقاً ، ووصفاً رائعاً ، وتحليلاً لما يقع بين الحبين .

كان امرؤ القيس يحب عزيزة . وكان أن حالوا بينه وبينها . ولكنه أخذ يعمل الحيلة حتى وصل إلى أمنية طيبة إلى نفسه . وكان أن ظعن الحى . فاغتنم امرؤ القيس الفرصة ، ومن عادة العرب أن يظعن الرجال أولاً ، ثم النساء . تخلف امرؤ القيس عن الرجال ، وسبق النساء إلى طريق ظمنهن وفي هذا الطريق غدير بنجد يسمى « دائرة جلجل » . اختبأ امرؤ القيس قريباً من هذا الغدير ، وترقب مجيء النساء ،

وفيهن حبيبة قلبه عنيزة . وما ان جاء النساء حتى نزعن ثيابهن ونزلن في الماء ، يبتدرن من حرارة الشمس . وجد امرؤ القيس الفرصة سانحة ، فبرز من مخبئه ، وجمع الثياب ، وخرج النساء جميعاً ، وأخذت كل واحدة ثيابها . وأفلح تدبيره إذ اجتمع النساء حوله ، وفيهن عنيزة . وكان مجلس حلو جميل ، جمع إلى شراب الخمر حلاوة الحديث ، وأكرمهن امرؤ القيس بأن عقرهن ناقته ، وأخذن يشوين لحما حتى شبعن . ولما حان الرحيل . وركب النساء رواحلهن ، بقى امرؤ القيس دون مركب . وكان من أحب شيء إلى نفسه أن يركب مع عنيزة ، وعرف النسوة ذلك ، فساعدنه ، وأغرين عنيزة به ، حتى حملته معها ، وكان الرحيل حلواً جميلاً . لأنه بجانب حبيبته ، يراها ، وتراه ، ويتحدث إليها فتصفي إليه .

أليس ذلك غزلاً جميلاً . يكاد يكون قصة جميلة .

بلى .

٢ — وعنقرة وقد أحب عبلة بنت عمه . يذكرها في كثير من أشعاره ، ويتحدث إليها حديث الحب والهوى . ويقولون^(١) إن أول معلقته :

يا دار عبلة بالجواء تكلمى وعمى صباحاً دار عبلة واسلمى

أما امرؤ القيس فلم يقل في حبيبته — عنيزة — قصيدة كاملة إلا المعلقة ، وكانت له في أبواب الشعر الأخرى جولات صادقة ، من حماسة ووصف . وعنقرة في معلقته لم يكن لحبيبته — عبلة — حظ إلا في أولها ، حيث ذكر ، وخاطب ديارها ، وشكا ألم البعاد ، وحرقة الهوى . وخلص من ذلك كله إلى الفخر والحماسة .

٣ — والمرقش الأكبر ، وقد أحب أسماء ابنة عمه ، وطلب أن تكون زوجة له ، وطلبها من أبيها ، فقال له : لا أزوجك حتى تُعرف بالبأس ، وفي سبيل هذا البأس

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ ص ١١٨

ارتحل المرقش ، وفي أثناء رحيله أتى عمه رجل ، أغراه بالمال فزوجه أسماء ، وقال المرقش في ذلك شعراً ، ومن ذلك قوله في مطلع قصيدة في الحماسة :

أمن آل أسماء الطلول الدوارس تخطط فيها الطير قفر بسابس^(١)

هؤلاء الشعراء الأربعة ، ومن على شاكلتهم قالوا شعراً . قالوه في امرأة شغفوا بها حباً ، ولعلك تلاحظ أن هذه المرأة ابنة عم لهذا الشاعر ، كان يهيم بها ، وكان يريد لها زوجة له . وهذا الشعر من الغزل قريب من الغزل العذرى .

وقلنا إنه قريب لأن هؤلاء الشعراء لم ينفردوا في شعرهم بالغزل وحده ، بل غلبتهم أحداث أخرى قالوا فيها الشعر ، وجودوا ، ولم يُفردوا القصيدة كلها التي يذكرون الحبيبة — بالغزل وحده .

وهو قريب من الغزل العذرى لأننا لا نرى فيه القلب الخالى إلا من حب هواه ، ولا نرى فيه الحرارة التي تعبر عن العاطفة الملهبة ، التي تحس وأنت تقرأ شعرها كأنك مدفوع بقوة قاهرة ، هي قوة الإخلاص والوفاء .

في صدر الإسلام وفي العصر الأموي :

إن شيئاً واحداً غلب هذا العصر ، وطبعه بطابعه ، ذلك هو الدين الجديد :

كتابه القرآن . ورسوله محمد الأمين .

شغل العرب بهذه الدعوة ، وبهذا الدين .

شغلوا بها ، إما مؤيدين ، وإما معارضين ، واتجهوا أو اتجه كثير منهم إلى القرآن يدرسونه ، ويفهمونه ، ويشرحونه ، كما اتجه كثير منهم إلى الخطابة يرتقون منابرهم .

شغلوا بما تتطلبه هذه الدعوة من جهود ، وجهاد ، ومن فتح القلوب والبلاد .

حتى يكون الدين كله لله .

(١) جمع بسبس وهو القفر .

ضعف جانب الشعر ، وبالتالي ضعف جانب الغزل فيه ، بل كان الغزل أكثر ضعفاً ، لأن الشعر في بعض أغراضه الأخرى لا يزال قائماً ، وإن لم يكن بالكثرة التي وجدت من قبل ، ذلك أن الإسلام يصون المرأة من العبث ، ويحمي المحصنات من أن تلوك سيرتهن الرجال .

ولعلك تعرف أن الغزل لا يقوم إلا حيث تكون الدعة والراحة والطمأنينة ، وإلا حيث تكون الرغبة من جمهرة الفارثين أو السامعين ، وحيث يكون رضا الحاكم وتشجيعه . وهذه العوامل لم تكن قائمة في العصر الإسلامي الأول . ولهذا لم يخلص إلينا من شعر الغزل في هذه الفترة ما يصح أن نتحدث عنه .

وإذا قرأنا شيئاً منه ، وإن كان قليلاً فهو من الغزل الصناعي ، لا يعدوه ، إلى ما ذكرنا من أنواع أخرى .

أما في العصر الأموي فقد استقر الدين ، ودخل الناس فيه أفواجاً ، فاتسع سلطان العرب ، واتسعت دولتهم ، فلم يكن بد من الراحة والاستجمام ، يجنون ثمار الفتوحات ، ويستظلون في ظلال الملك .

نعم وجد صراع . ووجدت جماعات وأحزاب . كانت تحترب في سبيل الغلبة : الغلبة على الملك . والغلبة على الحياة .

قام هذا الصراع في الشام والعراق . أما الحجاز فكان بعيداً عن هذا الصراع ، وأدى هذا إلى نشوء نوعين من الغزل : الغزل العذري ، والغزل الماجن . وقد بسطنا ذلك من قبل . ووجد بجانب الغزل العذري ، والغزل الماجن — الغزل الفنى .

وجد الغزل بأنواعه الثلاثة في هذا العصر . وغنى الغزل في هذا العصر بثروة في الشعراء ، وثروة في الشعر ، وثروة في الألفاظ والمعاني . وكان للشعر في العصر الأموي طابعان :

طابع الشعر السياسى ، دعت إليه طبيعة الملك ، وما يتصل به من احتراب واختلاف ، ووجود شيع وأحزاب . وتبع هذا الشعر السياسى : المدح . والمهجاء . مدح الأنصار والأشياء . وهجاء الخصوم والأعداء .

وطابع الغزل . دعا إليه ما بسطنا من عوامل وأسباب . ولا ضرورة للإفاضة فى غير شعراء الغزل . فليس هذا مكانه الآن . أما شعراء الغزل فيربى عددهم على العشرين .

ذكرنا من شعراء الغزل فى شيء من البسط والبيان جميل بن معمر العذرى ، وهو زعيم الغزل العذرى . وعمر بن أبى ربيعة ، وهو زعيم الغزل الماجن . وللآخرين نهج فى الغزل قد يكون مثل نهج جميل ، أو نهج عمر ، أو يختلف عنهما ما بعض الاختلاف . ومن هؤلاء الشعراء :

١ — قيسُ بن الملوِّح . ويدعى بمجنون ليلي ، نسبة إلى ليلي التى اشتهر بحبه لها . ولم يعرف أنه تغزل فى غيرها . وسواء كانت سيرة قيس ، وما حاطها من شعر وقصة من نسج الحقيقة والخيال . فإن ما نسب إليه من شعر كان قائماً ، يمثل العصر الذى نتحدث عنه . ولا يكاد يختلف فى كثير عن أترابه .

ويقول فى ليلي هذه :

أُعِدَّ اللَّيَالَى لَيْلَةً بَعْدَ لَيْلَةٍ	وَقَدْ عَشْتُ دَهْرًا لَا أُعِدُّ اللَّيَالِيَا
أَرَانِي إِذَا صَلَّيْتُ يَمُتَ نَحْوَهَا	بِوَجْهِى وَإِنْ كَانَ الْمُصَلَّى وَرَائِيَا
وَمَا بَى إِشْرَاكَ وَلَكِنْ حُبَّهَا	كَعُودِ الشَّجَا أَعْيَا الطَّيِّبِ الْمَدَاوِيَا
أَحِبُّ مِنَ الْأَسْمَاءِ مَا وَافَقَ اسْمُهَا	وَأَشْبَهَهُ أَوْ كَانَ مِنْهُ مَدَانِيَا

٢ — قيس بن ذريح ، وصاحبته لبنى . التى أحبها ، وأخلص لها فى الحب ، وأصابه فى سبيل حبها عذاب وسم وهلاك . وحب قيس لبنى قصة رائعة ، تتمثل فيها ألوانا من الوفاء ، ومن الإخلاص .

يقول قيس :

بِتِ وَالْهَمُّ يَا لَيْدِي ضِجِي
وَتَنَفَسْتُ إِذْ ذَكَرْتُكَ حَتَّى
أَتَنَاسَاكَ كَى مُرِيغِ فَوَادِي
يَا لُبَيْنَى فَذَنَّاكَ نَفْسِي وَأَهْلِي

ويقول :

يَقْرُؤُ بَعْنِي قُرْبُهَا وَيَزِيدُنِي
وَكَمْ قَاتِلٍ قَدْ قَالَ : تَبُّ فَعَصِيَّتِهِ
فِيَا نَفْسُ صَبْرًا لَسْتَ وَاللَّهِ فَاعْلَمِي
بِهَا كَلَفًا مِنْ كَانَ عِنْدِي يَعْصِيهَا

٣ — وعروة بن حزام العذري . أحب عفراء بنت عمه . ويكاد يكون شعره
مقولا فيها وحدها . وقد أصابه من الحب سهام أضنته ، حتى بدا عليه الضعف والهزال .
وقد رآه عراف اليمامة فسأله عما به ، فقال له عروة : هل لك علم بالأوجاع ؟ قال : نعم .
وفي ذلك يقول عروة^(١) :

مَا بِي مِنْ خَبَلٍ وَلَا بِي جَنَّةٌ
أَقُولُ لِعَرَّافِ الْيَمَامَةِ : دَاوْنِي
وَلَكِنْ عَمَى يَا أُخْتِي كَذُوبٌ
فَإِنَّكَ إِنِ دَاوَيْتَنِي لَطِيبٌ
فَوَا كَبَدًا أَمَسْتَ رَفَاتًا كَأَنَّمَا
يَلْدَعُهَا بِالْمَوْقِدَاتِ طِيبٌ

٤ — توبة بن الحمير . أحب ليلي الأخيلية . ومات في سبيل حبها .

وفيها يقول :

وَهَلْ تَبْكَيْنِ لَيْلَى إِذَا مِتُّ قَبْلَهَا
كَمَا لَوْ أَصَابَ الْمَوْتَ لَيْلَى بِكَيْتِهَا
وَقَامَ عَلَى قَبْرِ النِّسَاءِ النَّوَائِحُ
وَجَادَلَهَا دَمْعٌ مِنَ الْعَيْنِ سَافِحُ
بَلَى ، كُلُّ مَا قَرَّتْ بِهِ الْعَيْنُ طَائِحُ
وَأُغْبِطُ مِنْ لَيْلَى بِمَا لَا أَنَالَهُ

ولو أن ليلى الأخيلية سَدَّتْ على ودوني جندل^(١) وصفاً^(٢)
 لسلّمت تسليم البشاشة أوزاقاً^(٣) إليها صدّي من جانب القبر صامح
 ٥ — كُثِّبَ بن عبد الرحمن ، يعرف بكثير عزة ، نسبة إلى عشيقته عزة ، بنت
 حميد بن وقاص .

وفيهما يقول :

خليليّ هذا رَسْمُ عَزَّةَ فاعقلا فلو صيكا ثم ابكيا حيث حَلَّتْ
 وما كنت أدري قبل عزة ما البكا ولا موجعات القلب حتى تولّت

فقلت لها يا عز كل مصيبة إذا وُطِّئَتْ يوماً لها النفس ذلت
 أسئني بنا أو أحسنى ، لا ملومة^١ لدينا ولا مقلية^٢ إن تقلّت
 هنيئاً صريئاً غير داءٍ مُخامرٍ لعزّة من أعراضنا ما استحلّت
 ٦ — يزيد بن الطُّثريّة . أحب امرأة من جرّيم يقال لها وَحْشِيّة .

وفى ذلك يقول :

بنفسى مَنْ لو مرَّ بَرْدُ بنانه على كبدى كانت شفاه أنا له
 ومن هابنى فى كل أمر وهيبته فلا هو يعطينى ولا أنا سائله
 وزار بيوتاً لبني جعفر ، ورأى هناك أسماء الجعفرية ، وقال فيها متغزلاً :
 فإن تمنعوا أسماء أويك نفعها لكم ، أو تدبّوا بيننا بالغوائل
 فلن تمنعوني أن أعللُ مُحبتى على كل شىء من مدى العين قابل
 ويقول :

هيبنى اسرواً إما بريئاً ظلمته وإما مسيئاً تاب منه وأعتبا
 وكنت كذى داء تبغى لدائه طيباً فلما لم يجده تطيبا

(١) الجندل : الصخر العظيم . (٢) الصفاً : الأحجار العريضة . (٣) زقا الطائر : صاح .

٧ — الأحوص . وقد تغزل في نساء كثيرات . تغزل في أم جعفر وهي امرأة من الأنصار وفيها يقول :

هيبني امرأة إماماً بريئاً ظلمته
فلا تتركى نفسى شعاعاً فإنها
إلى الله ، إلى واصل ما وصلتني
وأخذ ما أعطيت عفواً وإني
وتغزل في سلامة القس المغنية :

أسلام ، إنك قد ملكت فأسججى
منى على عانٍ أطلت عناه
إني لأنصحكم وأعلم أنه
وإذا شكوت إلى سلامة حبها
كما تغزل بالذلفاء :

٨ — عبدالله بن قيس الرقييات ، وكان من شعراء السياسة ، ومن أنصار عبد الله ابن الزبير ، ومن المعارضين لبنى أمية . وكان غزلاً رقيقاً ، وكان غزله أداة لإشباع هواه السياسى . ذلك أنه كان يذكر نساء خصومه السياسيين . ويتخذ من ذكرهن وسيلة إلى حرب هؤلاء الخصوم . خاصم بنى أمية فتغزل في أم البنين امرأة الوليد ابن عبد الملك وبنت عبد العزيز بن مروان . ونرى في شعره أنه كان يحب النساء جميعاً ، ونرى في روح هذا الشعر أنه كان ينزع في هذا إلى مثله العليا في الجمال . وتغزل أيضاً في رقية بنت عبد الواحد ، وفي كثيرة ، وثريا ، وسعدة ، وسلامة .

يقول ابن قيس الرقيات في كثيرة :

عاده من كثيرة الطرب
كوفية نازحاً محلها
فعينه بالدموع تنسكب
لا أمم دارها ولا صقب

والله ما إن صَبَّتْ إِلَى وَلَا
إِلَّا الَّذِي أَوْرَثَتْ كَثِيرَةً فِي الْقَدَا
وَيَقُولُ فِي رُقِيَّةَ :

رُقِيَّ بَعِيشَكُمْ لَا تَهْجُرِينَا
عَدِينَا فِي غَيْرِ مَا شِئْتُ إِنَّا
فَأَمَّا تَنْجِزِي عِدَّتِي وَإِنَّمَا
وَمَنِينَا الْمَنَى ثُمَّ امْطَلِينَا
نَحْبُ وَإِنْ مَطَلْتِ الْوَاغِدِينَا
نَعِيشُ بِمَا نُوْمَلُ مِنْكَ حِينَا
٩ — العرجي .

من شعراء قريش الذين شهروا بالغزل . نحا في ذلك نحو عمر بن أبي ربيعة ، وكان مشغوقاً باللهو والصيد . شَبَّبَ بجيداء — أم محمد بن هشام بن اسماعيل الخزومي — وكان ينسب بها هجاء لابنها — محمد بن هشام خال هشام بن عبد الملك — وكان والياً على مكة . وفيها يقول :

عوجي علينا ربةَ الْهُودَجِ
إِنِّي أَتَيْتُكَ لِي يَمَانِيَّةٌ
نَلْبَثُ حَوْلًا كَلَمَلًا كُلَّهُ
فِي الْحَجِّ إِنْ حَجَّجْتَ، وَمَا ذَامِنِي
أُبَسِّرُ مَا نَالَ مُحِبٌّ لَدِي
نَقْضٍ إِلَيْكُمْ حَاجَةً أَوْ نَقْلٍ
إِنَّكَ إِنْ لَا تَفْعَلِي تَخْرَجِي
إِحْدَى بَنِي الْحَارِثِ مِنْ مَذْحِجٍ
مَا تَلْتَقِي إِلَّا عَلَى مَنْهَجٍ
وَأَهْلُهُ إِنْ هِيَ لَمْ تَخْجُجِجِ
بَيْنَ حَيْبٍ قَوْلُهُ عَرَّجِ
هَلْ لِي مِمَّا بِي مِنْ مَخْرَجِ

كما شَبَّبَ بزوجه — جَبْرَةَ — وفيها يقول :

عوجي على فسلمي جَبْرُ

وتغزل العرجي في أم الأوقص — محمد بن عبد الرحمن الخزومي — وفي عاتكة زوجة طرُح بن إسماعيل الثقفي . كما تغزل في كُثْلَابَةَ مولاة لثقيف ، كانت عند عبد الله بن قاسم الأموي .

وفيها يقول :

نالت كَلَابَةً : من هذا فقلت لها
وأنا امرؤ جدي حب فأعرضني
لا تكليني إلى قوم لو أنهم
وأعني نعمة تُجْزَى بأحسنها
سَرُّ المحبِّين في الدنيا لعلهم
هذي يمينٌ رهْنٌ بالوفاء لكم
١٠ — النُمَيْرِي .

أنا الذي أنتِ من أعدائه زعموا
حتى بليت وحتى شفني السقم
من بغضنا أطمعوا الحى ، إذا طعموا
فطالما مسنى من أهلك النعم
أن يُحدثوا توبةً فيها إذا أئموا
فأرضى بها ولأنف الكاشح الرغم^(١)

من شعراء الغزل في الدولة الأموية . كان يهوى زينب بنت يوسف بن الحكم
أخت الحجاج بن يوسف . وفيها يقول :

فوالله ما أنساك زينبُ ما دعت
فإن احتمال الحى يوم تحملوا
ومُرْسلةٌ في السر : أن قد فضحتني
وأشمت بي أهلى وجُلَّ عشيرتى
وقد لآمنى فيها ابن عمى ناصحاً
١١ — ابن ميادة :

مطوّقةٌ ورقاه شجّواً على غصن
عناك وهل يعنك إلا الذى يعنى
وصرّخت باسمى فى النسب فما تكنى
ليهنتك ما تهواه ، إن كان ذايهنى
فقلت له : خذ لي فؤادى أودعنى

كان ينسب بأم جَعْدَر — بنت حسان المربية إحدى نساء بني جذيمة — وله
فيها شعر كثير . وغزل كثير ، وشئون كثيرة . وفيها يقول :

ألا ليت شعرى هل إلى أمّ جَعْدَر
فإن يك نذرٌ راجعاً أمّ جَعْدَر
سبيل ؟ فأما الصبر عنها فلا صبرا
على لقد أودمت^(٢) في عنق نذرا

(١) مثلثة الراء مع سكون الغين ، وحركت لضرورة الشعر . والرغم : الذل . وأصله
من أن يلتصق أنفه بالرغام وهو التراب .

(٢) أودم على نفسه كذا : أوجب .

وإني لأستنشى^(١) الحديث من أجلها لأسمع منها وهي نازحةٌ ذِكرًا
وإني لأستحي من الله أن أرى إذا غدر الخُلانُ أنوى لها غدرا
وشبب ابن ميادة بزینب بنت مالك . كما تغزل في امرأة من بني حرام يقال لها :
أم الوليد ، رآها وأعجب بها . وقال فيها :

ألا حبذا أمُّ الوليدِ ومرَّبعٌ لنا ولها نشوبه ونصيفُ

وهناك من شعراء الغزل عدا من ذكرنا كثيرون :

الحارث بن خالد الخزومي : يهوى عائشة بنت طلحة

أبو دَهبل الجُمحي : يهوى امرأة من قومه اسمها « عمرة »

المخبل القيسي : يهوى ابنة عمه مَيْلًا

ذو الرُّمة : وصاحبته مَيَّة

هذه طائفة من شعراء الغزل في هذا العصر ، وهم من الكثرة إلى حد كبير .
ولعل هذه الكثرة تعطيك صورة صادقة عن الغزل في هذا العصر ، من حيث
إقبال الشعراء عليه ، ومن حيث استماع العرب إلى وحي الشعراء ، ومن حيث البيئة
التي طبعت هؤلاء بحب الغزل ، ونفدت إلى أولئك فجودوا ووقعوا على مزاهر شعرهم
هذا النغم الحلوا الجميل ، وهذا الوحي لما تجيش به صدور المحبين .

كثير من هؤلاء الشعراء آثروا شعر الغزل ؛ على ما عداه من سائر أبواب الشعر
فلم يقولوا في مدح أو هجاء ، أو وصف أو رثاء ، أو حماسة وزهد ، وبعض هؤلاء
الشعراء قالوا في أبواب أخرى ولكنهم لم يجودوا ، ولم يكثرُوا إلا في شعر الغزل .

وهناك شعراء آخرون غنى بهم هذا العصر :

فالأخطل ، وجريز ، والفرزدق من فحول شعرائه .

وقد غلب على شعر هؤلاء المدح والفخر والهجاء .

(١) استنشى الحديث : تفرقه وبحث عنه .

ولكن جريراً كان مجوداً في الغزل كما كان مجوداً في المدح والهجاء ، كما أن الأخطل قال في النسيب وإن لم يكن قوله كثيراً .

وهناك جبهة من شعراء السياسة يحسن أن نشير إلى أن طائفة منهم قالوا في الغزل ومن هؤلاء :

ابن مفرغ الحميري ، والراعي ، وأبو صخر الهذلي . ويهس الجرمي ، واسماعيل ابن يسار .

وهل عرفت بعد هذا ماذا أسدى عصر بني أمية إلى شعر الغزل ؟ وكيف كان الغزل في هذا العصر أكثر نمواً وأكثر ازدهاراً في أي عصر سابق أو لاحق ؟

فقد نشأت في هذا العصر ألوان من الغزل لم تكن قائمة ، ونال بعض هذه الألوان حظ من الانتشار والازدهار لم تنله إلى وقتنا الحاضر .

كما غنى هذا العصر بطائفة من شعراء الغزل أضفوا على الشعر ثروة جديدة من الألفاظ العذبة والمعاني الرائعة والأخيلة الشائقة الجذابة .

كم نحن مدينون لهذا العصر في شعر الغزل بالشيء الكثير ! وقد رأيت شيئاً من ذلك فيما قدمنا من بسط وبيان ، وسترى ذلك مفصلاً حين نتحدث عن سائر كتب الغزل .

في العصر العباسي :

عرفت فيما سبق كيف أن الشعر نما في العصر العباسي نحواً آخر يخالف منحاها في العصر الأموي .

فقد أصبح العرب في حال من الترف والغنى والثروة ، فليجنوا هذه الثمار ، وليكن لهذا الجنى أثر في معاشهم ، وفي أديهم الذي هو ترجان هذا المعاش .

وأصبح العرب في حال من الملك والسياسة ، وفي حال من اختلاط بالأعاجم ، بل

من سيطرة هؤلاء الأعاجم على مظاهر الحكم ، ومظاهر العيش ، ومظاهر الأدب .
تأثر الشعر بكل هذا ، فإما الغزل الماجن ، وضرب فيه الشعراء بسهم وافر .

فقد ابتعد الشعراء إلى حد ما عما كان يصورهم من قرب البداوة ، ومن قرب
الوازع الدينى ، ومن قرب رعاية التقاليد التى كانت مألوفة فى ذلك الحين ، وجاء نوع
جديد كله ثورة على القديم ، وكله ثورة على ما كان معروفاً من نظم وأوضاع .

جاء بشار وأبو نواس ، وهما من أصل فارسى ، يحملان نوعاً جديداً من الأدب
ومن الشعر ومن الغزل .

كنا نجد بعض بدايات القصائد من الغزل : أما فى هذا العصر فقد كثرت البدء بوصف
القصور ، ومجالس اللهو ، وإخوان السمر ، وغناء القيان ، أو بوصف الخمر وما يتصل
بهذا الوصف .

وكنا نجد الغزل العذرى ، ونجده بكثرة وقوة فى العصر الأموى ، أما فى هذا
العصر فقد غاب واحتجب لأن أسبابه لم تعد قائمة فى هذا العصر ؛ ولأنه وجد فى هذا
العصر من العوامل والأسباب ما ينافى الغزل العذرى .

وكنا نجد غزلاً ماجناً فى العصر الأموى ، ولكنه لم يصل إلى حد من الفحش
والاستهتار ، كما وصل فى العصر العباسى على يدى أبى نواس وبشار ومن لفّ لفّها .
وقد سبق أن قلنا : إن الغزل بالمذكّر قد نبت فى هذا العصر ، وقد نشأ على أيدي
هؤلاء الشعراء الذين نسلوا من أصل فارسى ، أو تأثروا بهؤلاء الفرس .

ويكاد ينقسم شعراء هذا العصر قسمين :

شعراء الموالى الذين نشئوا من أصل فارسى ، أو كان لنفوذ الفرس والأعاجم أثر
قوى فى شعرهم ، وفى منحاهم الشعرى .

ومن هؤلاء بشار ، وأبو نواس ، وابن الرومى ، وأبو العتاهية ، ومسلم بن الوليد .
وحسين بن الضحّاك ، وسلم الخاسر ، وحمّاد مجرد .

وشعراء العرب الذين بعدت بهم مناعتهم ، وبعد بهم حفاظهم عن أن يسلكوا
في شعرهم ما سلكه الموالي ، أو أشياعهم .

ومن هؤلاء : أبو تمام ، والمتنبي ، والبحتري ، والمعري ، والعباس بن الأحنف ،
وابن خفاجة ، وابن هانيء .

أما القسم الأول :

فقد نحنا بالشعر منحى قريباً إلى ما يوافق هوى شعرائه ، ويوافق البيئة التي
أحاطت بهم ، والعوامل التي أثرت فيهم . يوافق تجنبهم لأوضاع العرب ، وتهجين
لتقاليدهم المعروفة .

وكيف كان ذلك ؟

سبق أن أشرنا إلى أن بشاراً وأبا نواس عابا على الشعر العربي البدء بوصف
الأطلال والدمن ، ودعوا إلى وصف الخمر ، ومجالس اللهو .

وأشرنا إلى أن هؤلاء الشعراء في هذا العصر وصفوا الخمر في كثير من الإسراف ،
وكثير من التبذل ، وكثير من الاستهتار : وصفوا الخمر في دنائها ، وفي كؤوسها ،
كما وصفوا الساقى ، ومجالس الشراب ، وما يقع فيها من هذر ، وهزل ، وعبث ، ومجون .

وأشرنا إلى أن هؤلاء الشعراء خرجوا من الغزل بالموث إلى الغزل بالمذكر . وصفوا
حسنه وجهه ، وتجنّبه ودلاله ، وصفوه في بسط ، وقالوا فيه كما بسطوا في المرأة وقالوا .

وأشرنا إلى أن هؤلاء الشعراء خرجوا من غزل القلب والروح ، أو غزل الألفاظ
والمعاني ، إلى غزل حسي عابث ، يمثل هذا الفحش الذي طبع طائفة من هؤلاء

الشعراء على تلك الصورة ، التي لم تكن معروفة من قبل .

هذه المعاني نجدها ظاهرة ، واضحة الظهور في شعراء القسم الأول . وإن لم يكن
وجودها عند الجميع على حد سواء .

وصف هؤلاء الشعراء الخمر ، وأسرفوا في الوصف :

يقول بشار :

يا ابن موسى أسقني ودع عنك سلمى إن سلمى حمى وفى احتشام
رُبَّ كأس كالسلسبيل تعلّلت بها والعيون عنى نيام
حُبستْ للشُّراة فى بيت رأس^(١) عتقتْ عانساً عليها الختام
نفحتْ نفحةً فهزتْ ندى بنسيم وانشق عنها الزكام
وكانَ المعلولَ منها إذا را ح شجرٍ فى لسانه برسام^(٢)
صدمته الشمولُ حتّى بعينيه انكسارُ وفى المفاصل خام^(٣)
وهو باقى الأطراف حيّ به الكأ س وماتت أوصاله والكلام
وفتى يشرب المدامة بالما ل ويمشى يروم ما لا يُرام
أنفدتْ كأسه الدنانيرَ حتّى ذهب العينُ واستمر السوام^(٤)
تركته الصَّهباءَ يرنو بعين نام إنسانها وليست تمام
جُنّ من شربة تعلّ بأخرى وبكى حين سار فيه المدام
ويقول أبو نواس :

غننا بالطلولِ كيف بدينا وأسقنا نعطك الشاء الثمينا
من سُلّافٍ كأنه كل طيب يتمنى مخبر أن يكونا
أكل الدهر ما تجسّم منها وتبقى لبابها المكنونا
ثم شجّتْ فاستضحكت عن لالٍ لو تجمّعن فى يدٍ لاقتنينا
وإذا ما لمسنا فهباء تمنع الكفّ ما تُبيحُ العيونا
فى كؤوس كأنهن نجومٌ جارياتٌ بروجها أيدينا
طالعاتٌ من السُّقاة علينا فإذا ما غرّبن يغربن فينا

(١) اسم قريتين إحداهما فى بيت المقدس والأخرى فى حلب . (٢) كلمة فارسية يقصد بها الهديان

(٣) قد يكون المعنى أن يكون بالمفاصل ارتخاء (٤) العين : الذهب . واستمر : ذهب .

والسوام : الابل الراعية والمراد بها هنا المال الراعى كالسائمة .

لو ترى الشرب حولها من بعيد قلت : قوم من قرة يظلمونا
وغزال بديرها بينات ناعمات يزيدنها العسر لينا
ذاك عيش لو دام لي غير ، أتى عفته مكرها وخفت الأمانة
أدر الكأس حان أن تسقينا وانقر العود إنه يلهينا
ودع الذكر للطلول إذا ما دارت الكأس يسرة ويمينا

فانظر كيف وصف بشار وأبو نواس الخمر هذا الوصف الرقيق الدقيق . طلب
بشار أن يسقى الخمر ، فهي حبيبة إلى نفسه ، قريبة إلى هواه ، وذكر أنه راغب عن
المرأة ، فهي بعيدة عنه ، وفيه احتشام ، وإن كنا لانصدق أن فيه احتشاما ، يمنعه
عنها ، ويجعله يجفوها ، وهو ما نعرف غير ذلك .

ثم أخذ يصف الخمر ، وأنها معتقة ، يتعملل بها والناس من حوله نؤم ، وهو
الساهر اليقظان .

ثم أخذ يصف أثر الخمر في صاحبها :

عقله كالغائب فهو يهذى ، وفي عينيه انكسار ، وفي مفاصله ارتخاء ، وفي أوصاله
موات . وكأنه مجنون لا يعي ما يقول .

وكيف وصف الخمر أبو نواس ؟

فعل مثل صاحبه بشار . في أن أقبل على الخمر ، واطرح من عداها . وكلاهما
اطرح المرأة . ولكن بشارا صرح بها ، أما أبو نواس فقد صرح بأثر من آثارها ،
وهي الأطلال والدمن .

وكذلك وصف أبو نواس الخمر ، وكان وصفه دقيقا جميلا . وصف طيبها ، وأنها
معتقة ، أكل الدهر ما تجسم منها ، ووصف نقاءها وصفاءها ، ووصف حبها ولآلها
الضاحكة الباسمة .

ثم وصفها في الكؤوس ، وما أجمل تشبيهه الكؤوس بالنجوم ! وما أجمل خياله
في طلوع هذه النجوم وغروبها !

ثم وصف تجمع الشاربين حولها كأنهم يصطلون من قرّة البرد .
ووصف الساق ، وأنه كالغزال ، ناعم البنان .

فأنت ترى من هذا أن بشارا وأبا نواس يتفقان في صور ، ويختلفان
في أخرى .

يتفقان في أن كليهما يميل إلى الخمر بقلبه وهواه . ويتفقان في وصف الخمر .
ويفترقان في أن بشارا ذكر أثر الخمر في صاحبها ، ولم يفعل ذلك أبو نواس .
ويفترقان في أن أبا نواس وصف الكؤوس ، ووصف الساق ، ووصف الشاربين
وتجمعهم ، وتزاحمهم ، ولم يفعل ذلك بشار .

هذا مع ما ترى من اختلاف في تخيل هذه الصور .

وانظر بعد ذلك أي الوصفين أقرب إلى التأثير في نفسك وقلبك .
كما وصف الخمر ابن الرومي ، وحسين بن الضحاك ، وسلم ، وحامد .

* * *

ووصف هؤلاء الشعراء مجالس اللهو ، وأسرفوا في الوصف :

يقول حسين بن الضحاك :

ما لأنس كان مبتذلا	منك لي بالأمس لم يُعد
إيه قل لي غير محشم	هل دهاني فيك من أحد
حبذا والكأس دائرة	لهوًا والصّيد بالطرد ^(١)
وحديث في القلوب له	أخذ ^(٢) يصدغن في الكبد

(١) الطرد . مزاولة الصيد ، يقال طرد — بكسر الراء — زاول الصيد وتبعه .

(٢) الأخذة : الرقية كالسحر يؤخذ بها .

يوم تعطيني وتأخذها دون تدماني يداً بيد
فإذا ألويت^(١) هيجني تلمع^(٢) من ظيبة البلد
وإذا أضغيت ذكرني نشر كافور على برَد
ذاك يوم كان حاسداً فيه معذوراً على الحسد

ماذا وصف حسين بن الضحاك ؟

وصف مجلساً من مجالس لهو ، كان يغازل فيه غلاماً اسمه « يُسر » ، وقد أصاب حسيناً من هذا الغلام صدٌّ ودلال . فأخذ يتساءل حسين : ماذا دهأه في هذا الغلام ؟ وماذا غيرت الأيام ؟ وقد كان الأنس بينهما بالأمس مبتذلاً .

ثم أخذ يصف هذا اللهو ، وما فيه من خمر ، وصيد ، وما فيه من حديث وسمر . وقد اعتاد المحبون أن يكون لهم حاسدون يعذلونهم ، ويرقبونهم . وهؤلاء الحاسدون نعمة وبلاء على الأحباب والأصحاب . يكرهونهم ، ولا يرضون ما يفعلون . أما هذا اليوم فمتع لذيد . يفوق كل إمتاع ولذة . ولذلك كان حاسدوه معذورين إن غاظهم ما رأوا ، فحسدوا ، وكرهوا أن يكون لغيرهم هذا النعيم .

وتفزل هؤلاء الشعراء بالمدح :

تفزل بالمدح أبو نواس ، وحسين بن الضحاك ، وابن الرومي ، وحماة .
يقول ابن الرومي :

أيها الذاهلُ عني نمت عن لا ينال
طال بي صدك والصد على الصب غرام
من يكن من أمة الحسن فمن أهوى إمام
هو بالدل فتاة وهو بالزى غلام

(١) ألوى برأسه . أماله (٢) التلع . طول النطق .

حار في خديه ماء مازج الماء ضرام
يلتقي في وجهه ضدَّ ان نور وظلام
وقد ذكرنا من قبل في الفصل الأول طائفة من أمثلة الغزل بالذكر .
وتغزل هؤلاء الشعراء بالمرأة غزلاً ماجناً خبيثاً .

تغزل بشار بامرأة من أهل البصرة يقال لها عبّيدة ، وتغزل بأخرى اسمها « عبّدة »
كانت تحضر مجالسه في منزله ، فلما سمع كلامها تعلق بها ، وكلف بها كلفاً شديداً .
وتغزل بجارية اسمها فاطمة ، كما تغزل في جارية له أخرى .
وكان بشار في غزله ماجناً خبيثاً ، حتى خشى الناس على نساءهم من شعره .
قالوا^(١) :

ماشى أدعى لأهل هذه المدينة - أي البصرة - إلى الفسق من أشعار هذا الأعمى !
وقال واصل بن عطاء :

إن من أخدع حباثل الشيطان وأغواها لكلمات هذا الأعمى الملحد .
وذلك لأن بشاراً - كما قيل - يقارب النساء حتى لا يخفى عليهن ما يقول ،
وما يريد . وأى حرة حصّان تسمع قول بشار فلا يؤثر في قلبها . فكيف بالمرأة الغزيلة ،
والفتاة التي لا هم لها إلا الرجال ؟ !
قال بشار :

حَسْبِي وَحَسْبُ الَّذِي كَلِمَتُهُ بِهِ	منى ومنه الحديثُ والنظرُ
أَوْ قَبْلَةً فِي خِلَالِ ذَاكَ وَمَا	بأسٌ إذا لم تحلَّ لى الأُزُرُ
أَوْ عَصَةً فِي ذِرَاعِهَا وَلَهَا	فوق ذراعى من عَصَاهَا أَثَرُ
أَوْ لَمْسَةً دُونَ مِرْطَلِهَا ^(٢) بِيَدِي	والبابُ قد حال دونه الشُّرُ
وَالسَّاقُ رَاقَةً مُخَلَّخَلُهَا	أَوْ مَصُّ رِيْقٍ وَقَدْ عَلَا الْبُهِرُ ^(٣)
وَاسْتَرَحْتَ الْكَفَّ لِلْعَرَاكِ وَقَا	لت إيه عنى والدمع مُنَحْدَر

(١) الأغاني ج ٣ ص ١٨٢ (٢) كساه يؤثر به . (٣) تنابغ النفس واقطاعه من الاعباء .

انهض فما أنت كالذى زعموا أنت وربى مُغازِلُ أشِرُ
قد غابت اليوم عنك حاضيتى واللهُ لى منك فيك ينقصِرُ
يا ربَّ خذلى فقد ترى ضَرَعى من فاسقٍ جاء ما به سَكْرُ
أترى ماذا قال بشار؟

قال فى هذه القصيدة غزلا ماجناً ما بعد ذلك مجنون ، خبيثاً ما بعد ذلك خبث !
حدثنا عما بينه وبينها .

ولم يكن ما بينهما حديث القلب والعاطفة ، حديث الوفاء والإخلاص ، حديث
العيون ، التى تترجم عما فى القلوب من لوعة الحب وشوق الغرام ، حديث الروح المعذب
المضنى ، الذى هذه الصد وأسقمه البعد فهو يحتال ويتوسل ، يطلب الرضا والوصال ،
ولكنه حديث الشهوة ، والشهوة الجاحمة .

فهو لا يرضى منها بالحديث والنظر ، ولكن يتمدد به العبت إلى القبلية ، والعضة ،
واللمس ، ومص الريق ، وهو لا يرضى منها بهذا كله ، وهذا كله كثير وكثير ، ولكن يريد
شيئاً آخر صرح به فى بقية القصيدة . وقد يصور لنا هذا الخبث الذى أراده بشار أنه
قامت بينهما معركة حامية الوطيس ، يريد هو فى عنفه وجبروته أن يقهرها على ما يريد ،
ولا يريد إلا الفحش والخنا ، وهى تدفعه وتدافعه ، وهى تمنعه وترجره ، وهى تسكب الدمع
عنه يكون لها شافعا وشفيعا . وهى تود لو أن حاضنتها كانت حاضرة ، إذن لتقوّت بها
ومنع عنها العدوان والأذى ، ثم هى تطلب إلى الله ، وهو نصير العاجز الضعيف ، فى وقت
الشدة والبلاء أن ينصرها ، وأن يأخذ بيدها من هذا الفاسق الذى جاء وما به سكر .
ألا ترى أن هذا الشعر يعيل القلوب ويلين الصعب كما قالوا ؟ بلى .

إنه يغزو النفوس ، فيهيج فيها مواضع الشهوة والإثم والفجور .

ويقول بشار فى عبدة التى أشرنا إليها من قبل :

يا عبد بالله فرجى كرى فقد برانى وشفنى نصّى

وضعت ذرعا بما كلفت به من حُبكم والمحب في تعب
ففرّجى كربة شجيتُ بها وحرّحزن في الصدر كاللّهب
ولا تظنى ما أشتكى لعباً هيهات قد جل ذاعن اللّعب
وتغزل أبو نواس بامرأة يقال لها « حسن » كما تغزل « بجنان » جارية
آل عبد الوهاب الثقفي .

وتغزل أبو العتاهية ، ومسلم بن الوليد ، وابن الرومي ، وحماد ، وسلم .
وتغزل حسين بن الضحّاك بمغنية يقال لها — فتن —
ومن غزله الماكن أن قال له الحسن بن سهل ذات يوم :
كيف كنت في ليلتك ؟ وكيف كنت عند نومك ؟
فحدثه عن ذلك . قال :

تألفت طيف غزال الحرّم	فواصلنى بعد ما قد صرم
وما زلت أفنع من نيله	بما تجتنيه بنانُ الحلم
بنفسى خيالٌ على رقبته	ألمّ به الشوق فيما زعم
أناى يجاذب أردافه	من البهر ^(١) تحت كسوف الظلم
تُمج سوائفه مسكّة	وعنبرة ريقه والنّسم
تضمخ ^(٢) من بعد تجميده ^(٣)	فطاب من القرن حتى القدم
يقول ونازعتُه ثوبه	على أن يقولَ لشيء نعم
ففضّ الجفون على خجالة	وأعرض إعراضة المحتشم
فشبكت كفى على كفه	وأصفيت أليم دُرّاً بغم
فنهتهنى دفع لا مؤيس	بجد ولا مطمع معتزم
إذا ما هممت فادنيه	تثنى وقال لى الويل لِم

(١) تنابع النفس وانقطاعه عن الاعباء . (٢) تضمخ بالطيب : تلتاح به . (٣) أى تبخر بالطيب .

فما زلت أبسطه مازحاً وأفريط في اللهو حتى ابتسم
وحكمتي الرِّيمُ في نفسه بشيء ولكفه مُكْتَمٌ
فواهاً لذلك من طارق على أن ما كان أبقي سقم

حدثنا حسين بن الضحاك في هذا عما وقع بينه وبين طيف غلام للحسن بن سهل ،
كان الحسين قد علق به .

ولا نريد أن نشرح هذا الحديث ، ولا أن نعلق عليه بأكثر مما قاله الحسن
ابن سهل . قال :

يا حسين : يا فاسق ! أظن ما ادعيتَه على الطيف في النوم كان في البقطة
مع الشخص نفسه .

هذه المعاني — كما قلنا — نجدها في شعراء الموالى ، الذين ذكرناهم ، ولا نجدها
على هذه الصورة بين شعراء هذا العصر الذين نشثوا من أصل عربي .
ولكن بجانب هذا نعرف أن مطيعاً بن أبياس كان خليعاً ماجناً ، وكان وصافاً
للخمر ، وكان غزلاً بالمذكر . وهو وإن كان كذلك ، ولكن في صورة ضيقة محدودة ،
وفي وضع يكاد يكون ضيق النطاق .

أما شعراء القسم الثاني ، أو بعبارة أخرى أما شعراء هذا العصر الذين نشثوا
من أصل عربي فإنهم لم ينهجوا هذا النهج الذي قدمنا .
ومن الطبيعي أن يكون ذلك .

لأنهم عرب ، يحافظون على تراثهم الأدبي ، ويدفعون عنه هذا الطغيان ، الذي
وفد عليهم من طريق الفرس ، وسائر الأعاجم .

فإذا كان الشعراء الذين يمتنون في النسب إلى أصل غير عربي يتهجنون كل
ما هو عربي ، يحاربونه في صور شتى ، فإن هناك شعراء آخرين يمتنون إلى أصل

عربي ، لا يجارونهم فيما يفعلون ، بل يصدون تيارهم الجارف .
ومن هؤلاء الشعراء ؟

من هؤلاء الشعراء أبو تمام ، والمتنبي ، والبحتري ، والمعري ، والعباس بن الأحنف ،
وعلي بن الجهم ، وابن خفاجة ، وابن هاني .

فلا تكاد ترى واحداً من هؤلاء الشعراء أدمن في وصف الخمر ، أو تغزل
في المذكر ، أو تغزل غزلاً ماحناً ، كما فعل شعراء الموالى .

ولسنا بصدد الترجمة والحديث عن هؤلاء الشعراء ، في كل نواحيهم الشعرية
حتى نبسط ذلك كل البسط .

ولكننا بصدد شعراء الغزل .

وما حظ الغزل من هؤلاء الشعراء ؟

وفي أي نوع من أنواع الغزل ؟

كثير من هؤلاء الشعراء قالوا في الغزل .

قالوه مبتدئين في أول القصيدة ، كما فعل شعراء العرب الأولون في العصر الأموي
وفي العصر الجاهلي ، وهذا هو الغزل الصناعي الذي ذكرنا ، وذكرنا له أمثلة كثيرة
من الشعر .

ومن هؤلاء المتنبي ، والبحتري وغيرهما .

يقول المتنبي^(١) في أول قصيدة أرسلها إلى السلطان ، وكان قد حبسه إثر وشاية .

أَيَا خَدَدَ وَاللَّهِ وَرَدَ الْخُدُودَ وَقَدْ قُدُّودَ الْحِسَانِ الْقُدُودَ^(٢)

فَهِنْ أَرْسَلَنْ دَمًا مُقْلَتِي وَعَذَّبَنْ قَلْبِي بِطُولِ الصُّدُودِ

وَكَمْ لِلْهَوَى مِنْ فَتَى مَدْنَفٍ^(٣) وَكَمْ لِلنَّوَى مِنْ قَتِيلٍ شَهِيدٍ

(١) ديوان المتنبي شرح البرقوق ج ١ ص ٢١٧ (٢) التخديد : الشق . القد : القطع طويلاً .
يدعو على ورد الحدود أن يشقه الله فيزول حسنه ، وأن يقطع القدود الحسان ، وهو دعاء
تعجب واستحسان . (٣) المدنف : من أثقله المرض .

فوا حسرتنا ما أمرَ الفراقَ وأغلقَ نيرانه بالسكود
وأغرى الصبابةً بالعاشقين وأقتلها للمحب العميد^(١)
وألهج نفسى لغير الخنا بحب ذوات اللعى^(٢) والنهود
ويقول البحتري^(٣) — ولم يكن يبدأ قصائده بغير النسيب — فى أول قصيدة

يمدح المعتز :

مَنْ عَذِرَى مِنَ الظُّبَاءِ الْغَيْدِ وَمُجِيرَى مِنَ ظُلْمِهِنَّ الْعَتِيدِ
إِنْ سَحَرِ الْعَيُونُ ضَلَّلَ لُبِّى وَحَمَانِى الرِّقَادَ وَرَدُّ الْخُدُودِ
وَالْأُمَانِى مَا تَزَالُ تَعْنِينَا بِيَخْلُ مِنَ الْغَوَانِى وَجُودِ
وَمِنَ الْعَيْشِ لَوْ يَسَاعِدُ عَيْشُ أَنْ يَجِىءَ الْوَصَالُ بَعْدَ الصَّدُودِ
وَبِنَفْسِى الَّتِى تَوَاتَ بِنَفْسِى ثُمَّ ضُنَّتْ بِالنَّيْلِ مِنْهَا الزَّهِيدِ
بَعُدَتْ دَارُهَا فَمَا مِنْ تَلَاقٍ غَيْرِ طَيْفٍ يَزُورُنِى فِي الْمَجُودِ
أَتْرَاهَا دَامَتْ عَلَى الْوَصْلِ أَمْ مِنْ عَادَةِ الْغَانِيَاتِ نَقْضِ الْعَهْدِ
أَوْ تَرَانِى مَلَاقِيًا مِنْ قَرِيبٍ سَكْنَا لَهُ أَشْتَاقَهُ مِنْ بَعِيدِ
الْإِمَامِ الْمَعْتَزِ بِاللَّهِ أُولَى هَاشِمِيٍّ بِالنَّصْرِ وَالتَّأْيِيدِ

كما أنهم قالوا الغزل كَأى غرض من أغراض الشعر ، ولكنه لم يكن غالباً ،
ولا قوى الحساسية ، ولا عظيم الأثر كما رأينا فى عصر بنى أمية .
إلا العباس بن الأحنف فقد امتد نفسه فى الغزل وقد صدقت عاطفته فيما قال .
قالوا إنه شاعر غزل ظريف مطبوع لم يكن يتجاوز الغزل إلى مديح ولا هجاء .
ولذا كاد يكون شعره غناء يطرب الأفتدة ، ويستهوى القلوب .

(١) الذى أضناه العشق . (٢) اللعى : سمرة فى الشفة . (٣) ديوان البحتري

وقد ترى صدق العاطفة ، وحرارة الغزل في هذه الأبيات :

سلبتني من السرور ثيابا وكسنتني من الهموم ثيابا
كلما أغلقت من الوصل بابا فتحت لي إلى النية بابا
عذبتني بكل شيء سوى الصمد فما ذقت كالصدود عذابا

ويقول :

أبكي الذين أذاقوني مودتهم حتى إذا أيقظوني للهوى رقدوا
فأنت ترى من هذا كله أن العصر العباسي لم يكن كالعصر الأموي فيما خلف لنا
من آثار في الغزل ، وفيما نهجه من هذه الآثار .
أما الغزل العذري فلا نراه في هذا العصر .
وأما الغزل الصناعي فنراه بين كثير من الشعراء .
والغزل الماجن نراه بكثرة في هذا العصر .

وقد عرفت فيما سبق الأسباب التي دعت إلى انتشار الغزل الماجن وخاصة بين
الشعراء الموالي ، وأود في هذه المناسبة أن أوجه نظر القارئ إلى أن هؤلاء الشعراء
الذين أكثروا من المجون في شعرهم نشأوا في العراق حيث كان نفوذ الفرس والأعاجم
قوى الأثر عظيم الجانب . فكان من الطبيعي أن ينساقوا في هذا المضمار ، وأن يتأثروا
بما حملته إليهم الفرس من لهو وعبث ومجون .

أما من لم تزل أقدامهم ولم تقع أيديهم في هذا العبث فقد نشأوا بعيدين
عن العراق ، بعيدين عن مواطن الفتنة والفساد .

نشأ في العراق : بشار ، وأبونواس ، ومسلم بن الوليد ، وأبو العتاهية ، وسلم ،
وحمد ، ومطيع ، وحسين بن الضحاك ، وابن الرومي .

ونشأ أبو تمام في قرية جاسم قرب دمشق . والبحترى في مذج من قبائل البدو
الضاربين بين حلب والفرات ، ولازم وهو فتى أبا تمام . والمتنبي ، وإن كان قد ولد

بالكوفة ، ولكنه خرج إلى الشام وهو في العشرين من عمره ، وعاش في بادية « بنى كلب » فترة طويلة من الزمن تذوق فيها لغة البداوة ونشأ أبو العلاء في معرة النعمان بين حلب وحماه .

في العصر الحديث :

بعد أن سلك الغزل في العصر العباسي هذه الأدوار التي ذكرناها وبسطنائها في شيء من الإجمال جاءت عصور على الأدب لم تكن زاهرة ، بل كانت جامدة مقفرة ، جمود الحياة التي كانت تحياها الأمة العربية في هذا الزمن ، وإفقار العيش الذي كان يرفرف على العرب في هذه الحقبة .

كانت فترة من الضعف والتدهور السياسي والاجتماعي تبعهما ضعف وتدهور في الأدب ، وفي الغزل . وفي مثل هذه الظلال لا تعيش حياة الغزل ، وهي باسمه ناعمة مشرقة الجبين ، وضاءة الخيال .

حتى جاء العصر الحديث وهبت على بلاد العرب نسمة من اليقظة والبعث والحياة ! بدأ العربي في كل بلد ينفذ عن عينيه غبار الظلم والذل والاضمحلال .

تفتحت عيناه فوجد العالم في رقي وحضارة ، ووجد العالم في علم وفن وأدب ، ووجد العالم يرفل في ثياب من السعادة والهناء .

فلم لا يأخذ حظه من هذه الحياة ؟ وهو السباق ذو الجذ المؤئل ، والمدنية العريقة التي اغترف منها هذا العالم ، حتى وصل إلى هذه الحال من رقي وسمو وسؤدد .

وكان أن طلع نور المدنية الأوربية على بلاد الشرق ، وحمله إلينا رسل العلم من مدارس وأساتذة وبعوث وكتب وصحافة . واتسعت هذه الرسالة وتجددت في مظاهر مختلفة حتى أصبح لنا من الأدب العربي تراث نحتذيه ، ونتأثر به ، ونستقي منه كثيراً من صور العيش الذي يظللنا ، وأخذنا نقرأ من الأدب الغربي ونترجم من الأدب

الغربي حتى أصبحنا إلى هذه الحال التي نحن الآن عليها ، تلك الحال التي دعت كثيراً من المفكرين إلى أن ينادوا بالوقوف إلى ما وصلنا إليه ، وعلينا بعد ذلك أن نستثير ما بين أيدينا من أدب وفن ، وأن نخرج منه صورة تلائم عصرنا ، وتوحى إلينا الفكرة النشيطة والحياة العريضة ، والعيش الناعم الباسم ، وأن تكون هذه الصورة عنواناً لنا ورمزاً يمثل ما نصبو إليه من رفعة ووثبة ومجد .

وكان من الطبعي أن توجد حولنا في هذا العصر حياة أدبية خاصة ، وأن يكون لنا طابع من الاستقلال في هذه الحياة .

ومن أسباب ذلك :

أن وجد لنا ملك ، ووجدت لنا سيادة ، ووجد لنا ظل من القوة والمنعة .
وفي ظلال القوة يعيش الأدب وتنمو أسبابه ، وفي ظلال الضعف يضمحل الأدب وتذبل نضارة شبابه .

صاحا الشرق من رقده ، وجاهد في سبيل حريته واستقلاله ، وضحى بالرخيص والغالى حتى نال حظه في الحياة وحظه من الوجود .

وقامت في أقطار العرب ممالك وإمارات وحكومات ذات قوة وسيادة .
وحظى الشرق بملوك وحكام نابهين ، ملكوا زمامه ، وسعوا جهد الطاقة في أن يرفهوا عن شعوبه ، وأن يأخذوا بيدها إلى مدارك الرقي والفلاح .
فالفاروق : في مصر رمز الآمال ، ومعقد الرجاء يبعث فيها الحياة ، ويوحى إليها أسباب الخير والسعادة .

وفيصل : في العراق تهفو إليه القلوب ، ويستمد منه الشعب العراقي القبيل معالم القوة والعظمة .

وابن السعود : في الحجاز يبني ملكاً موطد الأركان ، ذا عزة وسيادة وسلطان .
وشكري القوتلي : في سوريا يحمي الذمار ويصون الحمى .

وبشارة الخورى : فى لبنان يرفع راية العروبة كريمة مجيدة ، ويسعى فى أن يكون
لبنان رفيع الذرى شامخ البنيان .

ويحيى الامام : عاهل اليمن ، ورمز القوة فيها والحياة .

أولئك فرسان صناديد وعرب أمجاد يسرى فى عروقهم دم العروبة نقيا أيبا ،
صافيا مزهوا ، فيذكرون حياة الآباء والأجداد ، ويذكرون ما كان لهم من صول
وسلطان ؛ وما كان لهم على المدينة من أياد وآثار ، فيتآخون فى سبيل مجد العروبة ،
ويتنادون إلى تلبية نداء الحق ، نداء الحرية ، نداء الشرف ، فيلبون النداء .

وما أكرم نفس العربى ! يذود عن الحمى ويدفع العدوان .

إذن وجد للعرب كيان بعد أن تمزقت صفوفه ، وتوارت معالمه ، ووجد لهم ملك
يستظلون بظله الوارف ، ويستمدون من سلطانه القوة والجهروت .

وإذن أخذت تقوى أسباب الحياة فى كل قطر : فانتشر التعليم وازدهر العلم
وانتشرت المطابع والصحف والمجلات .

وقويت آصرة الثقافة بين العرب فى جميع الأقطار فتبادلوا الكتب والصحف
والمجلات ، وتبادلوا الأساتذة رسل علم ونور وعرفان .

بل قويت إلى ما هو أبعد مدى فوجد الجمع اللغوى للملكى يضم رجالا
من الأقطار العربية ومن المستشرقين تجمعهم رابطة وثيقة ، هى خدمة الفصحى ، وخدمة
الثقافة العربية فى أوسع صورة وأقوم طريق ، بل قويت إلى ما هو أبعد من الثقافة ،
قويت وامتدت إلى الروابط الأخرى التى يجب أن تسود بلاداً شقيقة يقطنها أخوة
أشقاء . يجمعهم دم واحد ، ولسان واحد ، ودين واحد ، فلا بد أن يتعارفوا ويتآلفوا ،
ولا بد أن يكونوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ، ولا بد أن يكون القوى عون
الضعيف ، وأن يكون الغنى رحمة للمحتاج ، وأن يكون الأخ عوناً لأخيه ، تقوى به
شوكته ، ويأمن به غوائل العدوان .

لذلك كانت الجامعة العربية تجمع تحت لوائها رجالات العرب ، فيسمعون ويعملون ما فيه خيرهم وفلاحهم وصلاحهم .

وها هي ذى روابط الود والإخاء تزيد على مر الأيام وتقوى أصرتها ، وفي كل يوم ترى من ثمارها ما يبشر بتحقيق الآمال .

وطالما رأينا ملوك العرب يجتمعون ويُضفي اجتماعهم على العرب الخير والمعروف . تلك هي حال العرب في هذا العصر .

حرية كسبوها بعد طول جهاد .

وملك يهينون أسبابه ، ويوطدون دعائمه .

ووحدة تظلمهم في كل جمع ، وتربطهم في كل ناد ، فتفوز كلمتهم لأنها كلمة الحق ، وتملوا رايتهم لأنها راية العدل والسلام .

ويقفزة في العلم ، يقفزة في السياسة ، يقفزة في العمران ، يقفزة في كل مظهر من مظاهر الحياة .

ومن الطبيعي والأدب مرآة العصر وترجمانه — أن تشمل هذه اليقفزة فنون الأدب .

ومن الطبيعي أن يمثل الأدب صور هذه الحياة ، وما فيها من ملك وقوة ، ونهضة ووحدة ، ونور ومعرفة .

ولا أريد أن أبتعد في حديثي عن الغزل .

فلأتحدث عنه بعد أن ذكرت هذه الإمامة عن حال الأدب في هذا العصر . ولابد

من ذكر هذه الإمامة لأن الغزل مرتبط بالأدب ، وبالحال الاجتماعية برابط قوى وثيق .

مادواعي الغزل في العصر الحديث ؟

ومن شعراء الغزل في العصر الحديث ؟

وما أغراض الغزل في العصر الحديث ؟

هذه ثلاثة أسئلة . ولابد لكل سؤال من جواب .

هذه الأجوبة قد تطول ، فيتسع أمامها مجال القول . وقد تخرج بنا هذه السعة من المدى الذى رسمناه لأنفسنا .

فلنجتزئ قدر الإمكان حتى يكون هناك تكافؤ بين العصور ، وحتى يكون هناك مجال للبسط والبيان لمن شاء البسط والبيان .

دواعى الغزل فى العصر المحمدي :

ذكرنا من قبل دواعى الغزل .

فلنلخص هذه الدواعى . ولنطبقها على هذا العصر .

ماذا زاد ؟ وماذا نقص ؟ وما السبيل إلى هذه الزيادة ؟ وما السبيل إلى ذلك النقص ؟ قلنا من دواعى الغزل :

١ — بيئة العربى وطبعه :

أما البيئة وإن لم تكن فى جميع الأقطار صحراء مشرقة الجبين ، وضياء الخيال ، فإن فى الكثير الغالب من بيئة هذه الأقطار ما يدعو إلى صفاء الذهن ، ورقة الحس ، وجمال العاطفة .

فى بيئة كثير من هذه الأقطار الطبيعة الباسمة الطروبة . فيها صفاء السماء ، ورقة الماء ، وخضرة النبت والزرع .

وهذه أسباب تدفع المرء إلى أن يكون غزلاً ، وأن يكون فى عيشه طروباً . أما طبع العربى فلا يزال — وإن كانت قد أتت عليه أحداث — يميل إلى أن يأنس إلى المرأة ، وتأنس المرأة إليه فى ظلال من الود ، والعطف والحب .

٢ — اختلاط الرجل بالمرأة :

لم تكن المرأة العربية محتجبة فى منزلها ، فكانت تلقى الرجل ، وكان الرجل يلقاها . وذكرنا من أسباب اللقاء المرمى ، والتزاور والاستسقاء ، ومواسم العرب . تطور هذا العامل تطوراً حساساً . فلم يعد المرمى عاملاً من عوامل الغزل .

والآن قد يلتقي الرجل المرأة في المرعى . ولكن لا يتولد عن هذا اللقاء غزل .
لأننا بعدنا كثيراً عن الشاعرية العربية ، فلم نصبح شعراء بالفطرة والسليقة ،
كما كان العرب ، في كثير من العصور الماضية ، بل أصبح الشعر علماً وصناعة ، وهيهات
أن يجيدها من ينتجان الكلاً والمرعى في هذه الأيام ! .

ومثل ذلك الاستسقاء إذ أصبح غير قائم في عصرنا الحاضر ، وقد وجدت
وسائل كثيرة يحصل بها المرء في رحيله على الماء . أما التزاور فلا شك أنه من وسائل
لقاء المرأة بالرجل ، والرجل بالمرأة ، وقد يلتقيان في إحدى الزيارات ، فيلتقي قلباهما ،
وتتلاقى نبضات قلبيهما ، ويلتقي إشعاع ناظريهما ، فإذا وجد هذا اساناً من الشعر
قوياً فتياً ، حدثك حديث الغزل الرائع الجميل .
أما مواسم العرب فلم تعد كما كانت .

كان الحج موسم العرب الأكبر ، وكان مثاراً لإذكار روح الشاعرية في نفوسهم
وقد قرأت فيما سبق كيف أوحى الحج إلى كثير من الشعراء كثيراً من الغزل الرقيق
لأنهم رأوا المرأة في هذه المثابة الكريمة ، فذكروا حسناتها وجمالها ، وكانهم بذلك
يذكرون الله الذي خلق هذا البدع من الحسن والجمال ، وكانهم بذلك وهم يصفون
بأرواحهم إلى نسيان الحياة الدنيا يصفون بعاطفتهم فيحدثون عن المرأة حديثاً
حلوّاً جميلاً .

وفي الزمن الماضي كان العرب في موسم الحج يتجهون إليه جميعاً رجالهم ونسائهم
حكامهم ومحكومهم ، أغنيائهم وفقرائهم ، شيوخهم وشبابهم .
أما اليوم فليس الأمر كذلك .

وما سمعنا ، ولا حمل السمع إلينا أن شاعراً في عصرنا هذا رأى ما رأى عمر بن
أبي ربيعة في تلك العراقية الحسنة ، فأوحى إلينا من شعره ما أوحى عمر .
ولست أدعو إلى أطراح الحج إذا أنا ذكرت الواقع ، بل أرجو أن يعود الحج

كما كان تتجه إليه الفتاة الغضة الناضرة ، والفتى الغض الناضر ، أو يتجه إليه الجميع لافرق بين الشيوخ والشباب ، ولا بين الأغنياء والفقراء ، ولا بين المترفين والمعدمين ، ولا بين الزعماء والمتزعمين ، ولا بين الشعمراء والخطباء والكتاب ورجال العلم والفقه والقانون .

إذن لأفدنا من الحج فائدة عظيمة واتخذنا منه دروساً نافعة وانتظمت من جموعنا فيه مؤتمرات نتدارس فيها أمورنا ، ويتلاقى فيها نتاج عقولنا ، وكان لنا من كل ذلك خير أى خير !

ولا شك أن الشعر ومنه الغزل يجد مادة خصبة في هذا المجال ، فإذا رأى الشاعر الغزل ، ذو الحس المرهف المرأة الباسمة الفاتنة جرى خياله وراء حسنها ، فزينه وصوره ، وأخرج لنا صورة حية مؤثرة ، قد تفوق بعض الصور في العصور الماضية ، لأنه زاد عليها خيال جديد ، وزاد عليها عقل جديد ، وزادت عليها ألوان من الحياة ، لم تكن قائمة ، فأصبحت اليوم في قوة ونمو وازدهار .

على أننا إذا عدنا ما كان عند العرب من موسم اللقاء وما يكون ثمرة لهذا اللقاء من غزل رفيع ، ومن ثروة في الغزل ، فإننا لانعدم في وقتنا الحاضر ما يكون كالحج وسيلة من وسائل لقاء الرجل المرأة واستشارة شاعريته ، بما وهبها الله من حسن وفتنة وجمال .

تلك هي مواسم الاصطياف .

فإن كان الاصطياف على شاطئ البحر رأيت أسراباً من الغيد الحسان ، وأبحاث غاديات ، أوجالسات يستمتعن بالظل ، وهواء البحر ، أو عائمات سابحات ، يسرن بين طبقات الماء القريبة أو البعيدة ، ويتماوجن مع الأمواج ، ويداعبن نسيم البحر ، والبحر أنيس محبوب ، قد يكون وادعاً فيأنسن إليه ، ويرضى بهذا الأنس فترة من الزمن ،

وقد يكون ثائراً فيثأرن لأنفسهن منه، ويرضى كذلك بهذا الثأر، فهو ثأر من لا قوة له ولا خوف منه، وهو كذلك يكون ضرباً من ضروب التسلية والسرور.

أليس ذلك من بواعث الغزل؟

بلى .

إن ذلك يثير في الرجل العادي أن يتأمل وأن ينظر، وأن يسوقه التأمل والنظر إلى الإعجاب، وتقدير هذا الجمال، وقد يسوقه ذلك أيضاً إلى أن يحمد الله الذي خلق فصور، وأحسن الخلقة والصورة.

فما بالك بالرجل الأديب؟، الذي يصوغ الوزن والقوافي، والذي رقى قلبه وصفا وجدانه وقويت حساسيته، وقرأ في الشعر العربي صور الخيال وعرف في الشعر العربي ضروب الغزل.

إنه لا شك يحدثنا عن هذا حديثاً قوياً جذاباً.

ولا شك أن شعره يحمل إلينا صورة من هذه الحياة الجميلة الجذابة. وقد يجمع الله بين قلبين تعارفاً في هذه البيئة وتحاباً، وقد يجعل الله في هذين القلبين روحاً من الشاعرية. وفي هذا المجال من الشاعرية يقوم الغزل ويقوى، ويضفي علينا ألواناً من روائع الشعر، تصور هذه الحياة أجمل تصوير، لتسعد به ونانس إليه.

وإن كان الاصطياف في مكان آخر فيه الطبيعة تزهر، والماء يجري، وفيه الربوات تزدان بالأعشاب والأشجار. رأينا أيضاً جماعات المصطافين لا حرج بينهم ولا تثريب، يجتمعون ويألفون، ويتسامرون، ويلتقي الفتى بالفتاة.

والعرب في أي قطر كانوا يرتحلون حيث يجتمعون في الصيف على شاطئ البحر أو غيره، فيلتقون في مكان واحد، ويتولد عن هذا اللقاء تعارف وتآلف، وقد يتولد عنه ما يذكى هذا التعارف من علاقة ومودة.

على أن اختلاط الرجل بالمرأة في هذا العصر فاق كل عصر، فأصبحت الفتاة

تتعلم كالفتى ، وأصبحت تخالطه في كثير من المجتمعات والمنتديات ، وأصبح يراها ويجلس إليها في دور العلم ، ودور الثقافة ، ودور الخيالة ، والحدائق والمتنزهات . وقد تقوض ما كان هنالك من حجاب ، يجعلها أسيرة المنزل وقعيدة الدار ، وتقوض ما هنالك من قيود اجتماعية ، فأصبح للمرأة ما للرجل ، حتى في الحقوق السياسية تقوم الآن صيحة جديدة بالتلبية في أن يكون لها في هذه الحقوق مثل الرجال .

وقد يكون للبيئة الغربية وتأثر العرب بهذه البيئة أثر في هذا الذي وصلنا إليه من اختلاط الرجل بالمرأة . ولست بصدد بيان ما لهذا الاختلاط من أثر حميد ، أو غير حميد . ولكننا بصدد موضوعنا ، وما يتصل به من أثر الاختلاط في الغزل . وكيف أفاد الغزل من هذا الاختلاط .

لا شك أنه أجدى كثيرا .

ولو نشر الشعراء ما عندهم من هذا الأثر ، ولو نشر شباب الشعراء ما عندهم ، ولم يتحرجوا ، ولم يخشوا جانب العتب واللوم ، ولم يخشوا جانب التشهير ، وما يجره على المحبوبات من أمور كثيرة . لو نشر الشعراء ذلك لوجدت ما لهذا الاختلاط من أثر في الغزل ، ولوجدت للغزل في هذه الناحية مجالا فسيح المدى .

٣ — أسواق الأدب :

قلنا إنه كانت للعرب أسواق في الأدب ، كانوا يتناشدون فيها الشعر ، وكانوا يجودونه ، ويتسابقون في هذه الجودة . وينصبون بينهم من يحكم للسابقين المجودين . وقد تدرج العرب في هذه الأسواق ، وتنوعوا . فهناك أسواق عامة ، يجتمع فيها الشعراء ، من كل مكان ، وكانت لها أوقات محدودة . وهناك مجالس خاصة . يجتمع فيها طائفة من رجال الأدب وعشاقه . يتسامرون ، ويتناشدون الشعر ، ويتدارسون أخباره ونوادره . وشعر الغزل كما قلت قريب إلى النفوس ، حبيب إلى الأفتدة . فوجدوا منه مادة لا ينضب معينها .

لم تعدم عصور الأدب هذه الأسواق . ولكن لم توجد بحال واحدة في هذه العصور ، ولم يكن أثرها واحداً في هذه العصور . بل اختلفت قوة وضعفها ، واختلفت قلة وكثرة ، وتفاوتت مكانتها بين جبهة الناس . وهي لا تزال في هذا الاختلاف ، حتى وصلت إلى عصرنا الحاضر .

فماذا نرى من الأسواق الأدبية ؟

نرى بعض هذه الأسواق في صورة بسيطة تقام في دور العلم . وتقام في بعض المناسبات كتكريم شاعر ، فتثار صفحات شعره ، يتناولها الأدباء بالتحليل الدقيق ، والوصف الرقيق .

وكان العرب في قديم الزمن في حاجة ماسة إلى هذه الأسواق الأدبية ، إذ بعدت الشقة بينهم ، وتناوت ديارهم ، فكانوا يتخذون من هذه الأسواق مثابة لاجتماعهم ، ومثابة لنثر أزاهير أدبهم .

ولا شك أن لهذه الطريقة آثارها وفوائدها . ومن الحسن أن نحذو حذوها في هذا العصر ، لأن فيها إذكاء لروح التنافس ، وحفزاً للهمم ، وبعثاً ليقظة الأدب . ويظهر أننا أحسننا بهذه الحاجة ، فراح جماعة من أدبائنا يؤلفون رابطة أدباء العروبة . يرتحلون بين وقت وآخر إلى بلد ، حيث يرتقى منبر الخطابة والشعر جماعة من رجال العلم والأدب ، ويطلعون علينا بصورة من شعرهم وأدبهم ، فيها ما هو حسن جميل .

والفكرة في ذاتها صالحة نافعة مشمرة .

ونحن أحوج ما نكون إلى إذكاء روح الشاعرية والأدب في نفوسنا . فحياة الأمم لا بد لها في نهضاتها ووثباتها إلى روح من الأدب ، يذكى فيها الحياة ، ويذكى فيها اليقظة ، ويذكى فيها الإحساس بالوجود ، بل الإحساس بالعظمة والمجد .

الحاجة إلى هذه الأسواق الأدبية ماسة . وحسناً تفعل جامعة أدباء العروبة .
ولكن الأمر يحتاج إلى توجيه ، وتنظيم ، وبحث ، ودراسة .
أنهم أن تعقد هذه الجماعة أو غيرها من جماعات الأدب أسواقاً أدبية . يتبارى
فيها الخطباء والشعراء في موضوع معين . يتناولونه جميعاً بالبحث ، والدرس . والبيان .
ويعطى الفائزون السابقون مكافآت ، وينشر بين الناس نتائج قرائهم .
ولا يخفى ما في هذا من تشجيع ، وإذكاء لروح الأدب بين كثير من الناس .
وأفهم أن يعقد لواء الأدب ، فيترك الخيار للخطيب أو الشاعر فيما يقول . وحينذاك
يتناول حديثهم شتى الموضوعات . ومن أحسن الاختيار ، ومن هز الأفتدة ، ووصل
إلى موضع الرضا من نفوسنا كان جديراً بالسبق والتقدير .

ولو اتسعت هذه الأسواق ، وانتظمت في فترات معينة من السنة ، والنأمت
في كل فترة في إحدى عواصم الأقطار العربية . ولو ترك الخطباء يقولون ويتحدثون
فيما يسوقنا إلى الخير ، ويدفعنا إلى الحياة الكريمة . ولو ترك الشعراء يكشفون لنا
عن خلجات قلوبهم . هذا يصف ، وذاك يمدح ، وذلك يتغزل — إذن لكانت لنا
من هذه الأسواق حياة رفيعة ، وسلطان في الأدب منيع .

هذا وإن أسواق الأدب وجدت في عصرنا الحاضر ، ولكن في صور أخرى .
فالصحف ، والمجلات ، والكتب ، والمذيع — كل هذه أسواق أدبية .

نقرأ في جميعها ، ونسمع في جميعها صوراً حية من الأدب ، وصوراً حية من شتى الفنون .
أما الصحف — وأعني الصحف قبل هذه الحرب ولما تهيأ لها الفرصة الآن —
فإنها كانت تخصص صفحة من صفحاتها للأدب . وفي هذه الصفحة نقرأ ألواناً
من الشعر ، في مختلف الأغراض ، ولشعراء كثيرين من جميع الأقطار العربية .

ونرى هذا في المجلات . ولكن في صورة فسيحة المدى ، دقيقة الأثر .
والكتب الأدبية كثيرة متنوعة . دبجها يراع الكاتبين والأدباء ، فنشروا

في صفحاتها فصولاً من الأدب ، وفصولاً من الشعر . فيها ما هو حسن جميل ، رائع مؤثر .
والمذياع نسمعه في كل يوم ، وفي كل مكان . نسمعه في البيت والمدرسة ،
في الشارع والمنتدى .

نسمع ونحن في مصر صوت العراق ، وصوت الشام ، وصوت فلسطين ، بل
أصواتاً عربية في جهات أخرى ، وفي ممالك أخرى .
والشعر ، وللغزل حظ عظيم مما نسمع .

ولو وجد في المذياع توجيه سليم لكان خير المنابر ، يوحى إلى الناس غذاء العقول
والقلوب . وكان سوقاً أدبية لا يمكن أن تجاريها سوق أخرى ، من حيث الذبوع
والانتشار ، ومن حيث الفائدة وحسن التأثير .

أما الصحف والكتب والمجلات فقد كثرت ، وانبسطت تبعاً للطباعة التي وصلت
في تقدمها إلى حد بعيد . والمذياع أصبح قائماً من عهد قريب . ولكن أبلى في هذه
الناحية البلاء الحسن ، وقدم لنا خير ما يقدم من دروس . وأعتقد أنه سينمو أثره
في المستقبل ، ويزيد نفوذه ، وخاصة عند تعميم — التليفزيون — .
هذه ولا شك أسواق أدبية .

وهي الآن في هذه الناحية مفيدة نافعة . وستكون بعد الحرب أكثر فائدة ونفعاً ،
إذ يحتاج القارئ إلى مزيد من الأدب . والسامع إلى مزيد من غذاء القلب والروح .
وهناك سوق أدبية أخرى ، كثيرة الرواج ، بعيدة الانتشار . تلك هي
الشاشة البيضاء .

كم نرى فيها من المشاهد !
وكم نقرأ فيها من شعر الغزل !
وكم نرى فيها من حوادث الغزل !
وكم يشجوناً فيها غناء الغزل !

ونتأثر نحن ، ونهتز قلوبنا بما نسمع ، ونقرأ ، ونرى .

ومن هذا كثير .

ومن هذا . قيس ولبنى ، ومجنون ليلي ، وعنترة وعبله

وتقوم كذلك فرق التمثيل بكثير من الروايات . فيها غزل ، وفيها شعر غزل ، وفيها غناء غزل .

٤ — مظاهر الترف :

قلنا إن الترف من دواعي الغزل . وذكرنا مظاهر الترف : من شباب ، وجوار ، وغناء .

وما حظ عصرنا هذا من تلك الدواعي ؟

إن شباب الأمة العربية لم يكتمل بعد .

ففي عهد قريب كسرت قيود الذل والاستعباد . ومنذ عهد قريب نالت حقها من الحرية والاستقلال . وها هي ذى تعد العدة لبناء مكانها من العالم ، واستكمال ما يتطلبه شبابها من عدة وعتاد ، ومن ثروة وغنى ، ومن علم ومعرفة ، ومن رقي وحضارة .

ولا أعنى بهذا أن الأمة العربية في وقتنا الحاضر ليس فيها أدب ، وليس فيها شعر . بل أعنى أن الأمة العربية في دور اليقظة والتكوين ، وهي حين تصل إلى عهد الشباب ، وستصل إليه بعون الله وتوفيقه في يوم قريب — يكون لها لون من الأدب يفوق كثيراً ما نحن عليه الآن .

ولا يمكن أن يستوى عود الأدب إلا بعد أن يستوى عود الحياة .

وعود الحياة في بلادنا العربية لا يزال غض الإهاب ، لم يتماسك بناؤه ، حتى يشق طريقه إلى الوجود ، شامخ الرأس ، موفور الكرامة . والعرب يسمعون الآن في أن يصونوا هذا العود من عبث الأهواء والأنواء ، حتى يتم بناؤه ، وتثبت دعائمه .

والجوارى :

لاحظ لعصرنا فيهن ، إذ أصبح الناس جميعاً أحراراً لافرق بين سيد ومسود
ولا مالك أو مملوك .

والغناء :

وقد وصل في عهدنا الحاضر إلى درجة عظيمة ، ذاع وانتشر ، حتى طغى على كل
شيء ، وأصبحنا نغيب أنفسنا على هذا الطغيان ، طغى على ما هنالك من فنون الأدب ،
ومن فنون الحياة ، ومن ألوان الحياة .

ومن الحق أن يكون له المقام الأول ، ولكن ليس من الحق أن يكون له
كل مقام .

يحمل الغناء إلى أذنك ، وإلى قلبك المذيع ، والشاشة البيضاء . وفي دور التمثيل
والحفلات العامة نسمع الشيء الكثير .

وأصبح للغناء في نفوسنا منزلة كبيرة كريمة .

وإذا شئت أن تعرف ما للغناء من منزلة في نفوس الناس فعليك أن تشهد رواية
غنائية على الشاشة البيضاء ، وفي دور التمثيل ، وعليك أن ترقب الناس وهم يجلسون
إلى المذيع يستمعون إلى بعض الأغاني ، إنك تجد شيئاً عجيباً غريباً ، تجد إقبالا وتهافتاً
ورغبة وحنيناً ، تجد ذلك كله من جميع الناس لا فرق بين غنيهم وفقيرهم ، ولا بين
جاهلهم ومتعلمهم .

وعرف القائمون بالأمر هذه الرغبة الملحة ، فعملوا على إشباعها ، أو على إروائها
بما يخرجون في كل يوم من أغان ، وما يخرجون من روايات في دور الخيالة أو التمثيل ،
وما يطلع به علينا المذيع في كل ساعة من أغان كثيرة الألوان ، مختلفه الغايات .

وسعد الغناء بطائفة من المغنين والمغنيات ، مازهم الله بالصوت الحسن ، واللحن
الجميل ، والموسيقا الجذابة .

سعد الغناء : بأم كلثوم ، ونادرة ، ونجاة ، وملك ، وأسماهان ، وفتحية أحمد ،
وليلي مراد ، وسعاد زكي ، ونور الهدى ، ولورد كاش .

كما سعد : بمحمد عبد الوهاب ، وصالح عبد الحى ، ومحمد عبد المطلب ،
وعلى محمود ، وعبد الغنى السيد ، وفريد الأطرش ، ومحمد الكحلأوى .

إن من بين هؤلاء من إذا سمعته أشجأك ، وهز فيك المشاعر ، وانتقل بك
إلى عالم آخر ، فيه تزهو ، وتعجب ، وتطرب .

وإنه ليساعد على روعة الغناء فى هذا العصر فوق جمال الصوت ، وحسن النغم ،
ما وصلت إليه الموسيقى من تقدم ورقى .

أما مادة الغناء فأكثرها فى الغزل ، ولأمر ما كان كذلك . ذلك لأن الغزل
كما قلنا قريب إلى النفوس ، يثير فيها مواضع الإعجاب والحساسية ، ولأنه وجه الحياة
الضاحك المشرق ، والإنسان يميل إلى كل ما هو ضاحك طروب ، ولأن مشيرات
الرضا فى الغناء الغزلى كثيرة متعددة : قوة الغناء ، وقوة المعانى ، وقوة الموضوع ،
ولاشك أن الصوت الجميل يستهوى القلوب ، ومعانى الغزل تطرب لها الأئدة ، وموضوع
الغزل تهفو إليه الطباع ، ويتم للإنسان بذلك لون جميل من اللذة ، والفرح ، والسرور .
وتعال معى لنقرأ ونسمع شطراً من هذه الأغانى :

أم كلثوم :

تعنى :

أراك عَصِيَّ الدمع شيمتك الصبرُ	أما للهوى نهى عليك ولا أمر
نعم أنا مشتاق وعندى لوعة	ولكن مثلى لا يذاع له سر
إذا الليل أضواني بسطت يد الهوى	وأذلت دمعاً من خلائقه الكبر
معلاتي بالوصل والموت دونه	إذا مت ظمآنًا فلا نزل القطر
تكاد تضيء النار بين جوانحي	إذا هى أذكتها الصباية والفكر

فقلت كما شئت وشاء لها الهوى قنتيك قالت أيهم فهمو أكثر
فقلت لقد أزرى بك الدهر بعدنا فقلت معاذ الله بل أنت لا الدهر
وحاربت أهلى فى هواك وإنهم وإياى لولا حبك الماء والخمر
وعدت إلى حكم الغرام وحكمها لها الذنب لا تجزى به ولى العذر
وتغنى من شعر الأستاذ أحمد رامى :

أذكرينى كلما الطير شدا مرسلا فى الجو ألحان الصفاء
ينصت الزهر إلى أنغامه فيحييه يبشر وأنحاء

* * *

قد ظلت اليوم أبكى من أذى دهرى ومنك
وشدا الطير وغنى وتنأجى وتهنى

* * *

فتذكرت الذى طاف بسمى إذ مزجت الكأس فى كفى بدمى
وهفا قلبى من طول أنينى فأرحمى دمعى وغنى واذا كرىنى
ومحمد عبد الوهاب :

يفنى من شعر المرحوم أحمد شوقى :

تلفتت ظبية الوادى فقلت لها لا اللحظ فانتك من ليلى ولا الجيد
ليلى : مناد دعا ليلى فحف له نشوان فى جنبات الصدر عرييد
ليلى : نداء بليلى رن فى أذنى سحر لعمرى له فى السمع ترديد
ليلى : تردد فى سمى وفى خلدى كما تردد فى الأيك الأغاريد
هل المنادون أهلوها وأخوتها أم المنادون عشاق معاميد
إن يشركونى فى ليلى فلا رجعت جبال نجد لهم صوتاً ولا البيد
أغير ليلى نادوا أم بها هتفوا فدء ليلى الليالى الخرد الغيد

كسا النداء اسمها حسناً وحببه حتى كأن اسمها البشرى أو العيد
ليلي : ترى أنا مجنون يخيّل لي لا الحى نادوا على ليلي ولا نودوا
ويغنى من شعر الأستاذ على محمود طه المهندس — أغنية الجندول — ومنها :
أين من عيني هاتيك الجمالى يا عروس البحر يا حلم الخيال ؟
أين عشاقك سمار الليالى أين من واديك يا مهد الجمال ؟
موكب الفيد وعيد الكرنفال وسرى الجندول فى عرض القنال

* * *

بين كأس يتشهى الكرم خمره وحبيب يتمنى الكأس ثمره
التقت عيني به أول مرة فعرفت الحب من أول نظره

* * *

فأنت ترى قدرا من هذه الأغاني . وترى فى هذا القدر لونا من ألوان الغزل .
فاغنية أم كلثوم — أراك عصى الدمع شيمتك الصبر — تحدثنا عن كثير
من شؤون الغزل .

فذو الهوى مُعْنَى بكثير من الأرزاء والأهواء ، لا يستطيع لها صبرا . وذو الهوى
دمعه غزير هتون ، لا يستطيع له زجراً أو منعاً . وذات الهوى متجنية متعلقة ، تمنيه
بالوصل والأمانى ، ولكنها لا تجود . يتوسل لها ، ويضرع إليها ، ولكنها تمنع
فى الصد والهجران .

وهذا حوار جميل لطيف بين الرجل وهواه . يدل على كثير من معانى الغزل .
يقول الرجل :
أنا قتيلك .

وكان من الطبع أن تحمد فيه هذه التضحية ، وأن ترحمه ، وتمنوع عليه . ويكفى
أنه ذهب فى حبها إلى هذا المدى . والجود بالنفس أقصى غاية الجود .

وماذا يكون الجواب ؟

نفيظه هي ، وتقسو عليه ، وتشتد في الغيظ والقسوة ، وتقول له أى القتل أنت ؟
إذن هام بها كثيرون ، وشغفوا حبا . بل وصلوا إلى أن أصبحوا قتلها وصرعها .
وليس هناك أقسى على الحب من أن تستهتر به الحبيبة ، وأن تظهر له أن كثيرين
يبادلونها عاطفة الحب . والحب غيور مستأثر .

وهذه حاله : سهد ، ألم ، وحرقة ، وعذاب . أضناه ذلك وأسقمه وأهلكه .
تتجاهل الحبيبة كل ذلك ، وتتجاهل أنها سبيه ، وتقول له : لقد أزرى بك
الدهر بعدنا .

ويقول المحبوب : معاذ الله . بل هي التي كانت سببا في ذلك كله . إنه يهواها
وفي سبيل هذا الهوى حارب أهله ، وهم لديه أحب من الخمر والماء .

وأغنية « اذكريني » تحدثنا عن ألم الحب ، ومرارته ، وما يوحيه من دموع
وأنين ، ومن لوعة واشتياق ، فهو يطلب أن تذكره ، وأن ترجمه .

وأغنية « محمد عبد الوهاب » - تلقت ظبية الوادي - تحدثنا عن بعض صفات
الحسن في الحبيبة من لحظ ، وجيد ، وأن اسمها حلو جميل ، حتى كأنه البشرى
أو العيد . ويصف الحبيب نفسه كأنه في حال جنون : يتخيل من يناديها : ومن هم
المنادون ؟ أم أهلها أو عشاق معاميد ؟ وهل يشركه في حبها أحد ؟ إن هذا بلاء عظيم .
وهل ليلى هذه التي نادوها هي ليلاء ، أو غيرها ؟ هذه ثورة تكاد تكون جنونا ،
يعبر عن حالة نفسية ، تقع كثيراً بين المحبين .

أليس ذلك كله غزلا ؟

واليس غزلا رقيقاً جميلاً ؟

على أن هذا الغزل وإن كان رقيقاً جميلاً ، ولكن الصوت الجميل الذي حمله
إلينا جعله أكثر رقة ، وأكثر جمالا .

إنك تعرف ما في هذا الغزل من حلاوة وجمال حين تسمعه من أم كلثوم ،
أو من محمد عبد الوهاب ، وأمثالهما .

وإني أسائل القارىء الكريم ماذا يكون حظ هذه الأشعار من الذبوع
والانتشار . إذا لم تحظ بمثل أم كلثوم ، ترددها وتغنيها ، فتحيي بها القلوب ، وتطرب
الأفئدة وتصبح بعد ذلك نجوى كل حبيبة وحبيب .

إن الألفاظ والمعاني تسعد وتشقى ، كما يسعد الناس ويشقون ، والشعر يكون حظه
من السعادة إذا كان المعنى جميلاً ، واللفظ سهلاً ، وحين يغنيه وجه جميل ، وصوت جميل .
وعلة ذلك عند علماء علم النفس أن التأثير وصل إلى النفس في أكثر من حاسة ،
وصل التأثير من طريق الذوق ، والسمع ، والبصر .

أما الذوق : فطريقه تذوق الألفاظ والمعاني .

وأما السمع : فطريقه النغم الحلو ، والصوت الجميل .

وأما البصر : فطريقه ما وهب الله المغنيات من حسن وبهاء .

هذه أمثلة من بعض الأغاني المصوغة باللغة العربية الفصحى .

وهناك سيل جارف من هذه الأغاني ، صيغت باللغة العامية ، ولا بأس أن أذكر

شطراً منها :

أم كلثوم تغنى .

إنت فاكراى والا ناسيانى يا لى ظالمانى يا لى هجرانى

إنت فاكراى والا ناسيانى

الحنين فاض بى والبعاد طول والهوى فى قلبى زاد عن الأول

إوعى تفتكرى قلبى يتحول يا لى ظالمانى يا لى هجرانى

إنت فاكراى والا ناسيانى

إمتى يتمتع بالوصال قلبى والزمان يسمع بالهناء فى حوى
دا الفراق قاسى والشجن زادى يا لى ظالمانى يا لى هجرانى
إنت فاكراى والا ناسيانى

طال على الليل اشتكى وجدى زاد على الويل فى السهر وحدى
وانت ليه ترضى فى الهوى بعدى يا لى ظالمانى يا لى هجرانى
إنت فاكراى والا ناسيانى

ارحمى قلبى واسألى عفى الغرام ذله واشتكى منى
إمتى تصفى لى وابق متهى يا لى ظالمانى يا لى هجرانى

وليلى مراد تغنى :

يا قلبى اصبر على الأيام يمكن يعود صفوك تانى
عهد الهوى ذكره أعلام يا قلبى إمتى تعيش هانى
يا قلبى اصبر على الأيام
آسيت فى دنيا الحب كثير وليه يا قلبى طاوعت هواك
بعد الوفا ما لقيتش نصير ما شفت غير فى الوحدة أساك
عهد الهوى ذكره أعلام

حببت وشفقت لى جرائك ظلمت ليه حالى وياك
شريد ومين يرحم حالك وحيد ومين يسمع نبحواك
عهد الهوى ذكره أعلام

أبات وأنا وياك حيران واتمنى يوم يرتاح بالى
ما لقيتش غير جفنى السهران ولا حبيب يبكى لحالى
عهد الهوى ذكره أعلام

وأسمهان تغنى :

يا نسيم احمل سلامى لى قلبى مال إليه
أشتكى له من هيامى وانشعال فكرى عليه
قضيت نهارى أناجى طيفك واغنى لحن الهوى الجميل
أقول لروحى امتى أشوفك والقرب يحلى من غير عذول
لما حوانى الليل وزاد فى قلبى الليل
مريت على بيتك وحدى أغنى من شدة وجدى
وجيت أناجيك بلحنى والحب ظاهر فى عيني
يمكن فؤادك يرحمنى

ومحمد عبد المطلب^(١) يغنى :

يا بوى العيون السود ياللى جمالك زين
ميتى^(٢) الوداد يعود وتنول منهاها العين
ميتى يا نور العين

حبيت وجلت^(٣) ياريت الحب يصفى الى
وياريت ما كنت هويت ولا كان على بالى
ليه يا جميل صديت شمت عذالى
يا بوى يا بوى يا بوى

جلبى عشج جدك^(٤) ولا لوش حبيب تانى
وياريت يلين جلبك^(٥) وتجل^(٦) أشجاني

(١) هذه الأغنية على لسان رجل من أهل الصعيد — الوجه القبلى بمصر — وفى بعض لهجاتهم العامية ينطقون القاف جيما كما ترى . (٢) أى متى . (٣) أى قلت .
(٤) أى فلبى عشق قدك . (٥) أى قلبك . (٦) أى تقل .

وتشوف عيني بهاك وآهني من تاني

يا بوى يا بوى يا بوى

العين ضناها النوح م السهد وأنيني

والجلب بات مجروح كان ليه تحافيني

ياللى معاك الروح بالجرب^(١) هنيى

يا بوى يا بوى يا بوى

* * *

وتعال معى لأترجم لك هذه الأغاني :

فى أغنية أم كلثوم :

حبيب ينجى حبيته ، التى ظلمته بهجرها له ، دون ذنب جنى . ينجيها ،
ويسألها : أتذكره ؟ كما يذكرها ، أو تنساه ، ويغيب عن قلبها ؟

ثم يذكر لها أن طال بعادها ، ومع ذلك فهو لا يزال يحن إليها ، ولا يزال هواها
فى قلبه ، يزيد الفراق لوعة ، وشوقاً ، وغراماً .

والفراق قاس مرير . ومع ذلك فهو يصبر . ويدعو الله أن تدنو ساعة الوصال ،
وفى الهناء والسعادة .

ليل المحبين طويل . فيه ذكريات ، وفيه آلام ، وفيه وحشة ، وفيه سهاد .
هذه حال المحبوب . حال تتطلب من الحبيبة أن ترق ، وترحم ، فهو يتوسل
إليها ، حتى تصفى إلى خفقات قلبه ، وتأسو جراحه ، حتى يعود إليه صفاء العيش .
وفى أغنية أسمهان :

يطلب الحبيب من النسيم أن يحمل سلامه إلى من مال قلبه إليها ، وأصبح فكره
بها كلفاً مُعنى .

(١) أى بالقرب .

في النهار يناجي طيفها ، ويعني لحن حبها وهواها ، ويعني نفسه الأمانى ، لعله
يراه ، يراها وحيدة ، دون رقيب أو عدول . وفي هذا خير متعة للمحبين .
وفي الليل يزيد وجيب قلبه بحبها . ولعل ذلك يدفعه إلى أن يعرج على دارها ،
فيغنى غناء الحب ، ويشدو شدو الهوى .

وفي أغنية محمد عبد المطلب :

يسائل المحبوب الحبيب :

متى يكون الوصل ؟ ومتى تقر العين ببلوغ الأمانى ؟ ولا أمنية للمحسوب
إلا أن يلقى حبيبته ، وأن يصفو بينهما الحب .

ثم لا يدري سببا لصد الحبيب ، فيسأل علام الصدود ؟ ، وفي الصدود شماتة العذال .
ثم بين أنه يعشق حبيبته ، وأنه يؤثرها بهذا العشق . فهل يلين قلبها له ؟
وهل ترحمه : فتقل أشجانه وأحزانه . وهل يهنأ بها ؟ ، فتري عينه حسناتها وبهاها .
ثم ذكر سقمه في سبيل حبها : عين ساهرة ، وقلب جريح . فلم الهجر والتجافى !
إن روحه معها ، فلم لا يهنأ بالقرب منها ؟ ، ذلك ما يشتهى ويتمنى .

هذه أغان جميلة حقاً : جميلة في تصويرها ، وفي خيالها ، وفي معانيها ، وكثير
من هذه المعانى عرض له الشعراء المجيدون ، وبسطوه في قوافيهم ، وبعضها جديد مبتكر ،
وخاصة في صورته وأخيلته .

لكن يشوب جمال هذه الأغاني أنها صيغت باللغة العامية ، وقد طغت هذه
الصياغة على الأغاني في عصرنا الحاضر ، فمسخت روعتها وجلالها .

واللغة العربية سهلة ، غنية ميسرة ، فلم لا نسير على نهجها ، في كل أثر من آثارنا
من حديث ، وخطابة ، وكتابة ، وشعر ؟

كم نود أن يرتفع الغناء إلى مستوى رفيع من حيث الصياغة ، ومن حيث روعة

المعاني . إذن لزاد جمالا فوق جمال ، وزاد حسنا فوق حسن .
ويظهر أن هذا سببه ما نشكو من نقص في نسبة التعليم بيننا . وحين نصبح
جميعاً متعلمين ، بل حين نصبح جميعاً في درجة متقاربة من الثقافة والأدب ترتفع
بنفوسنا عن أن نسمع غناء بغير اللغة العربية الفصحى ، ويرتفع المغنيات والمغنون عن
أن يسمعونا غناء بغير اللغة العربية . لأن من الواجب أن توجد بين المغنين والسامعين
صلة روحية في الفكرة ، واللغة ، والأسلوب .

وعيب نفشى الأمية بين شعوبنا العربية قد يكون من العوامل التي تؤخرنا
عن أن يكون لنا في هذا العصر أدب ذائع رائع .
وقد يكون هذا هو الفارق بيننا وبين العرب في المصور الأولى .

العربي في عصوره الأولى كان يتذوق اللغة العربية ، ويتفهم معانيها ، ويجزى بها
قلمه ، ويهتز بها لسانه ، ويصوغ القوافي سجية وطبعاً ، دون تكلف ، أو تمحل أو إعياء .
أما في عصرنا الحاضر ، فقد بعدنا عن أن نجري في هذا الميدان ، لما غلبنا من
هجنة ، وعجمة ، وما خالطنا من سيل جارف أجنبي ، وما وقع علينا من أحداث ، آلت
بنا إلى هذا الوضع .

هذا العيب نتوأسى الآن جميعاً على اطراحه ، لأنه لا يليق بكرامتنا ، ولا بما
نصبو إليه من مجد وحضارة أن يقوم بيننا ، وخاصة ونحن في عصر غلاب ، والغلبة
فيه لمن تسليح بسلاح العلم .

لا بد من محاربة الأمية ، بل لا بد من أن يتقارب الشعب العربي في درجة من
الثقافة ، لا تجعله متفاوتا متنازلاً . وحينذاك يقوى الأدب ، ويزدهر . وحينذاك
نجد جبهة من الشعراء ، وجبهة من السامعين والقارئین ولا أبالغ إذا قلت إننا إذ
نصل إلى هذه الحال نكون بلا شك خيراً من المصور الأولى ، في كثير من الأخيلة
والألفاظ والمعاني .

شعراء الفزل في العصر الحديث :

غنى العصر الحديث بطائفة من الشعراء ، أضفوا على اللغة العربية ثروة من الأخيلة والمعاني .

واستطاع هؤلاء الشعراء ، وقد طغت على دولة الشعر غوائل الزمن أن يعيدوا لها مكانتها ، وقوتها ، حتى أصبحت الآن قائمة البناء ، ثابتة الدعائم ، وأرجو أن يتم لها في المستقبل القريب ما نصبو إليه جميعاً من رفعة ومجد .

ومن مشهورى متقدمى هؤلاء الشعراء .

الشيخ أمين الجندى المحصى ، والشيخ شهاب الدين المصرى ، والشيخ خليل اليازجى ، و خليل الخورى ، وعبد الله باشا فكرى ، وعائشة التيمورية ، ومحمود باشا البارودى ، وحفنى ناصف ، واسماعيل صبرى .

وبعد هؤلاء غنى كل قطر عربى بطائفة من الشعراء .

فمن شعراء مصر :

أحمد شوقى ، وحافظ ابراهيم ، ومحمد عبد المطلب ، و خليل مطران ، وعلى الجارم ، ومحمد الهراوى ، حسن القاياتى ، وعباس محمود العقاد ، وأحمد رامى ، وإبراهيم عبد القادر المازنى ، وعلى القاياتى ، ومحمود حسن اسماعيل ، وسيد قطب ، ومحمد الأسمر ، وعبد العزيز عتيق ، وبيرم التونسى ، ومحمد عبد الغنى حسن ، ومحمود غنيم ، وزكى مبارك ، وعلى محمود طه ، وعلى الجندى ، والعوضى الوكيل ، وفايد العمروسى ، محمد الحناوى ، محمود عمار ، طاهر الجبلاوى ، طاهر أبو فاشا .

ومن شعراء العراق :

معروف الرصافى ، جميل صدقى الزهاوى ، عبد المحسن الكاظمى ، محمد رضا الشيبى ، محمد مهدي الجواهري ، حبيب العبيدى ، خيرى الهنداوى ، كاظم الدجيلى .

ومن شعراء سورية ولبنان :

خير الدين الزركلي، وشبلى ملاط، وإشارة الخوري، وإيليا أبو ماضي، عمر أبو ريشة.

ومن شعراء المهجر بأمريكا :

ميخائيل نعيمة، جبران خليل جبران، حلیم دموس .

ومن شعراء فلسطين :

إسعاف النشاشيبي، أبو الإقبال اليعقوبي .

ومن شعراء الحجاز :

أحمد عبد الغفور عطار، علي أحمد با كثير، طاهر زنجشیری .

ومن شعراء البحرين : إبراهيم العريض .

ولا شك أن هناك شعراء آخرين، قد يكونون مجتهدين لم تصل إلى أخبارهم،

وليست لدى مصادر عن شعرهم، وليعذرني هؤلاء إذا لم أعرض إلى ذكرهم .

هؤلاء هم الشعراء عامة .

فأين منهم شعراء الغزل؟ وأين حظ الغزل في شعرهم؟

ولعل في بيان ذلك — إذا شئنا الإطالة والتفصيل — كثيراً من الصعوبة والمشقة .

وقد تدعونا الضرورة لهذه الإطالة إذا شئنا أن نتحدث عن الشعراء في العصر

الحديث، أو عن شعراء الغزل في العصر الحديث — حديثاً خاصاً، قائماً بذاته .

ولكننا نتحدث الآن عن تطور الغزل، ونتحدث عن الغزل في ثلاثة كتب، هذا أحدها .

فليكن حديثنا إذن مجملاً، نعرض فيه العوامل، والأسباب، والنتائج، ونذكر

أمثلة شعرية لهذا، دون استقرار أو استيعاب .

ثم إن كثيراً من هؤلاء الشعراء ليس لهم دواوين، نحوى نتاج قرائنهم، وقد تبعد

الشقة بيني وبينهم، فلا أستطيع الاتصال بهم، لأستمد منهم بعض ما أريد . وهيئات

أن يكون ذلك ! فأعباء الحياة ثقيلة كثيرة، لا يتسع فيها وقت الباحث، ولا تمكنه طاقته

أن ينتقل ويرتحل ، ليتصل بالشعراء ، ويستوحى منهم ما يساعد على تحقيق تلك الغاية .
على أنى لا أخفى عليك أيها القارىء الكريم — لتكون شاهداً بينى وبين
طائفة من هؤلاء الشعراء ! — رغبة منى فى الدقة التى تتطلبها البحث العلمى ، أردت
أن أتصل بجماعة من شعراء الغزل ، اتصالاً غير مباشر ، فأرسلت لهم كتاباً ، أكشف
عن أربى ، وأعرض حاجتى ، فلقيت من بعضهم بعض العون . واعتذر لى بعضهم ،
متمللاً ببعض العلل والأسباب . وكانت النتيجة فاشلة ، ولونجحت لعمتها ، ونشرتها
فى دائرة أكثر اتساعاً ، وفى آماد بعيدة . ومن يدرى إذا كنت قد بدأت بغير
من بدأت بهم لكنت التجربة ناجحة موقفة ؟ ! .

وشىء آخر كان سبباً فى هذا العناء . ولولم يوجد لما كانت هناك حاجة إلى التجارب ،
وارتقاب نتائجها من فشل أو نجاح — ذلك أننا فى أعقاب حرب ، لم تمكن ظروفها
من طبع الدواوين الشعرية ، ومن تزويد الصحف والمجلات ، بنتاج قرائح الشعراء .
ومن العجيب الغريب حقاً ، ونحن فى عصر نهضة ، ونحن نأخذ أنفسنا بأسباب
هذه النهضة فى كل شىء ، ومنها الأدب ، أو فى مقدمتها الأدب ، لأنه باعث الحياة ،
وموحيها ، ومحبيها — من العجب الغريب ، وقد كثر النقد الأدبى بيننا ، وأصبحت له
أصول ، وقواعد ، وفنون . أن لم يعرض الناقدون شعراء هذا العصر ، فيسطوا نتاج
قرائحهم ، ويشيروا ما فيها من آيات وروائع ، ويذهبوا إلى ما فيها من أكدار وشوائب .
إذن لكان لنا من ذلك خير .

ومن هذا الخير أن يتدارس النشء الشعر فى العصر الحديث . أو بعبارة أخرى
أن يتدارس النشء حياتنا فى العصر الحديث ، لأن الشعر مرآة الحياة ، وعنوانها
الصحيح ، فى صورتها الباسمة ، أو العابسة .

ما أحوجننا إلى أن ندرس أنفسنا ! ، وأن ندرس ما حولنا ومن حولنا ، وأن ندرس
آلامنا وآمالنا .

فصلاح الأمة ، وإصلاحها يتطلب أن نعرف ما هي ؟
 أين وجه الخير ؟ حتى نقويه وندعمه ، وأين وجه الشر ؟ حتى نحاربه ونهدمه .
 وكذلك الأدب لابد أن نعرف ما هو ؟
 أين فيه ما يبعث القوة والجمال ؟ فنغذيه وننميه .
 وأين فيه ما يبعث الضعف والانحلال ؟ فنطرحه ونجفوه .
 ولا يكون ذلك إلا بالنقد ، والدرس ، والتمحيص .
 وعسى أن يكون .
 ولنعد الآن إلى ما كنا فيه .

ولنتناول من بعض هؤلاء الشعراء بعض الأمثلة في شعر الغزل ، لنتبين منها طابع
 الشعر في هذا العصر ، والغاية التي يتجه إليها . وقد أعرض بعض هذه الأمثلة في شيء
 من الشرح والتحليل ، مكثفياً في هذا بالقدر القليل ، وأترك للقارئ اللبيب تحليل
 ما لم يتناوله القلم .

١- أحمد شوقي :

يقول في أول قصيدة في وصف حفل^(١) :

طال عليها القِدَم	فهي وجودٌ عَدَم
قد وثدت ^(٢) في الصبا	وانبعشت في الهرم
بالـغ فرعون في	كرمتها من كرم
أهراق عُقودها	تَقْدِمَةٌ لِلضَّم
خبأها كاهنٌ	ناحيةً في الهرم
اكتشفت فأنحت	غير شذاً ^(٣) أو ضَرَمَ ^(٤)

(٢) وأد ابنته : دفنها في القبر وهي حية .

(٤) الضرم : الاشتعال .

(١) ديوانه ج ٢ ص ١١١

(٣) الشذا : قوة ذكاء الرائحة

أو كخيال لها بـعد متابٍ ألم
نمّ بها دَنَمًا وهى عليه أنم

ويقول^(١) :

أريد سلوكم والقلبُ يابى
وأهجرُكم فيهجرنى رُقادى
وأذكركم برؤية كلِّ حسن
وأشكو من عَذَابِي فى هواكم
وأعلم أن دَابَكُمْ جَفَائِي
ورُبَّ معاتبٍ كالعيش يُشْكِي
أتجزينى عن الزلقى نِفَارًا ؟
فكل ملاحية فى الناس ذنب
أخذتُ هواك من عيني وقلبي
وأنتَ من المحاسن فى مثالِ
أحبك حين تَشْنِي الجيد تِها
وقالوا فى البديل رضا وروح
وراجعتُ الرشاد عساي أسلو
إذا ما الكأسُ لم تذهب هموى
على أنى أعفُ من احتساها
ولى نفسٌ أرويتها فتزكو

وأعتبكم^(٢) وملء النفس عُنْبِي^(٣)
ويُضويني^(٤) الظلام أَسَى وكرها
فيصبو ناظري والقلبُ أضى
وأجزىكم عن التعذيب حُبًا
فما بالى جعلتُ الحب دَابًا
وملء النفس منه هوى وعُنْبِي
عتبتك بالهوى وكفأك عَمْبًا
إذا عُدَّ النِفَارُ عليك ذنبًا
فعينى قد دعت والقلب لَبِي
فديتك قالبًا فيه وقلبا
وأخشى أن يصير التيه دَابًا
لقد رمتُ البديل فرمتُ صعبًا
فما بالى مع السلوان أضى
فقد تَبَّتْ يدُ الساقى وتبّا
وأكرمُ من عَذَارَى الدير شُرْبًا
كزهر الورد نَدْوُهُ فهَبّا

(٢) يقال أعتبه : أى أزال عتبه أى أَرْضاه

(٤) أضواه الأمر : أضغه

(١) ديوانه ج ٢ ص ١٤٥

(٣) العنبي : الرضا

ويقول^(١):

يا ناعماً رقدت جفونه	مُضناك لانتهدا شجونه
حمل الهوى لك كله	إن لم تُعنه فمن يعينه
عدُ منعماً أو لا تعدُ	أودعت سرّك من يصونه
ينى وبينك فى الهوى	سببٌ سيجمهنا متينه
رشاً يعاب الساحرو	ن وسحرهم إلا جفونه
الروح ملكٌ يمينه	يفديه ما ملكت يمينه
ما البان إلا قدّه	لو تيمت قلباً غصونه
ويزين كل يتيمه	فهو وتحسبها تزينه
ما العمر إلا ليلة	كان الصباح لها جبينه
بات الغرامُ يديننا	فيها كما بقنا ندينه
بين الرقيب وبيننا	واد تباعده حُزونه
نفتابه وتقول لا	بقى الرقيب ولا عيونه

فأنت ترى فى شعر شوقى غزلاً ، وترى فيه رقة وعذوبة .

وكثيراً كان شوقى يبدأ قصائده بالغزل كما رأيت من قبل . ويبدأ قصائده

بوصف الخمر كما ترى فى المجموعة الأولى من هذه الأمثلة الشعرية .

وفى المجموعة الثانية :

يحدثنا شوقى أنه يريد أن يسلوها ، ولكن القلب يأبى هجرها . إن فى هجرها

سهداً ، وعذاباً ، وكرباً .

إن الحبيب يذكرك بحبيته ، لأن فى ذكرها خيراً ونعيماً . ان فى ذكرها أملاً حلوا ،

ينير الحياة أمام المحبين . والحبيبة جميلة فى عين المحبوب . فإذا رأى شيئاً جميلاً ،

أو منظرًا حسنًا تذكرها ، يتمثلها في كل ما هو حسن جميل . وكأن كل ما هو حسن مستمد منها ، وكل ما هو جميل مأخوذ عنها . يشكو من تعذيبها له . وما أكثر شكوى المحبين ! تجفوه ، وهذا دأبها ، لا تنفك عنه ، ولا تحيد . أما هو فيجزئها على ذلك مودة وحبًا ، ويجعل ذلك دأبه ، لا تنفك عنه ، ولا يحيد . هذه حاله معها . وتلك حالها معه . ويسألها : أتجزين عن الزلنى نفارا ؟ والجواب على ذلك صد وهجران ، أو متابعة للصد والهجران . ويصور كيف وصل الحبيب إلى الحبيبة ، ووقع في شرك هواها . رأتها العين ، ورأت حسنها ، وملاحظها ، وجمالها . أما العين فأعجبها ذاك الحسن والجمال ، وأما القلب فقد خفق متأثرًا بالحسن والجمال ، فابى دعاء العين ، وما دعاؤها إلا الحب والهوى . ويأتى دور العواذل ، ولا شأن لهم إلا أن تقوم الكراهية بين المحبين ، يزبنون لهم الفرقة ، والفتنة ، والجفوة . إنهم راموا له بديلا يغنى عنها ، فما أغنى عنها بديل . راموا أن يسلوها ، فلم يستطع أن يحقق لهم ماراموا ، بل زادت صبوته ، وزاد شوقه وحنينه ، حتى الخمر احتساها — وهو العف — لعله ينسى الهموم والأحزان . هموم الحب وأحزان الهوى . ولكنه لم ينسها ، لأن حبها تمكن في قلبه ، ولأن هواها امتزج بلحمه ودمه ، وهيات أن تنسى نزوة الخمر ما حل في القلب ، وامتزج باللحم والدم ! .

وفى المجموعة الثالثة :

تظهر صورة صادقة للحبيب المعرم المقيم .
الحبيبة تنام راقدة الجفن ، قريرة العين . والحبيب لا يزور النوم عينيه . فهو مضنى معذب لا تهدأ شجونه ، ولا تجف أحزانه .
هذه حال تتطلب الشفقة والرحمة . الشفقة منها وحدها ، فهي التى تعرف داءه ومصابه .

وأخذ يذكّر حسن هذه الحبيب .

جفون ساحرة . والسحر معيب إلا من هذه الجفون . وقد كالبان ، تيمت القلب غصونه . ولم عذب الثنايا ، وجبين مشرق وضاء .
ثم يصف ليلة اجتمع فيها الحبان ، في ظلال الغرام يتناحيان ، ويتبادلان كؤوس الهوى . وما ألد هذه الكؤوس ! . والرقيب ناء بعيد ، يتلهيان باغتيابه وملامه ، وينتشيان بظفرهما عليه ، حيث كان هذا اللقاء بعيداً عن الرقيب وعيونه — لا بقي الرقيب ولا عيونه ! .

٢ — عبد المحسن الكاظمي :

يقول متغزلاً ويذكر وطنه^(١) :

أيها الأرض إن فيك نجوماً باهر ضوءها نجوم السماء
تتجلى في كل حين فتُجلى شبهات الأكدار والأقذاء
بضياء تعشوا له كل عين إذ تراه أحبُّ به من ضياء
أيها القلب كم تحن إلى الكر خ^(٢) وتهفولسا كنى الزوراء^(٣)
وشجياً أراك في كل حين لصحاب من الجوى أخلياء
أخذوا النوم من جفوني وباتوا في جفون رياً^(٤) من الأغفاء^(٥)
ويقول متغزلاً ويشكو الزمان^(٦) .

ما العيش إلا ليــــلة في الدهر نام وشاتها
وأفاك من تهوى وقد شغل العيون سناتها^(٧)
حيث الصباة في الحشا نار ذكت جمراتها
يسقيك طيب حديثه خمرًا حلت نطفاتها^(٨)

(١) ديوانه ص ٤٤ (٢) الكرخ : محلة في بغداد (٣) الزوراء : بغداد
(٤) رياء : مرتوية (٥) أي النعاس (٦) ديوانه ص ٣١٦
(٧) جمع سنة وهي النوم (٨) جمع نطفة وهي الماء الصافي

ويظل يمزجها هوى أو تنطفي حرقاتها
في الأرض جنات وقد جمعت لنا جَنّاتها
في روضة طابت مفا رسها وطاب جَنّاتها^(١)
ويقول غزلاً في أول قصيدة :

يهفو إليك ويصبو متيم بك صب
فؤاده يتلظى ودمعه منصب
لظى الوج د في حشاه تشب

في المجموعة الأولى :

يخاطب شاعرنا الكاظمي الأرض ، ويشير إلى أن بها نجومًا تفوق نجوم السماء ؛
في الحسن ، والبهاء والجمال . ويذكر وطنه وأن له فيها خلاناً يهفو إليهم ، ويحن
لمودتهم . بل امل فيه هوى نفسه ، التي تأخذ النوم من جفنه ، وتتركه مضئى معذباً .
وفي المجموعة الثانية :

يصف صفو الحياة . وصفوها في أن يلتقي الحبيب حبيبته ، بعيداً عن الوشاة
والرقباء . يثها صبايته وغرامه ، وتسقيه من طيب حديثها خمرأ ، أو أرق من الخمر ،
وأكثر نشوة في النفس من الخمر . وفي الحياة الأولى كالحياة الأخرى جنات . وفي هذه
الجنات نعيم ، وخلود . هي حيث تكون ظلال الحب ، وحيث يكون العيش تحت
هذه الظلال ، وحيث يكون سلاماً وأمناً .

٣ — حافظ إبراهيم :

يقول في أول قصيدة مدح :^(٢)

أوشك الديك أن يصيح ونفسى بين هم وبين ظن وحادس^(٣)
يا غلام المدام ، والكاس ، والطا س وهبي لنا مكاناً كأمس

(١) جمع جان وهو من يحنى الثمر . (٢) ديوانه ج ١ ص ١٣٠ (٣) الحدس : التخمين والتوهم .

أطلق الشمس من غيَّاهب هذا الد
وآذن الصبح أن يلوح لعيني
وإدع نذمان خلوقى وأتناسى
واسقنا يا غلام حتى ترانا
خبرة قليل إنهم عصروها
ن واملأ من ذلك النور كأسى
من سناها فذاك وقت التَّحَمَّى^(١)
وتعجل وأسبل ستور الدَّمَقْسِ^(٢)
لا تُطبق الكلام إلا بهمس
من خدود الملاح فى يوم عرس

ويقول متغزلا فى أول قصيدة مدح^(٣):

كم تحت أذيال الظلام متيم
ما أنت فى دنياك أول عاشق
أهرمتنى يا ليل فى شرخ الصبا
لا أنت تقصر لى ولا أنا مقصر
لله موقفنا وقد ناجيتها
قالت من الشاكى؟ تسائل سِرِّها
فأجبتها وعجبى كيف تجاهلت
أنا من عرفت ومن جهلت ومن له
أسلمت نفسى لاهوى وأظنها
وأنت يحدو بى الرجاء ومن آتى
أشكو لذات الخال ما صنعت بنا
لا السهم يرفق بالجريح ولا الهوى
فى المجموعة الأولى :

يصف الخمر، وما يتصل بها من لهو وسمر.

(١) التحمى : الشرب شيئا فشيئا . (٢) الدمقس : الحرير . (٣) ديوانه ج ٣ ص ١٤٣

وفي المجموعة الثانية :

يحدثنا عن الليل ، وكـم يحوى من متيمين ، أضنام الهوى ، وأدمى أفئدتهم .
وليت من يرمى القلب ، فيكلمه ويدميه ، يحنو ويترحم ، إنه قاس جاف ، لا يرق
ولا يلين ، وهذا شأن العاشقين ، منذ أن خلق الله الكون .

وكـم لهذا الليل من ساعات : فيها أهوال ، وفيها شذائد ، وفيها آلام .
ثم هذا هو الحبيب يناجى حبيبة قلبه ، ويثبها حزنه ومكنون حبه ، وهو فى هذه
النجوى يذوب صباية ، ويحترق ألماً وأسى ، والحبيبة لا تحس بذلك ، بل تتجاهله
وتسائل تربها فى شىء من التفاضى والاستهتار : من الشاكى ؟ ، من هذا الذى يتظلم ؟
كأن الأمر لا يعنينا : وكأن الأمر لا يتصل بها ! وكأن ليس فى الأمر ما يؤبه له ،
ويستحق منها النظر والرعاية ! أما أترابها فقد عجبنا ، كيف تتجاهل هذا الذى تراه ؟ ،
ولا ترى إلا صفرة الوجه ، ونحول الجسم ، كيف تتجاهل هذا الذى تسمعه ؟ ، ولا تسمع
إلا الآهة والأنة ، آهة القلب الكسير ، وأنة الفؤاد المكسوم . هو ذلك المتوجع المتألم
الذى تسألين عنه أيها الظالمة المتجنية !

وإنه بعد ذلك يسلم نفسه للهوى ، وقد تجشمها الهوى آلاماً ، وإنه يشكو ما تصنع
به العيون : من أمر وفك وسحر .

ولا يزال الحبيب مُعْنَى بثلاث من النائبات الدواهي : سهم قاتل لا يرفق به ،
وهوى فاتك ، لا يبقى عليه ، وصباية لا ترحم .

٤ — عباس محمود العقاد :

يقول ^(١) :

لا تسألنى متعبٌ أنت فما	تعب الأرواح فى عليا السماء
بجناحين من الحب ومن	حسنك الخافق ينقاد الفضاء

طرت لأشكو المدي من تعب حين صاحبك في ذاك المساء
لم أكن ألمس أرضاً إنما كد ت أسرى حين أمسى في ضياء
ويقول في وصف أحد شواطئ الاستحمام في الإسكندرية « ستانلى ^(١) » :

هذى المحاسن موسمٌ أحيت مواسم من سآف
جمعت لعينك ساعةً وغداً تفرقها الفُرف
ملأت خليج « ستانلى » وطففت على أعلى الطنْف ^(٢)

فتنٌ شهدت زحوفها كالجيش أهول ما زحف
فهتفتُ « فليحى الجما ل » وقد يُعاقب من هتف
هذى معارض صنعة لله تُبهر من وصف
ويقول ^(٢) « تحت عنوان : فيك من كل شيء » :

فيك من شمس الضحى العين التى ترسل الملح مضيقاً فى الظلام
فيك من بدر الدجى أحلامه حين يسرى فائماً بين نيام

فيك من كل ربيع طامعة تنبت النضرة عاماً بعد عام
والشتاء الجهنم لا يمدوك من عهده العاصف برقٌ وغمام

ما تغنى الطير إلا بعض ما أنت راويه ، ولا ناح الحمام
وإذا الجدول ناغى نفسه فهى أصداؤك من غير كلام !

فيك من نار الحياتين الهوى هل حياة الحى إلا من ضرام ؟

(٢) ديوانه وحى الأربعين ص ١٠٦

(١) الطنف : ما برز من البناء

والذى أرهبه —هـ واأسفا —هـ رك المدعو بالموت الزوام

فيك من دنياك نقص رائق —هـ ومن الأخرى تبشير التمام
ومن الأملاك طيب ورضاً —هـ ومن الشيطان غيٌّ وأثام

ومن الحرة سكرها إذا —هـ أسلست في النفس أوطاش الزمام
ومن القوت غذاء، ومن الـ —هـ ماء رى، ومن الجوع هيام

فيك من أرض حظٍّ وانق —هـ وحظوظٌ من سماء لا ترام
أجديد؟ إى نعم . قال الصبا —هـ أقديم؟ أى نعم . قال الوسام

هذه الروعة هل تجمعها —هـ فى مدى يوم لحومٍ وعظام؟
لا وربى ! بل دهورٌ غبرت —هـ قبلما تتقنها الأيدى الكرام

ويقول :

تريدن قلبي ؟ خذيه خذيه ! .
دعيه إذا غبت عني أرى
وسرٌّ أبوح به خلصة
أخاف على البعد أن تلعبى
فكم لعبة وقعت من يد
إذا ما لعبت به ها هنا
تريدن قلبي خذيه خذيه
رويدك . لا . بل دعيه دعيه
بحياك فيه ، وحي فيه
وإن كنت من قبل لم تسمعيه
به يا بنية أو تهمليه
يك وقوعاً أرى القلب لا يشتهي
فانى لآمن أن تكسريه
ولكن بربك لا تنقليه

فماذا ترى فى شعر العقاد ؟

فى المجموعة الأولى :

ترى محباً ، سما روحه فى الحب ، فعاف الأرض وساكنيها ، وصعد إلى عُلّيا
السما ، واتخذ مطيته فى هذا الصعود جناحين : جناحاً من الحب ، وجناحاً من
حسن الحبيب ، والرحيل شاق عسير ، فما بالك به إذا كان بين أجواز الفضاء ؟ ولكن
هذا الرحيل سهل هين ، لأنه ارتحال أرواح ، والأرواح لا تتعب ، ولا تصادفها مشقة
أو عناء . والرحيل حلو جميل ، لأن فيه الحبيب ، وحين يكون الحبيب تكون السعادة
وتكون الهناءة . وحين يكون الحبيب ، تهون الشدائد ، وتسهل الصعاب ، بل يصبح
الظلام نوراً ، والجوع شبعاً ، والظما ريثاً .

وفى المجموعة الثانية :

يصف جمال هؤلاء الفيد الحسان على شاطئ البحر .

وفى المجموعة الثالثة :

يصور الحبيبة كما يراها الحبيب .

يرى فيها من كل شىء .

يرى فيها نور الشمس ، وأحلام البدر ، ونضرة الربيع ، وعهد الشتاء من برق
وغمام ، وغناء الطير ، ونوح الحمام ، ونقص الحياة الأولى ، وتمّ الحياة الأخرى ،
وملاك الرحمة ، وغنى الشيطان ، وسكرة الخمر ، وغذار القوت ، ورى الماء .

وفى المجموعة الرابعة :

يهب لها قلبه ، ويصرح لها بهذه الهبة . ولكنه يفكر ملياً ، ويرى أنه مخطئ .
فيما فعل ، مسىء إلى نفسه ، وإلى حبيبة قلبه . مسىء إلى نفسه ، لأنه يرى فى قلبه
محياتها ، ويرى حبه فيها ، فإذا أعطاها قلبه حُرْم هذا المحيا ، وحرّم تلك الصور الجميلة
من ذكرى حبها ، وفى هذا عذاب وبلاء . ومسىء إلى حبيبة قلبه . لأنه يخاف على

البعد أن تهمله ، أو تلعب به فيصيبه شرخ أو انكسار . وفي هذا وزر ، وجرم كبير
إذن فليبق قلبه بين جوانحه حتى يكون عليه حارساً وحفيظاً .

٥ — معروف الرصافي :

يقول : يصف مجلس لهو^(١) :

ولى عند إخوان الصفا أريحية إلى كل خل فى الزمان موافق
إذا ما عقدنا مجلس الأنس بالطلاء^(٢) فبينى وبين السكر خمس دقائق

أسابق ندمانى إلى السكر طائراً بمنجى من الأنس المضاعف خافق
فما هى إلا بعد شربى سويعة وقد دب من رأسى الطلاقى المفارق
فنادمت أصحابى على غير حشمة وقلت لهم ما قلت غير منافق
ويقول :^(٣) تحت عنوان — إلى جميع الغوانى : —

وقفت عليكى وقلبي الذى يمر به الحب من السحاب
ومنكن أحببت هاتى وذى وألفت عذباً بكن العذاب

فمنكن بيضاء ما مثلها (عذبة الخلد) إلا القمر
فتلك التى طاب لى وصلها كما ليلة البدر طاب السمر

ومنكن حمراء جذابة حتى وجهها الشمس عند الطلوع
أرى عينها (وهى خلابة) فأمسك بالكف منى الضلوع

ومنكن من هى مثل الرياح لها فى ذرا كل قلب هبوب
تريد غلاب جميع الملاح وتبغى عذاب جميع القلوب

(١) دراسة أدبية لديوانه ص ١٦٨ ، (٢) الطلاء : الخمر ، (٣) دراسة أدبية للرصافي ص ١٧١

ومنكن من هى مثل النجوم من البعد ناظرة تبسم
فتلك عليها فؤادى يحوم وتلك إليها الردى اقتحم

* * *

ففيكن طراً بوادى الهوى أهيمن وإن لم تعد عائده
ألا إن حباً بقلبي انطوى كثير فلم تكفه واحده
ويقول^(١) — فى الغزل بالمذكر :

أسبغ الله نعيم الـ حسن فى وجه نعيم
قر أغنى فى الإشراف عن ليل بهم
علم الناس صحيح الـ حب بالطرف السقيم
يرجع السحر بعينيه إلى عهد الكلم

ويقول^(٢) تحت عنوان اسمى لى كلاما :

اسمى لى قبل الرحيل كلاما ودعيني أموت فيك غراما
هاك صبرى خذيه تذكرة لى وامنحى جسمى الضنى والسقاما
لست ممن يرجو الحياة إذا فا رق أحبابه ويخشى الحماما
لك ياظبية الصريمة طرف شدة ما أوسع القلوب غراما

* * *

كلما زاد عاذلى فيك عذلا زدت فى حسنك البديع هياما
أفأحظى بزورة منك تشفى صدع قلبي ولو تكون مناما
ورب ليل بالوصل كان ضياء ونهار بالهجر كان ظلاما
قد شربت السهاد فيه مداما وتخذت النجوم فيه نداى

(١) دراسة أدبية لشاعر العراق — معروف الرصافى ص ١٧٢

(٢) ديوان الرصافى طبع بيروت ص ١٩١

ما قلبي إذا ذكرتك يهفو ولعيني تدرى الدموع سجاما
إن شكوت الهوى تلعثت حتى خلتنى فى تكلمى تمناما

وماذا قال الرصافى ؟

فى المجموعة الأولى :

يصف مجلس اللهو ، وما فيه من خمر ، يتسابق إلى شربها الندماء ، وما فيه
من حديث ، يرسلونه ، وهم فى نشوة من الخمر ، دون تخرج أو احتشام .

وفى المجموعة الثانية :

يتحدث عن حبه . فقد وقف على النساء جميعا قلبه ، وقد وزعه بينهن ، دون
أن تكون له حال من الثبات والاستقرار . هو الحب الذى لا يمثل العاطفة المشبوبة ،
بل هو ينتقل ، من امرأة إلى امرأة ، فإذا صادفه جمال وصفه ، دون أن يترك الوصف
فى قلبه كلوماً أو جروحاً ، كما ترك جمال الحبيبة فى قلب المدنف المقيم . وقسم أحوال
النساء ، وذكر بعض ألوان جاهلن ، وأنه يهيم بهن جميعا ، ولا تكفيه فى الحب واحدة .

وفى المجموعة الثالثة :

يتغزل بالمذكر ، ويصف حسن وجهه وإشراقه ، ويصف طرفه ، وسحر عينيه .

وفى المجموعة الرابعة :

يودع حبيبته ، ويتوسل إليها أن تستمع إلى نبحواه قبل أن ترتحل . إن ارتحالها
عنه يجلب له الضنى ، ولا يرجو الحياة بعد هذا الفراق . ثم يذكر أن عذل العواذل
يزيده كلفاً بها وهياما . إنها تهجره وتجنّوه ، فهلاً زارته ، ولو فى المنام ، حتى يشفى
صدع قلبه ؟ . وقد تغيرت معايير الحياة ، فأصبح النهار بهجرها ليلا ، وأصبح الليل
بوصلها نهارا ، وأصبح حين يشكو الهوى تمناما ، لا يكاد يبين ، وهو الفصيح
ذو اللسن والبيان .

٦ — اسماعيل صبرى :

يقول فى مطلع قصيدة يهنىء الخديو اسماعيل بقدمه من الأستانة ^(١) :
 أطلع الكاس كوكبا فى ازدهاء وأدركها فى هالة الندماء ^(٢)
 استقنيتها حتى ترانى لا أفهم نصحا يملأ إصغافى
 عاطفيا صرفا ولا تطفىء النور الذى زان حشها بالماء
 وأدركها خدا وحى الندامى بذار ^(٣) الريحان وأغم ثنائى
 مجلس فيه ما جلا صدا السمع وقرت به عيون الرانى
 من مغنى يفزو الموم بأوتا ر فيحوى أعنة الأهواء
 وغزال أحلى من الأمن يسعى بكنوس الغرام والصهباء
 مذ رأت خده المدام علاها عرق من حبايبها ^(٤) للحياء
 ويقول فى مطلع قصيدة يهنىء الخديو عباس الثانى بعيد الأضحى ^(٥) :

شوق يهيج به نواك وجوى يؤججه هواك
 كم ذا أراك تميل عن مضناك يا غصن الأراك
 وتسومنى صبرا وصبرى عنك أقتل من جفاك
 صيرت بُعدك من محبك بُعد وعدك من وفاك
 يا فتنة العشاق حسب الناس ما جرّت يداك
 وكفالك ما صنعت بأر باب الصباية مقلتناك
 أنت النعيم فما لقلبي ليس يسلم من أذاك
 إني وإن بالقت فى هجرى وآلمنى قلاك

(١) ديوانه ص ١٣ (٢) هالة الندماء حلقتهم ومجتمعهم (٣) البذار : ما دار على الحد من الشعر (٤) الحباب : ما يعلو الشراب من الفقاقيع . أى أن استحييت الحر من حسن الساق فكانت الفقاقيع قناعاً يستر به الرجل (٥) ديوانه ص ٣٦

أصبو إليك إذا النسيم سرى يمثل لى شذاك
أودارت الكاسات بالصهباء تخبر عن لماك^(١)
وأعد قربك مشتها ي وغايتي القصوى رضاك

٧ — على الجارم

يقول في سنة ١٩١٦^(٢) : « تحت عنوان الحب »

عَاجَ الخِيَالُ فلم يَبْلُ أَوَامًا ^(٣)	ومضى وخلفَ في الضلوعِ ضراما
مَالِي وللِكَحْلَاءِ هَجْتُ عِيُونَهَا	فَلَأَن قَلْبِي أَنْصُلًا ^(٤) وَسِهَامًا
يَا قَلْبُ وَيَحْكِ! مَا سَمِعْتَ لِنَاصِحِ	لَمَّا ارْتَمَيْتَ ، وَلَا اتَّقَيْتَ مَلَامًا
لَعِبْتُ بِكَ الحُسْنَاءُ تَدْنُو سَاعَةً	فَتُثِيرُ مَا بِكَ ثُمَّ تَهْجُرُ عَامًا
وَالْحُبُّ مَا لَمْ تَكْتَفِهِ شِمَائِلُ	غُرٌّ يَمُودُ مَعْرَةً وَأَنَامًا
وَالْحُبُّ أَحْلَامُ الشَّبَابِ هَنِيئَةً	مَا أَطِيبَ الْأَيَّامَ وَالْأَحْلَامَا !
وَالْحُبُّ نَازِعَةٌ ^(٥) الْكَرِيمُ تَهْزُهُ	فِيصُولُ سَيْفًا أَوْ يَسِيلُ غَمَامَا
وَالْحُبُّ مَلْهَاءُ الْحَيَاةِ وَطَبْهَا	وَلَقَدْ تَكُونُ بِهِ الْحَيَاةُ سَقَامَا
وَالْحُبُّ نِيرَانُ الْجَوْسِ لَهِيهَا	يُحْيِي النُّفُوسَ وَيَقْتُلُ الْأَجْسَامَا
وَالْحُبُّ شِعْرُ النَّفْسِ إِنْ هَتَفَتْ بِهِ	سَكَتَ الْوُجُودُ وَأَطْرَقَ اسْتِعْظَامَا
وَالْحُبُّ مِنْ سِرِّ السَّمَاءِ فَسْمُهُ	وَحَيَا إِذَا مَا شَتَّ أَوْ إلهَامَا
لَوْلَاهُ مَا أَضْحَى وَلَيْدُ زَيْبِيَّةٍ ^(٦)	يَوْمَ التَّفَاخُرِ سَيِّدًا مِقْدَامَا
وَلَمَّا رَمَى فِي الْجَحْفَلَيْنِ بِصَدْرِهِ	لَا يَتَّقَى رُحْمًا وَلَا صَمَصَامَا
الْحُبُّ أَلْبَسَهُ المَرْوَةَ يَافِعًا	وَأَعَدَّهُ لِلْمَكْرُمَاتِ غَلَامَا

(١) اللبي : سمره في الشفتين (٢) ديوانه ص ٦٨ (٣) الأوام : حر العطش
(٤) الأنصل : جمع نصل وهو حديدة الرمح والسهم والسيف ونحوها (٥) النازعة : الميل
(٦) زيبية : أم عنترة بن شداد العبسي ، وهو المقصود بوليدها .

يا شَدَّ ما فعل الغرامُ بمهجة ذابت أسيَّ وصباةً وهياما
كانت صَوُولاً^(١) لا تُنِيلُ خِطَامَهَا^(٢) فعدت أدلَّ السائماتِ^(٣) خِطَامَا
سَكَنْتُ إلى حُلُوِّ الغرامِ وُمرَّه ورعت عهوداً للهوى وذماما
وطوت أحاديث الجوى فطوت بها داء يذكُ الراسيات عَقَامَا^(٤)
نال الضنى منها الذى قد ناله فعلام روعها الصَّدُودُ عَلَامَا ؟

يا زهرةَ نَمِّ النَّسِيمِ بِعَرَفِهَا وجرى بها ماء النِّعَمِ جَامَا^(٥)
يا جَنَّةً لو كان ينفع عندها نُسُكٌ لبثنا سُجَّداً وقياما
يا طلعة الروض النضير تحية ومُحَاجَّةَ^(٦) المِسْكِ الذكى سَلَامَا

في هذه القصيدة يتحدث شاعرنا عن الطيف ، وأنه حين يهوج لا يطنى غلة ، بل يترك خلفه أواراً من النار ، يتلفى به القلب الجريح . ثم أخذ يذكر بعض صفات الحبيبة ، وبعض أحواله معها : فهي كحلاء العيون ، وعيونها ذات سهام فواتك . وهى حسناء لعب ، تعرف كيف تستثير لواعج الغرام فى قلبك ، ثم تهجرك وتجنفوك ، عاماً طويلاً ، كم فيه من أشهر وليال ! ، وكم تطوف به نجوم يرعاها بين السهاد والأرق ! وأخذ الشاعر بعد ذلك يتحدثنا عن الحب العذرى ، وعن حلاوة الحب . يجب أن يكون الحب طاهراً بريئاً ، وإلا كانت عاقبته فحشاً ونكراً . وهو كذلك حلو جميل ، على قدر ما فى الحياة من حلاوة ، وعلى قدر ما يحمله العيش من جمال ونعيم . هو حلم الشباب ، وما أحلى هذه الأحلام ! هو هو الحياة البرىء ، وهو طيها

(١) الصَّوُول : الوثاب النافر من الإبل (٢) الخِطَام : الزمام — المقود —

(٣) السائمات : جمع سائمة ، من سامت الماشية إذا رعت (٤) العقام : يقال داء عقام : أى لا يبرأ منه

(٥) الجمام : جمع جيم وهو الكثير (٦) المحاجة : فى الأصل الريق ، والمراد هنا الفئات والخلاصة

من كثير من الآفات والأدواء . هو كالنار عند المجوس ، تमितهم وتحرقهم ، ولكنها تطهر نفوسهم وتحييها ، وكذلك الحب يضئ أصحابه ، ويهد أجسامهم وقواهم ، ولكنه يحبي قلوبهم ، ويبعث فيها نشوة الأمل ، وفرحة الحياة . والحب أغنية النفس ، إذا هتفت به سكت الوجود جميعاً ، من جماد ونبات وحيوان ، وأصفوا إلى جمال هذا الفناء ، وأحنوا رؤوسهم إجلالاً وإكباراً .

وأخذ الشاعر بعد ذلك يحدثنا عن أثر الحب .

فعنتر بن شداد أحب ابنة عمه « عبلة » . ودفعه هذا الحب إلى أن يكون فارساً مقداماً ، وجواداً كريماً ، وصاحب مروءة ومكرمات . ولولا ذلك لكان عبداً هجيناً ، لا تعرف له هذا الشأو البعيد . والحب يهذب النفوس ، ويسلس قيادها ، فهو يروضها إلى الرقة والدقة ، بعد أن كانت جاحجة نافرة . وفي الحب وفاء ، يجعل المحبين يرعون عهد الهوى ، ويحفظون حقوقه وحرماته . وفي الحب صبر ، به يحتملون مره ، وعذابه . وأخذ الشاعر يخاطبها بما فيها ، ويمحيها تحية خالصة من قلبه . أخذ يذكرها ، ويدعوها بالزهرة ، وبالجنة ، وبالروض النضير . وخلاصة المسك . أما الزهرة فلها عرف ، ذكي الرائحة والطيب . وكذلك هي . وأما الجنة ، فهي تتطلب نساكا عابدين ، حتى يكون نسكهم وعبادتهم قرباناً في دخولها . وهي جنة ، ولكن لا يجدي عندها سجود وقيام ، ولو أجدي لبات حياته كلها ساجداً ومقيماً

٨ — محمد رضا السبيبي

يقول^(١) تحت عنوان سائحة في الحب :

ملا مني لو أحس الناس أو شعروا ألتسم الحسَّ سمى منه والبصر
كان الهوى بيننا عهداً وبينكم لما تعارف الأشباح والصور

إنا عذرنا من اللوام طائفة خلّة لو أحبوا مثلنا عذروا
لم لا يرقون بل لم لا تؤرقهم محاجر رق مما تذرف الحجر

هل عند من أسهروا ألا فهم خبرُ في الليل طول وفي أجفاننا قصرُ
دجت ليالى محبيهم وأنسى ليل تضيء حواشيه إذا ذكروا
يومى أصيل إذا وانت بشارهم وليلي كلها من رقة سحرُ
طيف الكرى أثر قنعت به يكفى من العين - إن لم توجد - الأثر
هذا نصيب من الدنيا خُصّصَتْ به أم صدقة الدهر، أم هذا هو القدر؟
ويقول^(١) تحت عنوان «محنة الحب» :

ما كفاكم من امتحان الحب أن تجافى عن المضاجع جنبى
هل أسال البكاء عيناً كمينى ؟ أو أذاب الفراق قلباً كغلبى
أعلى العين هذه فرض عين حين يدعو داعى البكا أن تلبى ؟

سوف أقضى من الصبابة حقى حين أقضى من الصبابة نخبى
بغض الحب كل شىء بعينى فاستوى فى المآل بغضى وحبى
آيسونا من اللقاء وقالوا : حسبك الطيف طارقاً قلت : حسبى
ويقول^(٢) متفرلاً فى أول قصيدة :
سور عينيك باعث نشوانى - إى وعينيك - لم يكن سُورَ دَنُ
لم تجب آفة القطيعة إلا من تجنّيك يا كثير التجنى
لى ظن - وإن أسأت - جميل بك يا قاطعى فكن عند ظنى
ما ملكت الذى هويت ولكن قد تمنيت لو أفاد التمنى - فى

٥ - سُبلى المهرط :

يقول في مطلع قصيدة بحفلة سيدات الهلال الأحمر في بيروت ^(١) :

ما حيلتى وسواهى أَعْيُنُ العين	خططن سِفْرَ عذابى قبل تكوينى
فوانك وهى فى الأجنان مُغَمَّدة	صوائل وهى فى غير الميادين
هن الدواء ، وهن الداء من قدم	كلاهما رهنُ تحريك وتسكين

ويقول فى مجلس أنس ^(٢) :

وافِ الكروم وهاتها	معصورة تروى الكبد
ماء الكروم بزخلة	كالروح تُسَكَّبُ فى الجسد
تولى الكهولة قوّة	وتهبج منها ما خد
وإذا مشت وتحكمت	بالشيخ ردّته ولد
ساقيتها فى فتية	كالزهر فى هذا البلد
يروى نسيم النهر عن	أخلاقهم راحا وشهد
نزلوا من الجبل الذى	نشوا به غاب الأسد
لبنان واشوقى إلى	لبنان والعيش الرغد
أيام كنت أبا الهوى	عدل الحبيب أو استبد
واللحظ يعشق عادلا	كاللحظ يُعْشَقُ مستبد

ويقول ^(٣) :

يا أهل الوادى لى قرّ	بسماء الوادى مطلقه
وبجفنى الساهر مسكنه	وبقلبي الذائب موضعه
بنقاب الليل تحجبّه	وبدرع الفجر تمنّعه

فألقلب بلا حبٍ قدحٌ لم تُرَوِ الشارب أدمعه
يا ظبياً يرتع في الوادى و بروحى الظبي ومرتمه
ما ألطف روحاً يحملها مولاي تبارك مبدعه

٩ — فليل مطراره :

يتغزل في أدبية جميلة^(١) :

يا عيوننا تسقى العيون الرحيقا^(٢) واصلى مُدِمناً أبى أن يفيقا
أسكريني على الدوام وأفنى مهجتي دمعاً وعزى رحيقا
تلك خمر الحياة من لم يذوقها مرةً ليس بالحياة خليقا
وهي حُسن الحياة سعداً وبؤساً واصطباحتاً لشربها^(٣) وغبوقا^(٤)
أنت يا من سقت فؤادى منها حر وجد ولوعة وخفوقا
اظلميني ما شاء ظلمك وانهى أمر الحسن أن يكون شفيقا
عذيتني فقد جنيتُ على نفسي وأمسيتُ بالعقاب حقيقا
فلهذا العقابِ عاودتُ حُبِّي ولألقاه خنت عهداً ووثيقا

* * *

أيها النائمون بهنيكم النوم ولا زال حظى التاريقا
إن يكُ الساهرون مثلى كثيراً فسعادُ أسمى وأسنى عشيقا
فاتني من جمالها الوجه طلقاً لا يباهى والقَدْ لَدُنَا رشيqa

(٢) الرحيق : الخمر

(١) ديوان الخليل ص ٢٧

(٤) الاصطباح : شرب الصباح . الاغتباق : شرب المساء

(٣) أى شاربها

فأنتى عقلها الذى يبدع الخاطر روحاً وهيكلًا وعروقاً
فأنتى نظمها القريض كما تنظم عقداً فى جيدها منسوقاً
فأنتى لطفها الذى ينمى الوجد ولو شاء أنمى التوفيقاً
ويقيم الآمال فى النفس كالنور يحيل البزور زهراً أنيقاً
فَتَنٌ قَيَّدَتْ بهن فؤادى وأرانى إذا شكوتُ عقوقاً
كلُّ مستأسرٍ يودُّ انطلاقاً وشقائى بأن أكون طليقاً

ويقول^(١) يصف قضيته فى الحب بين القلب والعين ، ويسلك فى هذه القضية سلوك المهاكم : عرض ، ودفاع ، حكم فى البدء وحكم فى الاستئناف ، ثم نقض وإبرام :
عرض القضية .

بين قلبى ومقلتى حملةٌ توهمن القوى
ونزاع بفصله حكماً قاضى الهوى

الدفاع عن العين .

إنما العين أبصرت نصبا القلب واكتوى
عرضاً أبصرت ولا ذنب إلا لمن نوى

الدفاع عن القلب .

وهو لولا طموحها لم يبت شاكى الجوى
مستمراً خفوقه كلما نسمَّ الهوا
شبه ظمآن ما له من ندى الدمع مُرتوى

الحكم الابتدائى .

قال قاضى الغرام من سُدَّة^(٢) فوقها استوى
إن تلك العين أذنبت حسبها الشَّهْد والنوى

كيف تُجْزَى وماغوت وسواها الذى غوى
فعلى القلب غُرمه فهى لم تجن بل هوا
حكم الاستئناف .

هى مالت فسبَّبت وهو جارى فما ارعوى
فليُعاقب كلاهما فهما فى الهوى سوا
النقض والإبرام .

القلوب والمُقل هنّ للهوى رُسل
لسنّ للهوى عللاً فى الهوى لها علل
ربها وآمرها يقتضى فتمثّل
حاكمٌ مشيئته لا تردّها الخيل

عينك التى نظرت منه جاءها اللَّيلُ
والقُود طأوعها وهو مكره وجِل
فالمسّى غيرهما ما إليه متصل
إنما الجزاء لمن عنه يصدر الزلل
علة لما فعلا لو تعاقب العمل

ويحسن أن نقف من هذه القضية التى أتاها شاعرنا موقف البحث والدرس .
قضية بين خصمين : بين العين والقلب . وهما خصمان قويان عنيقان ، قامت بينهما
هذه الحملة ، وكانت حملة قاسية ، طال فيها الكرّ والفرّ ، وجال فيها الطرفان وصالا ،
ولم يدخرا فى ذلك جهداً وقوة .

فلم يكن بد ، بعد أن دام النزاع بينهما طويلا ، وبعد أن لم يصلا فيه إلى فصل

الخطاب — أن يرفعا أمرهما إلى قاض حازم حكيم ، عليم بأدواء النفوس ، خبير بطب
القلوب . هو قاضى الهوى .

نحن الآن إذن أمام منبر القضاء العادل ، وهذه جمهرة من الناس ، يتزاحمون
بالأيدي والمناكب ، يشهدون هذه القضية الصاخبة ، الثائرة ، لعل لهم فيها ما يطفىء
الغلة ، ويشفى الغليل .

فما هى القضية ؟

من الجانى على ذى الهوى ؟ العين التى أبصرت الحبيبة ، فعاد شعاعها يحمل إليه
الإعجاب بحسنها وفتنتها وزينتها . وسرى هذا الشعاع إلى القلب ، فاهتز وخفق ،
وانقلب الإعجاب إلى حب وغرام ، وكان من ذلك ألم ، وحرقة ، وعذاب .

مَن كان سبباً فى هذا العناء الذى عاش الحبيب تحت ظلاله ؟

تقول العين :

القلب هو سبب هذا البلاء ، لأنه هو الذى صبا ، وهو الذى خفق . ولولا ذلك
لكانت النظرة عابرة عارضة . وكَم تنظر العين مثل هذه النظرات ! ، فلا يترتب عليها
مثل هذا الأثر .

لا ذنب للعين إذن ، ولا إثم عليها .

ويقول القلب :

كيف لا تكون العين سبباً فى عناء الحبيب ، وشعاعها هو الذى حمل إلى القلب
حسن الحبيبة وجمالها . ولو لم يصل إلى القلب أثر هذا الحسن ما خفق خفقة الهوى .
إذن لا شك أن العين هى السبب فى هذا كله .

وماذا حكم القاضى ؟

حكم قاضى المحكمة الابتدائية :

بأن الغرم على القلب ، وماغوت العين ، وحسبها عذاباً ما تلقاه من السهد والنوى .

رأى القلب قسوة وعنفاً في ذلك الحكم الابتدائي فاستأنفه .

وحكم قاضى محكمة الاستئناف :

إن الغرم على العين والقلب ، كلاهما جنى ، وكلاهما اعتدى ، وكلاهما كان سبباً .

أما العين فقد رأت ، ومالت إلى ما رأت ، وأما القلب فقد أحس واهتز ، ولم يرعو ويزدجر ، فليأخذ كلاهما عقابه ، ولينل جزاءه .

وحكم قاضى محكمة النقض والإبرام :

برأ القاضى العين والقلب ، فلم يجعل لهما إثمًا ولا ذنبًا ، فالعيون والقلوب في نظره ليست علة للهوى وسببًا ، إنما هى رسل تؤدي رسالتها ، وتخدم صاحبها بأمانة وإخلاص ، دون أن تكون لها مرحلة بعد ذلك ، تتجاوز فيها عملها ومهمتها . فعمل العين الرؤية والبصر ، وعمل القلب التأثر بما يرى . وقد ترى العين من هو حسن جميل ، ويتأثر القلب بذلك الحسن والجمال ، ولا يتولد عن هذا أو ذاك حب وهوى . أو يتولد حب ماجن ، أو حب عابر ، وهذا ومثله لا يكون ذا قيمة وأثر . هناك علل أخرى تعدو الحسن ، وتعدو إعجاب القلب به .

هناك في نظر الشاعر رب وأمر يحكم ويقضى ، فتمثل لحكمه وقضائه . حاكم يدين له العالم جميعاً بالخضوع والطاعة ، فتبصر العيون ، وتهفو القلوب ، إذعاناً لأمره ، وطوعاً لحكمه .

وهناك في نظرى توافق القلوب ، وامتزاج الأرواح ، هذا التوافق الذى يخلق منهما فكرة واحدة يؤمنان بها ، وينعمان بهذا الإيمان . وهذا الامتزاج الذى يسمو بهما إلى أن يكونا في عالم الروح ، لا في عالم المادة ، حيث تتغير في عيشهما مظاهر الحياة ، فتصبح صفاء ، وطهرًا ، وخلوداً . وهذا هو الحب الصحيح .

١٠ — جبرانه قليل جبرانه :

يقول^(١) :

والحب في الناس أشكال وأكثرها
وأكثر الحب مثل الراح أيسره
والحب إن قادت الأجسام موكبه
كأنه ملك في الأسر معتقل
كالعشب في الحقل لا زهر ولا ثمر
يرضى وأكثره للدمن الخطر
إلى فراش من الأغراض ينتحر
يأبى الحياة ، وأعوان له غدروا

١١ — زكى مبارك :

يقول تحت عنوان « حلم اللقاء » :

غداً سوف ألقى من حياتي نعيمها
وأقتل أحزاني وأحيى بشاشتي
ألا إن نجوى الحب بيني وبينه
رياض من اللذات يهفو نسيمها
وأمرح في روض الهوى وأجول
ويسمع منى فاتني فأقول
وقد غاب عنا كاشح وعذول
فيحبا به المشتاق وهو قتييل

* * *

أمنى فؤادى بالأحاديث في غدٍ
غدً ، أين منى في الغرام صباحه ؟
سأقطع ليلي بالأمانى أديرها
سأبدع في تصوير أحلامنا غداً
إذا ضمنا عند السرار مقييل
فإن انتظاري شمس سيطول
أقول لها ما أشتى وتقول
ونحن بفردوس الوصال حلول

* * *

تقول الأمانى إن ميعادنا غدً
إلى الله أشكو وقدّة الحزن في غدٍ
وبعض الأمانى الواعدات مطول
إذا ضاع ميعاد وخاف خليل

١٢ — محمود عيسى اسماعيل

يقول في وصف حمامات البحر — خليج ستانلى : (١)
 من علمَ البحر لجاج الهوى وأترع الحب بُشطانَه ؟
 وقال للموجة : خمر الصبا صافٍ ، فُجِّي الكأس من حارِه ؟
 وأنشدى في الشط أغنيَّة أودعها النأى بألحانِه !

يأبدع الشط سلبت الهدى من كل معصوم بإيمانه
 لولا جلال الفن في بهرة للحسن أصلتى بنيرانه
 ألهمت في شعري سفير الأظى ورحتُ أجليك بأوزانه
 أو أُلهم البخرُ مساسَ الحجا لأغرق البرَّ بطُوفانه
 ولم يدع في غمره ساجماً يصَّافحُ الموجَ بِشُطَّانِه
 ويقول : (٢)

يا زهرتى ! طلع الصباحُ وفي فمى نعمَّ ينوح . فهل سمعتِ نواحَه ؟
 ما زال يصرخُ في الفضاء فلم يجد شفةً تناغمُ (٣) لحنه وصدأه
 أسيان (٤) مُختبلَ النشيدِ أذا به من خافق دَفنَ الزمانِ مراحَه
 قلبٌ كمصفور الأراكة ذيدَ عن عَشَّ الصبا والسجنُ شلَّ جناحَه
 جرحته بالهجر . . . ثم تركته ماذا عليك إذا أسوتِ جراحَه !
 كم رتل اسمك — خاشعاً — فكأنه (موسى) يرثمُ في الدُّجى ألواحَه
 الهجرُ عذبه وأذبل رُوحَه والفكرُ غيبَ في الأسى أفراحَه

(٢) ديوانه هكذا أغنى من ١٤٤

(٤) أى حزين

(١) ديوانه هكذا أغنى من ١٣٧

(٣) ناغمة : كله كلاماً رقيقاً ضعيفاً

وبكى ونوح في الغلام فما أسا
حجبتك.. هل حببوا سنك مفجرا
حجبتك. هل حببوا عبيرك عن دمي
حجبتك. هل حببوا نشيدك عن فمي
حجبتك. هل حببوا نفاثة عاشق
متولع يهواك ما أغرى به
وافى بروجك في الصباح فلج في
لم يلق إلا ظلمة مشبوبة
يا ليله أترع لواعج قلبه !
لم يبق منه الحب إلا آهة
وقصيدة هزت ملاحظها الدجى
ظنوا غرامى فيك إلهية ساخر
فتنوك عن نظرى وخلوا مهجة
كالطائر المنبوذ في قُبب الفلا
وأنا الذى سأظل باسمك هاتفاً

قلب الحبيب بكاءه ونياحه !
كالنبيع يسكب في الحشا تلماحه؟^(١)
ريان يذكى في القواد نفاحه؟^(٢)
لهفان خلد في الهوى تصداحه ؟
أضرى الغرام جلاذه وكفاحه ؟
بين ولا قلّ الفراق سلاحه
ظلم النوى ، وبكى الحزين صباحه
وسناً تخطفت الدجى لملاحه
حدثت عن الخفقات يا مصباحه !
مجنونة الحركات تقلق ساحه
ومحت رؤاه ، وفزعت أشباحه !
يلقى على الزمن الضحك مزاحه
حيرى يجرعها الهوى أتراحه
يذرى المهجير بساحها أرواحه
حتى يمد الموت نحوى راحه

وماذا قال الشاعر في قصيدة : يا زهرتى :

قدم الشاعر نفسه هذه القصيدة في ديوانه — هكذا أغنى — بهذه العبارة :
« عصفت بقلب الشاعر عاصفة من الوجد الصارخ عقب فراق مفاجيء ، نكب
به منذ عامين ، فاستحالت حياته إلى جحيم من العذاب النفسى ، والقلق الممض ! ..
وقد نزع به الحنين — يوما — إلى قصر عذرائه الملهمة ، حيث مهد غرامه ، وشط
الهامة ، فسبق الشمس إلى أستاره في الصباح بنظرات مشدوهة . . وروح شارد ،

(١) يقال لمح البرق لمحا ولحاناً وتلماحاً : لمح
(٢) نفاخ الطيب : انتشار رائحته

فوقف لحظة ثم عاد بهذه الدموع المشتعلة — التي سكب نارها في هذه المناجاة !! «
هذه المقدمة تكشف لنا ماذا يعنى الشاعر في هذه القصيدة .

يخاطب الشاعر حبيبته ويناجيها . بينها ألمه وعذابه ، في هذا الفراق الطويل .
ولم يستطع أن يحتمل صراره ، فهرع إلى دارها ، لعله يخفف هذه الآلام .

طلع الصباح ، وفي فيه نغم ينوح ، ولكن من يسمع نواحه ؟ ينوح ويصرخ
في الفضاء ، وهو حزين ، مبتئس ، كسير القلب ، مهيبض الجناح ، ولكن من يرق
ويرحم ؟ أين من يردد صدى هذا النواح ، وذاك النغم ؟

قد جرحته بالهجر ، والهجر عذبه . وبكى ، فما أسأ قلب الحبيب .

حجبوها ، ولكن لن يستطيعوا ذلك . فسنا نورها بسطع في الحشا والقلب .

حجبوها . ولكن لن يستطيعوا ذلك . فغيرها يروى دمه ، ويذكي قواده .

حجبوها . ولكن لن يستطيعوا ذلك . فإنه يهتف باسمها ، وينشد ألحان
حبها وهواها .

حجبوها . ولكن لن يستطيعوا ذلك . فقلبه يخفق بحبها ، ولن يحولوا بين القلب
وخفقاته ، ولا يزيده الفراق إلا لوعة وحنينا .

واقاها صباحا، وعاد خائبا محسورا، لم يظفر بوصل أو لقاء. ولم يظفر بما يشفي غليله، ولم
يبق منه الحب إلا الأثثة والآهة ، ولم يبق منه إلا الفرع والقلق ، ولم يبق منه إلا قصيدة ،
هى نفثه قلبه المكسوم ، إذا ردد ألحانها انقلب نور هذا العالم ظلما حالكا السواد ،
وانقلب نعيمه ، بؤسا وشقاء . ويأتى دور العواذل ، وهم بلاء المحبين . يقولون
إن حبه إياها هو وجون ، فليحجبوها عنه . وهم كاذبون واهمون . فحبه صادق
دفين برى ، كم جرعه من اتراح وأحزان . سيظل يهتف باسمها ما بقى الزمن ،
وما بقى حيا فى هذا الزمن . ومن يدرى لعل روحه يهتف باسمها ، إذا انتقل إلى
الحياة الأخرى ؟ .

١٣ — سير فطب

يقول تحت عنوان « الكأس المسمومة »^(١)

أفلاك أفلاك كالشيطان أفلاك أفلاك كالسم يسرى جد فتاك
أفلاك . إنك في نفسى وفي زمنى وفي حياتى أفعى ذات أشواك
سممت عيشى وأحلامى وأخيلتى وأنت شيطانة فى سممت أملاك
وعشت أركاك فى قلبى وأنت بلا قلب يحس ويرعى كيف أركاك
من أنت ؟ ماأنت ؟ إني حارقلق أنت أسطورة فى سفر أفاك

أنسى الليالى التى قضيتها قلقاً وأنت ساكنة راض محياك .
أنسى الدموع التى أرسلتها غدقاً ولست لولا هواك المرّ بالبأكى
وكبريائى التى ماكنت أخفضها من قبل أو بعد فى دنياى لولاك
أنسى لأذكر أحلامى وأخيلتى كأنهن نجوم بين أحلاك
وكلهن نسيج الوم فى خلدى ولسن غير علالات وأشراك

أفلاك ؟ ليت ! فإنى لست أفلاك أهواك ؟ ليت ؟ فإنى لست أهواك
أهوى وأقلى وأيامى موزعة بين الهوى والقل كالمضاحك الباكى
هذا الرحيق وهذا السم قد مزجا ولست أروى بكأس غير رياك
هاتى لى السم صرفاً لا يمازجه هذا الرحيق فإنى لست بالشاكى
ملتت كأسك لا ألتذ نشوتها ولا أحطمها تحطيم سفاك

(١) قبلت فى ٣ مارس سنة ١٩٤٣

يحدثنا الشاعر في هذه القصيدة عن صباية نفسه .
والناس يكرهون الشيطان ، لأنه يضلهم طريق الحياة ، ويكرهون الأنفى ،
لأنها تؤذيهم ، وتبيدهم بسمومها الفتاكة .
والحبيبة كالشيطان ، وكالأنفى . ولاشئ أنكى على الحبيب أو أكثر أذى له ،
أو انتقاماً منه — كالحبيبة إذا هجرت ، وتمنعت ، وتجنبت ، وتدللت ! ولهذا كره
شاعرنا حبيبته .

لأنها سممت عيشه ، وأحلامه ، وأخيلته .
وكيف سممت هذا العيش ؟

عاش يرهاها في قلبه ، وهى بلا قلب يحس ويرعى ! قضى أيامه ولياليه قلقاً فى
هواها ، وهى ساكنة راضية الحيا ! كان يرسل دمه غدقاً ، ولولا هواها ما دمت
عيناه . وهى قاسية القلب ، متحجرة العيون . خفض كبرياءه ، وهو الأشم الأبى ،
ولولا حبها ما خفضها من قبل أو من بعد .

ولكنه فى حيرة من هذا الكره .

ليته يكرها ، حتى يخلص من آلام حبها .

ولكنه لا يكره . لأنها حبيبة نفسه . وليس إلى كراهيتها من سبيل .

بل هو فى حيرة من هذا الهوى .

هو حقاً يهواها ، ويتمنى أن تبادله الهوى ، حتى يطول ويدوم .

ولكن حالها معه من صد وهجر تجعله يقابلها بالمثل ، فلا يهواها .

فحال إذن بين هوى وقل ، كالضاحك الباكي .

وهو فى حال تعطيه السم صرفاً فيرضى ولا يشكو ، وفى حال يمل كأسها ،

لا يلتذ نشوتها ، ولا يحطمها ، فيخلص منها .

١٤ — عبد العزيز عتيق

يقول^(١) يصف شاطئ البحر :

عم صباحاً يا كعبة المصطاف وملاذ الأحباب ، والآلاف
قد سعينا إليك يسبقنا الشو ق ، فإذا أعددت للأضياف ؟
نحن ركب الجمال والفن جئنا نتملى الجمال فوق الضفاف
فانظم الشاطئ الكريم جمالا تتملاه في الوجوه اللطاف
ويقول^(٢) « وقد ركب مع حبيته في إحدى الليالى زورقاً » .

حينما ذهب الأصيل مياه النيه ل واختال في الرياض جميلا
أبصرتنى أطوف حول حماها سادر الخطو ، حائراً مذهولاً
هتفت بي : إلى يا صاح أقبل أنا من قد بحثت عنها طويلاً
ذاك وكرّ الهوى ، أأست تراه مثلما كان شاعرياً ظليلاً ؟
ذاك روضي فقرّ عينا ونفساً يا حبيبي واجلس إلى قليلاً

كيف جانب روضك الفينا أتسلت أم نسيت المكانا ؟
كلما طفت بالمكان أثارت وقفات الوداع منى الحنانا
وأرى القلب في غيابك أمسى يا حبيبي موزعاً حيرانا
أيها الغائب الذى خالط القلب هواه فذاق منه الهوانا
خذ ذراعى إلى ذراعك واصعد ربوة الأمس واستقنى الألحانا
رب ليل سهرته أتقلى فيه وحدى وأشتكى الحرمانا

ها هو العود حالماً بالأغاني فأعدها سحرية الأنعام
ها هو العود يا حبيبي فغنَّ غن للحب ، للنفوس الطوامي
فإذا ما شُغِلَتْ عَنْكَ بنفسي وبما هاج من هوى وضرام
فدع العود جانباً ، وأدرها قبلات من ثرك البسام
ودع الربوة الظليلة تخفي أثرينا بظلمها المترامي
ولنعش ها هنا كما نتمنى للأغاني ، للحب ، للإلهام

* * *

هذا جانب الغزل في الشعر . وللغزل الفثرى في هذا العصر حظ لا بأس به
بفضل ما قام به بعض الكتاب من ترجمة عن الأدب الأجنبي . وبفضل ما وضعوه في
هذا الباب من رسائل ممتعة . وسأوفي هذا الموضوع حقه في كتب الغزل الأخرى .

* * *

أغراض الغزل :

ولعلك أيها القارئ الكريم ، بعد أن مررت بك هذه الأمثلة من شعر هذا
العصر ، تستطيع أن تتبين صورة صحيحة لأغراض الغزل .
فلا يزال من سنة الشعراء في هذا العصر كما كانت سنتهم من قبل أن يبدؤوا
قصائدهم بالنسيب ، وذلك هو الغزل الصناعي .
وإن كان بعضهم قد بدأ القصيدة بوصف الخمر ، ومجالس اللهو ، وما إلى ذلك ،
ولكن بقي البدء بالنسيب كثيراً غالباً .

ولا يزال الغزل الماجن قائماً في هذا العصر ، نتيجة اختلاط العرب بالغرب ،
ونتيجة تأثير المدنية الغربية في المدنية الشرقية ، ونحن نعرف ما يشوب المدنية الغربية :
من لهو ومجون ، وعبث وفساد ، وقد امتد هذا إلى الشرق في صور شتى ، ولولا مناعة
الشرق ، لطنى سيل هذه المدنية ، وجرف أمامه مظاهر الخير في عاداتنا ، وتقاليدها ،

وعقائدنا . ومن المؤلم حقاً أننا حينما القرب فى كثير من ضروب العيش الساخرة
الماجنة ، وتركنا ما هنالك من ضروب أخرى ، فيها قوة ومناعة . ومن المؤلم أيضاً
أن امتدت هذه المحاكاة إلى الأدب ، وإلى الشعر ، وإلى الغزل .

إذن تغزل شعراء هذا العصر غزلاً مائجاً ، وقد تسمع الشيء الكثير من هذا
الغزل المائج إذا أنت جلست إلى جماعة من شعراء الغزل فى هذا العصر ، وأنست
إليهم ، وأنسوا إليك ، وكانت تجمعك بهم ساعة من اللهو والفراغ . سيسمعونك
— وخاصة إذا كانوا شباباً — كثيراً من الغزل المائج ، وقد يكون مجونه بالغاً فاتحاً .
وخاصة إذا أمنوا جانبك ، ولم يتخرجوا منك ، ولم يخافوا تشهير الناس بهم ، وعتبهم
وملامهم . ولولا خوف التشهير والملام لقرأت جهراً ، وسمعت جهراً ما يصح أن تقرأه
وتسمعه سراً .

ولعله بعد ذلك يحى دور الغزل الصادق ، الغزل البرىء ، الغزل ذى العاطفة
الملتزمة ، والقلب المرهف .

هذا النوع من الغزل وجد فى هذا العصر ، ووجد بكثرة لا شك فيها .
وجد نتيجة لقاء الفتى بالفتاة ، الفتى الشاعر ، والفتاة الفاتنة . عرف كلاهما الآخر ،
وامتزجا عاطفة ، وقلباً ، وروحاً . فهام كلاهما بالآخر . أما هو فترجم عن هيامه
بقافيته وألحانه ، وأما هى فأذكت فيه الحس حتى أصبح رائعاً ، وأذكت فيه القلب
حتى أصبح يخفق خفقة الغرام . الغرام الذى لا يعرفها إلا هى ، ولا يتحدث إلا عن
وحياها ، ودلتها ، وحسنها .

وإنك لتجد أمثلة من هذا النوع من الغزل ، وخاصة لشعرائنا الشبان المحدثين ،
أو خاصة لشعرائنا فى عهد الحداثة والشباب .

اقرأ هذه الأمثلة ، التى مررت بك شطراً منها وأياً وجدت قلبك يخفق ، ووعيك
يهفو ، وسمعتك يطرب ، فاعرف أن هذا هو الغزل الصادق .

واقراً^(١) :

مَنِّى أَطِيبَ الْمَنَى يَا حَبِيبِ فَاَلْمَنَى وَحْدَهْنَ مِنْكَ نَصِيبِ
إِن يَفْتَنَّا مِنْهَا لَمْ تَفْتَنَّا نَظْرَةً مِنْ خِيَالِهَا الْمَرْقُوبِ

مَنِّى بَلْ دَعِ الْمَنَى يَا حَبِيبِ فَشَقَائِي فِي الْمَوْعِدِ الْمَكْذُوبِ
هَانَ فَقَدْ الْمَنَى الَّتِي لَمْ تَعِدْنَا وَافْتِقَادِ الْمَوْعُودِ جَدَّ صَمِيبِ
أَعْطِنِي ! أَعْطِنِي إِذْنَ يَا حَبِيبِ غَيْرَ مَا نَاكَثَ وَلَا مُسْتَجِيبِ
أَعْطِنِي صَفُوكَ ارْتِجَالًا وَدَعْنَا مِنْ مَطَالٍ بِالْوَعْدِ أَوْ تَقْرِيبِ

واقراً^(٢) :

إِن تَسَلْ فِي الشَّرْعِ عَنِّي هَكَذَا كُنْتَ أَغْنَى
لَا أَبَالِي أَشْجَى سَهْ مَكَأَمَ أَمْ لَمْ يُشْجِرْ لِحْنِي !
هُوَ مِنْ رُوحِي لِرُوحِي صَلَوَاتٌ وَتَفَنُّي
وَهُوَ مِنْ قَلْبِي بِنَايِ عُمْ بِهَا يَهْتَدِرُ فَنِي
لِلْأَسَى فِيهَا تَعَالَى لَ وَلِلْيَاسِ تَمْنَى
وَهُوَ إِحْسَاسِي الَّذِي يَنْسَابُ كَالْجَدُولِ مَنِي

وقول الشاعر^(٣) :

يَا مُحَيَّيَا عَبْدُكَ مَثَلًا يُعْبَدُ الْإِلَهِ
وَجَالًا عَشَقْتُهُ عَشَقَ مَنْ لَا يَرَى سِوَاهُ

(١) هدية الكروان للأستاذ عباس محمود العقاد ص ٤٣ (٢) هكذا أغنى للأستاذ

محمود حسن اسماعيل ص ٢٣٩ (٣) أحلام النخيل عبد العزيز عتيق ص ٩٧

وقول الشاعر^(١) :

جنة الحسن كلُّ ما فيك حلوة
أنا من هام فاستباح التشكى
أنا من ذل في هوائك وحسبى
أنا من أرسل المدامع شعرا
أنا من ذاب من أساك التباعا
أنا من ذوب الفؤاد دموعا

وقول الشاعر^(٢) :

هاتى دموعك تستدر دموعى
تلقى فؤاداً كالوليد أمضه
نبه رسول العطف باليل الأسى
فهناك قلب يحتويه خافق

وقول الشاعر^(٣) :

يا طير لا تخش منى الآن عادية
في الروض لى صاحب من أجل خاطره
لبلى — ولعينيه وطهرها

وقول الشاعر^(٤)

أفا تنق أنظري كبدى المعن
وفى نهديك بعض دى وإنى
تذوب من الحرارة فوق صدرك
على بلوى — باق طوع أمرك

(٢) ألحان الألم فايد المروسى ص ٨٥

(٤) الهوى والشباب — ديوان أحمد

(١) أحلام الربيع طاهر زحفرى ص ٨٤

(٣) أشواق — ديوان محمود أبو الوفا ص ٧٣

عبد النفور عطار ص ١٥٦ .

فقلت — وهى باسمه — أصدق
أنت بشاعر ، والشعر كذب
فقلت : استغفرى ولديك جسمي
هجرت — وما أظنك عن ملال —
هنا في القلب دارك فاستقرى
وفي دمي الطهور هواك يجرى
وكيف أشق في الدنيا طريق
مقالك ؟ أم تراه بعض شعرك
تخادعني به يا سوء مكرك
وروحى يشهدان بفعل هجرك
وجئت فرحباً بك في مقررك
وشيدي عالما حيا بسحرك
وفي عيني يسطم كل نورك
إذا لم تهدي أضواء بدرك

فأنت تحس من هذه الأمثلة ، وما ذكرنا من قبل وهج العاطفة الملهبة ، التي
تجيش في صدور المحبين .

كان الشعر في عصوره الأولى سليقة وطبعاً ، وهو قريب من ذلك في بعض
العصور اللاحقة . أما الشعر في عصرنا الحاضر فقد أصبح فناً ، تتذوقه ، وتدرسه ،
وتتعلمه ، ليكون وحي نفوسنا ، وترجمان ما تجيش به ، من أمل وألم ، ومن حب
وغرام ، ومن شكوى وأنين . فينا الفتى الشاب الناضر ، قد خرج إلى هذه الحياة مزوداً
بالعلم ، والثقافة والأدب . نظر بعينه فرأى الفتاة الغضة الناضرة . راقه حسنها
وجالها . وعقد الحب بينه وبينها آصرة من الود ، والإخاء . وكان بعد ذلك فراق ولقاء ،
وهجر ووصال ، ثم كان شدة ، حين تبسم له الحياة ، وشجوه ، حين تعبس في وجهه الأيام .
كل هذا يدعو النفس الثائرة إلى أن تتنفس ، ويدعو القلب الحساس إلى أن يخفق .
وكل هذا يريد أن ينشره على الناس ، حتى يفرحوا ويضطربوا ، كما فرح وطرب .
وحتى يشاركوه في شكواه وبلواه ، حين يكون له حظ من البلاء والشكوى . إذن
هو في حاجة إلى أن يصور خفقات قلبه ، وخلجات نفسه .

وليكن الشعر أداته ، حتى يسمع الناس جميعا ، فيشوقهم ، لأنه صادق ملتهب ،
وحتى تسمعه الحبيبة ، فيكون نجواها ، حين تسكن إلى مخدعها ، وحين تكون بعيدة
عن عيون الرقيب ، لعلها ترق ، أو ترحم ، أو تلين .

فى هذا اللبيب من العاطفة ، وفى هذا الصدق من الشعور ، وفى هذه النجوى
تقرأ نوعاً من الغزل ، لم يتخذه الشاعر بضاعة وصناعة ، ولم يتخذه للهو والمجون ، بل
اتخذه ليكون وحي إحساسه ، وترجان شعوره . وهو إحساس الحب ، وشعور الغرام .

على أن نوعاً آخر من الغزل جدّ فى هذا العصر ، وكانت له ثمار طيبة - هو الغزل
المسرحى .

إذ قام جماعة من الشعراء بتأليف روايات مسرحية شعرية ونثرية ، وكان للغزل
فيها الحظ الوافر .

ومن هذه الروايات الشعرية : مجنون ليلي ، وكليوباترة - لأحمد شوقي -
والعباسة - لعزیز أباظة - ، وعفراء - لفريد العروسى - ، وولادة - لعلی عبد العظيم .

يقول أحمد شوقي : فى رواية مجنون ليلي

ابن عوف (١) :

لا تكتبُ وتعال يا قيسُ استرخ
مما تكابد فى الهوى وتلاقى
قيس :

هل أنت آسى يا أمير جراحتى
أم أنت من سحر الصباية راق ؟
ابن عوف :

بل من روائك قيسُ من زمن مضى
لم أخلُ قيسُ عليك من إشفاق

قيس :

قل للخليفة يا ابن عوف في غدٍ
هدرت حكومته دمي فتحرشت

ابن عوف :

أرضيني عند الخليفة شافعا ؟

يا قيس

قيس في أنفة :

لا والواحد الخلاق

بل عند ليلى فامض فاشفع لي لدى
جئها فذكرها المهود وحفظها
ليلى إذا هي أقبلت حقنت دمي
كرما وفكت يا أمير وثاق

ويقول على عبد العظيم : في رواية ولادة - بين ولادة ووصيفتها - :

ولادة :

ما للسعادة في الدنيا ومن صفرت
ما قيمة العمر أطويه مدلهمة

عتبة :

داويه بالحب وأستجلى مباحه .

ولادة :

وهل يحب جريح القلب مضناه ؟

عتبة :

لولا الهوى ما انطوت نفس على أمل

ولادة :

وهل عرفت الهوى يا عتب

عتبة :

لقد ألمات الهوى قلبي وأحياء
إني عرفت الهوى مذ كنت يا فمة

والهفا

ولست مهما تراخي العمر أنساه

ولادة :

من لى بكفء قوى أستعين به على الخطوب ، ويهوانى وأهواه ؟
تنضر العيش فى قلبى ابتسامته وتسكب الحب فى عينى عيناه
وإن ألت خطوبٌ بات يكلؤنى وإن أناخت هموم بت أراعاه
وقد تهيب عشا راقصا مرحا أفرأخنا الزغب تحبو فى زواياه
هتافها فيه « يا أمى » « ويا أبى » فما أرق أبى منها وأماه

* * *

ولعلك عرفت أيها القارىء الكريم صورة عن الغزل فى هذا العصر ، وصورة
عن الغزل فى سائر العصور ، وعرفت أنه غزل كريم لاعتبث فيه ولافساد ، بل فيه عاطفة ،
وفن وذوق ، وأدب . يؤذن بخير ونهضة ، وصل إليها العرب بعد جهاد طويل ، فى
سبيل الحرية والاستقلال ، فأبلاوا البلاء الحسن ، حتى كان لهم هذا النجح والتوفيق .
ومن ثم تفتحت الأزهار ، وتيقظت العقول ، إلى حياة جديدة ، فيها بعث ، وفيها
نشاط ، وفيها ثروة . ولم يتخلف الأدب عن هذه الحياة ، بل كان مذكيا وموحيا ،
ثم كان عنوانها وترجمانها .

وإنى على يقين أن سيكون للعرب أدب رفيع ، يمثل هذا النضج الذى وصلوا
إليه ، وسيصلون إليه قويا ، رائعا ، فى العلم ، والفن ، والسياسة .
وأرجو أن يكون هذا قريبا .

بفضل ما حبانا الله من دور العلم ، وفى مقدمتها الأزهر ، وجامعتا فاروق الأول ،
وفؤاد الأول ، ومن بينها دار العلوم التى أسبغت على اللغة والأدب ثوب اليقظة ،
وثوب القوة . ودور الثقافة ، وهى فى مصر ، وفى الأقطار العربية كثيرة العدد ، قوية
البناء ، تقدم بين يدى القارئ والقارئين ألوانا جديدة من الكتب المؤلفة ، والمترجمة ،
ومن بينها « لجنة البيان العربى » التى أنشئت منذ عام ، تحقيقا لهذا الهدف النبيل ،

الذى نرجوه ، ونصبو إليه ، وعلى رأسها رجل العروبة والإسلام الأستاذ الجليل محمد على علوبة باشا . بفضل الجمع اللغوى الملكى ، وجامعة الدول العربية ، وسائر الجماعات والأندية العلمية والأدبية . وبفضل المذيع ، والصحافة والمجلات .

بل بفضل هذا التراث الكريم الذى خلفه لنا العرب الأولون . وأرجو أن نستخرج منه ألواناً من الخير ، والفائدة ، فى جميع مظاهر الحياة . فالأهم الكريمة لآتينا إلا إذا وصلت حاضرها بماضيها ، ووصلت مستقبلها بحاضرها . وبهذا يكون البناء سليماً ، متمسكاً ، مستمداً من وحى التاريخ ، فينمو ، ويقوى ، ويرتفع على قدر ما يبذل أبناؤه من جد ونشاط . فلم لانصل حاضرنا بماضيها ؟ وفى ماضيها مايسمو بنا ، وفى ماضيها مانعز به ونفخر .

ورعى الله هذا الأدب الجليل الذى خلقه لنا هؤلاء الأدباء . ورعى الله هؤلاء الشعراء الأجداد ، الذين نفحنوا بهذا الجمال من الألفاظ ، والمعانى .

ورعى الله شعراءنا فى هذا العصر ، وقد كانوا صلة الأدب بين الحاضر والماضى ، وحملوا هذه الرسالة الكريمة فما ونوا ، ولا قصرُوا . وأدباءنا ، وقد بسطوا بين أنظارنا هذا الشعر ، فنقدوه ، ونثروا درره ولآله .

ومن توفيق الله أن هيا الله لبلاد العرب ملوكاً وحكاماً ، حملوا لواء النهضة ، وأذكوا فيها أسباب القوة . وفى مقدمة هؤلاء فاروق مصر ، ولنا بل وللعرب جميعاً من روحه السامى ، ومن رأيه السديد ، ومن شبابه الفتى ، ومن طموحه الوثاب — ما يبشر بالخير ، وتحقيق الآمال .

أطال الله عمر الفاروق . وبسط للعرب والمسلمين على يديه ، وعلى أيدي عاهلينا الكرام ، ورجال الرأى والفكر فينا — كل أسباب الرفعة والمجد .

إنه سميع مجيب ؟

مراجع الكتاب

- ١ — الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني : من الجزء الأول إلى العاشر — طبع دار الكتب . وما بعد ذلك طبعة قديمة .
- ٢ — الأملى لأبي علي القالى — طبعة دار الكتب .
- ٣ — نهاية الأرب للنويرى — طبعة دار الكتب .
- ٤ — العقد الفريد لأحمد بن عبد ربه — طبع المكتبة التجارية .
- ٥ — عصر المأمون : للدكتور أحمد فريد رفاعى — مطبعة دار الكتب .
- ٦ — معجم الأدباء : لياقوت الرومى — عشرين جزءاً .
- ٧ — زهر الآداب : لأبى اسحق الحصرى — المطبعة الرحمانية . شرح وتعليق الدكتور زكى مبارك .
- ٨ — البيان والتبيين : للجاحظ .
- ٩ — ديوان الحماسة لأبى تمام الطائى — مطبعة السعادة .
- ١٠ — المفضليات : للضبي — الطبعة الأولى سنة ١٩٢٦ م .
- ١١ — الشعر والشعراء : لابن قتيبة :
- ١٢ — عيون الأخبار : لابن قتيبة .
- ١٣ — المزهر : للسيوطى — الطبعة الأولى سنة ١٩٢٥ هـ .
- ١٤ — المختص : لابن سيده — طبعة بلاق سنة ١٣١٦ هـ .
- ١٥ — مقدمة ابن خلدون .
- ١٦ — المستطرف فى كل فن مستظرف : للأبشهى .
- ١٧ — تزيين الأسواق : المطبعة الأزهرية المصرية سنة ١٣٠٨ هـ .
- ١٨ — تاريخ آداب اللغة العربية : لجورجى زيدان .
- ١٩ — الوسيط : لأحمد الاسكندرى .
- ٢٠ — حديث الأربعة : للدكتور طه حسين بك .
- ٢١ — نضح الإسلام : للأستاذ أحمد أمين بك .
- ٢٢ — بلاغة العرب فى الأندلس للدكتور أحمد ضيف .
- ٢٣ — شاعر الغزل : للأستاذ عباس محمود العقاد .

الدواوين الشعرية :

- ٢٤ — ديوان المتنبي : شرح وتعليق البرقوقى .
- ٢٥ » البحترى : طبعة هندية سنة ١٩١١ م .
- ٢٦ » ابن الرومى : اختيار الأستاذ كامل كيلانى .
- ٢٧ » عمر بن أبى ربيعة : طبعة بيروت .
- ٢٨ » اسماعيل صبرى .
- ٢٩ » محمد عبد المطلب .
- ٣٠ » أحمد شوقى .
- ٣١ » حافظ ابراهيم .
- ٣٢ » خليل مطران .
- ٣٣ » عبد المحسن الكاظمى .
- ٣٤ » المواقب — جبران خليل جبران .
- ٣٥ » محمد رضا الشيبى .
- ٣٦ » على الجارم بك .
- ٣٧ » معروف الرصافى .
- ٣٨ — دراسة أدبية لشاعر العراق — معروف الرصافى — للأستاذ بدوى طبانة
- ٣٩ — ديوان هدية الكروان للأستاذ عباس محمود العقاد .
- ٤٠ » وحى الأربعين »
- ٤١ » أعاصير مغرب »
- ٤٢ » الملائط : طبعة بيروت .
- ٤٣ » هكذا أغنى : للأستاذ محمود حسن اسماعيل .
- ٤٤ » أحلام النخيل : للأستاذ عبد العزيز عتيق .
- ٤٥ » الهوى والشباب للأستاذ أحمد عبد الغفور عطار .
- ٤٦ » أشواق : للأستاذ محمود أبو الوفا .
- ٤٧ — مسرحية : مجنون ليلى : أحمد شوقى .
- ٤٨ » ولادة : للأستاذ على عبد العظيم .

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٨٥	الفصل الأول : رقة الحس	١	المقدمة
٩٧	» الثاني : سعة الحياة		الباب الأول :
١١٥	» الثالث : الطموح		معنى الغزل وألفاظه
١٢٢	» الرابع : التضحية	٧	الفصل الأول : معنى الغزل
١٣٣	» الخامس : الصبر	٩	الفصل الثاني : ألفاظ الغزل
١٣٧	» السادس : الوفاء		الباب الثاني :
	الباب الخامس :		نشأة الغزل — دواعيه
١٥٢	تطور الغزل	١٢	الفصل الأول : نشأة الغزل :
١٥٣	الفصل الأول : الغزل بالمذكر		الفصل الثاني : دواعي الغزل
	» الثاني : أقسام الغزل :	١٥	١ — بيئة العربي وطبعه
١٥٨	١ — الغزل الصناعي	١٦	٢ — اختلاط الرجل بالمرأة
١٦٧	٢ — الغزل العذري	٢٦	٣ — أسواق الأدب
١٧٦	٣ — الغزل الماجن	٣٧	٤ — مظاهر الترف :
١٩٢	الفصل الثالث : شعراء الغزل	٤٠	أ — الشباب
١٩٢	في العصر الجاهلي	٤٣	ب — الجوارى
١٩٥	في صدر الإسلام والعصر الأموي	٤٩	ج — الفناء
٢٠٤	في العصر العباسي		الباب الثالث :
٢١٨	في العصر الحديث :	٦٦	شفف العرب بالغزل
٢٢٢	دواعي الغزل		الباب الرابع :
٢٤٢	شعراء الغزل		أثر الغزل
٢٧٧	أغراض الغزل	٨٢	

فهرس الأعلام

أبو بكر الصولي : يصف رقة الغناء ٥٧ — ١٩
أبو دهل : يتغزل في عمرة ٣٦ — ١ ، وفي
عاتكة بنت معاوية بالحج ٧٢ — ١٠
أبو الشيبس : يتغزل في جارية سوداء ٤٨ — ١٩
أبو صخر الهذلي : يرضى بتجنيتها لأنه لا يقدر
على هجرها ٩١ — ٥ ، حلاوة الحديث
٩٤ — ١٧
أبو العتاهية : ينصرف عن الغزل ويريد الرشيد
أن يتغزل في أبي ، فيحبسه ٤٢ — ٨
أبو عينة : يتغزل في — أمان — الجارية ٤٩ — ١
أبو الفضل الميكالي : الصبر على حكم الرقيب
١٣٥ — ١١
أبو نواس : يحج ليرى « جنان » ٢٥ — ١٣
يتغزل في جنان ٤٩ — ٧ ، من
غزله ١١٠ — ١ ، يحج ليجتمع بجنان
١١٧ — ٦ ، يتغزل بالمذكر ١٥٣ — ١٦ ،
يتغزل في أول قصيدة مدح ١٦٢ — ١٠ ،
يصف الحر ٢٠٧ — ١٢
أبو نوفل : أهل الرقة لا يسلون من الشق
٨٢ — ١٤
أحمد بن أبي داود : يطرب للغناء ٥٢ — ٣
أحمد رامي : من غزله الفنائى ٢٣٣ — ٥
أحمد شوقي : يتغزل في أول قصيدة مدح
١٦٣ — ١٨ ، من غزله الفنائى
٢٣٣ — ١٣ ، يبدأ بوصف الحر
٢٤٥ — ١٣ ، من غزله ٢٤٦ — ٣ ،
٢٤٧ — ١ ، من مسرحية مجنون ليلى
٢٨٢ — ١٣
أحمد ضيف : النساء منبع الشعر ٨٣ — ٣
أحمد عبد الغفور : من غزله ٢٨٠ — ١٧
الأحوص : في مجلس نساء ٢٩ — ١٥ ،

١
إبراهيم الموصلى : يعفو عنه الرشيد لحسن غنائه
٥٤ — ١٦ ، يتغزل في ذاته الحال ويعنى
٦٣ — ٢ ، من تجني الحبيبة ١١٣ — ١٣
إبراهيم بن المدبر : يتغزل في عريب ٦٣ — ١٥
ابن الأعرابي : حلاوة الحديث ، لا يطيع العواذل
١٤٦ — ٤
ابن خلدون : بلاد العرب لا تبت زرعاً ١٥ — ٧
ترف الأمم الغالبة ٣٨ — ٢٠ ، معنى
الغناء ٤٩ — ١٧ ، دواعى الغناء ٥٦ — ٣
ابن دريد : أكثر الحروف استعمالاً عند العرب
١٠ — ٢١
ابن الدمينة : في الوفاء ١٤٥ — ١٣
ابن رامين : عرض الجوارى في منزله ٤٣ — ١٨
ابن الرومي : يتغزل في وحيد الغنية
٦٤ — ٢ ، وفي مظلومة ٦٤ — ٧ ،
يبدأ الهجاء بالغزل ٦٧ — ٩ ، من تجني
الحبيب ٨٩ — ١١ ، ٩١ — ٩ ، حلاوة
الحديث ٩٤ — ٢٠ ، لا مزيد في حسنها
ولا في هواها ١١٨ — ٤ ، يتغزل
بالمذكر ٢٢٠ — ١٦
ابن زبدون : من غزله ٩٠ — ٥
ابن سريج : يعنى في طريق الحج ٥١ — ٦ ،
يعنى سليمان بن عبد الملك في الحج ٥٤ — ١٠
ابن قتيبة : العلة في بدء القصائد بالغزل ٦٧ — ٥
ابن مأكولا : تعود الصبر لكثرة هجرها لياها
١٣٦ — ١١
ابن ميادة : يتغزل بزينب ١٨ — ٨ ، النساء
اللائى تغزل بهن ٢٠٢ — ١٦
ابن هاني : يتغزل في قصيدة مدح ١٦٣ — ٣

١٥٤ — ١ ، يتنزل في أول قصيدة

مدح ١٦١ — ٩ ، ٢١٦ — ٤

بشار : اجتماعه بالنساء في منزله ٣١ — ٢٠ ،

يتنزل في جارية ٤٩ — ١٢ ، يتنزل

في أول قصيدة مدح ٦٧ — ٢٠ ،

١٦٢ — ٦ ، يحتال ليقول غزلا

٧٧ — ١٨ ، من غزله ٨٦ — ٣ ،

من غزله في عبدة ٩٣ — ٢٠ ، في الوفاء

١٤٥ — ٨ ، في وصف الحر

٢٠٧ — ١ ، من غزله المساجن

٢١١ — ٤

بصبص — جارية ابن نفيس : أدبها وغناؤها

٤٤ — ١٤ ، غزل ابن ذى الروائد فيها

٦٢ — ١٢

ت

توبة بن الحبر : مخاطرته في زيارته ليلي ١٠٧ — ٢١

من غزله فيها ١٩٨ — ١٧

ث

عمامة بن أشرس : غناء المرأة الجميلة ممتع

٥٧ — ٤

ج

جبران خليل جبران : الحب ٢٠٧ — ٢

جرير : يخاطب الديار في أول قصيدة ١٦٠ — ٩

جميل بن معمر العذري : عرف صاحبه بشينة

في المرعى ١٨ — ١٣ ، من غزله في الحج

٢٥ — ٢١ ، يعنى بأبيات قالها ٧٤ — ٨ ،

بشينة تدبه عند موته ٧٤ — ١٣ ،

جميل وكثير يتناشدان شعرهما ٨٨ — ٣ ،

جميل وعمر بن أبي ربيعة يتناشدان

شعرهما ٨٨ — ١٥ ، من غزله في

بشينة ٩٢ — ٤ ، يحتال في زيارة بشينة

١٠٣ — ١٢ ، يجهل نفسه في سبيل

٣٤ — ٩ ، يمدح سلامة القس بشعر

وتنقى به ٦١ — ١٥ ، يتنزل في سلامة

القس ٩٤ — ٧ ، غزله في أم جعفر

٢٠٠ — ١ ، وفي سلامة القس

٢٠٠ — ٧

إسحاق الموصلي : يعنى برثاء في الرشيد

٦٠ — ٥ ، القلب يطيع دعاء الهوى

٩٠ — ٢٠

إسماعيل بن إسحاق الأزدي : يتنزل بالمدح

١٥٥ — ١٣

إسماعيل بن عمار : يصف الجوارى ٤٣ — ١٩ ،

يتنزل في أول قصيدة مدح ١٦٣ — ٩

إسماعيل بن الهريذ : تأثير الغناء ٥٣ — ٢ ،

يعنى فيحسن الغناء ٥٣ — ٢١

إسماعيل صبرى : يصف الحر في أول قصيدة

مدح ٢٥٩ — ٢ ، يتنزل في أول قصيدة

مدح ٢٥٩ — ١١

أشجع السلمي : يمدح الرشيد وينشده المدح تاركا

النسب خوف فوت الصلاة فيطلب الرشيد

إنشاد النسب ٦٨ — ٨

الأعمى التطيلي : النظر بالعقل ، والسمع بالقلب

١١٣ — ٧

أمرؤ القيس : أحسن ابتداء قصيدة في الجاهلية

٦٧ — ١٤ ، في مجلس نساء ينهن عنيزة

٧١ — ١٠ ، مخاطرته في سبيل لقاء

الحبيبة ١٢٩ — ٢ ، بدء معلقته

١٥٩ — ١٦ ، غزله في عنيزة

١٩٣ — ١٣

أم كلثوم : من أغانيها باللغة العربية ٢٣٢ — ١٦ ،

٢٣٣ — ٥ ، وباللغة العامية ٢٣٦ — ١٦

أمية بن عبد العزيز : يتنزل بالمدح : ١٥٥ — ٧

ب

البحترى : من غزله ٨٩ — ١٨ ، يتنزل بالمدح

قيس بن ذريح : أول لقائه لبني ٢١ — ٣ ،
يستشفع بالحسين بن علي في زواجه بها
٧٥ — ٨ ، من غزله ٩١ — ١٩ ،
يحتال ليزورها ١٠٠ — ١١ ، محاورته
للقاهها ١١٧ — ١ ، تعلق روحيهما
١٢٠ — ١٣ ، أثر فراقها ١٢٦ — ٦ ،
صبره على فراقها ١٣٥ — ١ ، مصابه
في فراقها ١٣٦ — ٩ ، من وفاته
١٤٠ — ٢٠ ، من غزله ١٩٧ — ٢٠

قيس بن الملوّح : مجنون ليلي : عرف ليلي وها
يرعيان ١٨ — ٥ ، خير الدنيا بالحب
٦٦ — ٩ ، يبكيه النساء عند موته
٧٣ — ٢٠ ، يطلق وثاق ظيئة يشبهها
بليلى ٨٦ — ١٤ ، غيرته على ليلي
١٠٦ — ٧ ، يحتال لقاها ١١٣ — ١٦ ،
يعيب تزويج ليلي ١١٩ — ٧ ، جنونه
في سبيلها ١٢٥ — ١ ، عذابه في حبها
١٢٧ — ٥ ، يقاب إذا كان خصمه بعيداً
عن حبيبته ١٣٢ — ٩ ، الصبر في سبيل
الحب ١٣٤ — ١٢ ، الابتلاء بحبها
١٣٦ — ٧ ، من وفاته ١٣٧ — ١٨ ،
غزله في ليلي ١٩٧ — ١١

ك

كثير : عوامل الشعر ١٥ — ١٥ ، أول معرفته
عزة ١٩ — ١١ ، من غزله في الحج
٢٦ — ٣ ، ضرورة العشق ٦٦ — ١٢ ،
يتغزل في جارية أم المؤمنين بنت عبد العزيز
ابن مروان ٧٢ — ٢ ، يبكيه النساء عند
موته ٧٣ — ١٠ ، غلامه يبيع عزة سلعة
ولا يتقاضاها الثمن ٨٧ — ٧ ، يتناشد
وجيل شعريهما ٨٨ — ٣ ، حلاوة
الحديث ٩٥ — ٥ ، من وفاته
١٠٥ — ٢١ ، يطلب نوالها ١١٨ — ٩ ،

يتناشد وجيل شعريهما : في الغزل
٨٨ — ١٥ ، في انقراق ٩١ — ١٥ ،
حلاوة الحديث ٩٥ — ٢ ، تبالهن بالعرفان
لأرائينه ٩٨ — ٧ ، يحتال في زيارة كاتم
١٠١ — ١٦ ، علامته في إعلامها بالموعد
ناشد ينشدها ١٠٤ — ١٥ ، يودع
الثريا ١٠٧ — ١٢ ، فطنة الحبيب
١١٣ — ١٩ ، وفاؤه ١١٧ — ٣ ،
رجاء الحب ١١٨ — ٧ ، يتغزل في زينب
بنت موسى ١١٩ — ٤ ، من تاريخه
وتحليل شعره وعن تغزل من
١٧٧ — ١٠ إلى ١٩١

عمر بن عبد العزيز : يعيب على نصيب غزله
٧٨ — ١٤

عنزة : يرضى حبيبته بشجاعته ١٣٧ — ١ ،
أول معلقته ١٦٠ — ١ ، غزله في عبلة
١٩٤ — ١٢

عنات : تقول شعراً تغني به ٤٥ — ٨ ،
٤٥ — ١٢

غ

غيلان الثقي : لغة النسيب ٦٦ — ١٠

غاضرة : تكافئ شعراء الغزل ٧١ — ٣

ف

فايد العمروسي : من صباية الهوى ٢٨٠ — ٨
الفتح بن خاقان : يتغزل في المذكر ١٥٥ — ٣
الفرزدق : من أشعر الناس ٣٥ — ٤ ، في الفخر
٣٦ — ١١ ، مخاطب الديار في أول
قصيدة ١٦٠ — ١١

ق

القس : يمدح سلامة ٦١ — ١٠ ، ٦٣ — ٢٠
القطامي : يبدأ القصيدة بالغزل ٦٧ — ١٨ ،
مخاطب الأطلال ١٦٠ — ١٦

المتنبي: يتغزل في أول قصيدة مدح ١١٦-١٩،
٢١٥-١٧

معاوية: ينهى عن الغزل بالنساء ٧٧-٨
معبد: تأثير الغناء ٥٢-١٣

المعتمد بن عباد: وصف مجلس النساء ٣٧-١١
معروف الرصافي: يصف مجلس هو ٢٥٦-٤
يتغزل في جميع الغواني ٢٥٦-١٠ في
الغزل بالمذكر ٢٥٧-٥، في الوداع
والاستعطاف ٢٥٧-١٠

المهدي: حلاوة حديث النساء ٦٦-١٦،
ينهى بشاراً عن الغزل ٧٧-١٨،
يضرب أبا العتاهية لعشقه ٧٨-١٠

ث

الثابتة الديباني: أول معلقته ١٦٠-٤

ج

هرون الرشيد: يهوى ثلاث جوار ٤٨-١،
إعجابه بالغناء ٥٣-١٦، ٥٤-١٦،
يستقبل الشعراء بالرقعة ٦٨-٨، يروقه
الغزل ويؤدب به ولديه ٨٢-٦

ي

يزيد بن ضبة: يطلب منه الوليد بن يزيد أن
يبدأ بالغزل قصيدة وصف ٥٩-٢،
في الوفاء ١٦١-٢

يزيد بن الطيرة: يتغزل بوحيه ١٨-١٩،
براه الحب ٨٩-١٥، الحبيبة تحب
الشجاع ١٣١-٤، من غزله في وحيه
١٩٩-١١

يزيد بن عبد الملك: شغفه بحبابة الغنمية
٥٤-٦

يطلب العلالتحمده ١٢١-٤، تضعيته

في سبيلها ١٢٨-٣، الصبر في سبيل
حبها ١٣٤-١٩، من غزله في عزه
١٩٩-٣

كعب بن زهير: ينشد بين يدي الرسول غزلاً
١-٧٥

ل

لبنى: صاحبة قيس بن ذريح: انظر قيس بن ذريح
ليلي الأخيلى: من وفائها: ١٤٤-٢١
ليلي—صاحبة قيس بن الملوح—المجنون: انظر
قيس بن الملوح

م

المأمون: يكرم شعراء الغزل ٦٨-٢١
محرز المكي: ذكر الغواني ٦٦-٥، مكان
حبيته النجم ١١٨-١

محمد بن احمد الكاتب: يتغزل في المذكر ١٥٦-٢
محمد رضا الشيبني: سائحة في الحب ٢٦٢-١٨،
محنة الحب ٢٦٣-٨ يتغزل في أول
قصيدة ٢٦٣-١٥

محمد اليزيدي: يغنى بسعره في المدح ٥٩-١٤،
محمد عبد المطلب: يبدأ قصيدة مدح بالغزل
١٦٤-٥

محمد عبد الوهاب: من أغانيه ٢٣٣-١٢
مرداس بن همام: يقتله الهوى ٩٢-١٥

المرقس الأكبر: من غزله في أسماء ١٩٤-٢
مروان بن أبي حفصة: يصف جارية ٤٥-٢٣
محمود أبو الوفا: يحن للطير لأجل الحبيبة
٢٨٠-١٣

محمود حسن اسماعيل: يصف حمامات البحر ٢١٧-١١
أغانيه من حبها ٢٧٩-٨

تصويب

مهما جهد المؤلف في أن يكون التأليف خالياً من الأخطاء المطبعية ، فإنه لابد من وقوع بعضها ، وهي لا تنحفي على القارئ اللبيب . ولكن يحسن الإشارة إلى الأخطاء الآتية :

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٤	٥	بن	ابن
١٨	٧	البهم	البهم
»	١١	أوقدت	أوقدت
١٩	١٤	يقلن	هكذا في الرواية والفصيح يقول
٣١	١٧	إنا	أنا
٣٤	٢١	كل	كل
٣٦	١٦	السماء	السماء
٤٠	١١	المتقدمة	المتقدمة
٤١	٢١	الحيلة	الحياة
٤٩	١٠	الماضية	الماضين
»	١٤	بن	بين
٥١	٢٠	أن	إن
٥٣	٢١	الرشيدى	الرشيد
٥٣	٤	فأعطاها	فأعطاها
٥٧	١٥	تحب	تحت
٨١	٤	في عصر	في كل عصر
٩٨	٣	يعيشون	يعبسون
٩٩	١٧	فرفع	فدفع

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١١٣	١٢	مَلَّتْ	مَلَّتْ
١١٨	١٢	وَلَا	وَقَدْ
١٣٤	٤	حَزَبُهم	حَزَبُهم
١٧٤	١٧	وَلَيَنْظُرْ	وَلَيَنْظُرَا
١٩٧	٩	عَنْهُمَا مَا	عَنْهُمَا
٢٠٣	١	أَجَلُهَا	أَجَلُهَا
٢٠٤	١٨	نَحْنَا	نَحْنَا
٢٠٦	٨	لَتَقَالِيدُهُمْ	لَتَقَالِيدُهُمْ
٢١٠	٢	تَلْعُ	تَلْعُ
»	»	ظِيْبِيَّة	ظِيْبِيَّة
»	٤	حَاسِدُنَا	حَاسِدُنَا
»	١١	نَعْمَة	نَعْمَة
٢١٤	١٢	مَطِيْعَا	مَطِيْع
٢١٥	١٨	وَاللّٰه	وَاللّٰه
»	١٩	أَرْسَلْنِ	أَرْسَلْنِ
٢١٦	١٣	لَهُ	لِي
» هامش	٢ هامش	ج ٧	ج ١
٢١٧	٣	أَغْلَقْتُ	أَغْلَقْتُ
٢٣٨	٣	اَنْشَعَال	اَنْشَعَال
٢٤٩	١٢	تَعْمَشُوا	تَعْمَشُوا
٢٥٢	١٣	أَيْهَا	أَيْهَا

كتب اللجنة

بعد تكوين اللجنة أصدرت في هذه الفترة الوجيزة — عدا الكتب المدرسية المقررة — الكتب الآتية : وتطلب جميع هذه الكتب من مكتبة عيسى البابي الحلبي بسيدنا الحسين بالقاهرة :

رقم	اسم الكتاب	اسم المؤلف	محتويات الكتاب
١	يسألوك	الأستاذ عباس محمود العقاد	يتحدث عن كثير من المشكلات الاجتماعية والأدبية ، التي ينسأل الإنسان عنها . ويجد في هذا الكتاب الجواب الحازم السديد يقع في ٢٧٢ صفحة وثمنه ٢٥٠ مليا عدا البريد .
٢	أثر الشرق في الغرب	الدكتور فؤاد حسنين المدرس بكلية الآداب جامعة فؤاد الأول	ترجم عن مستشرق الماني رفع من شأن الشرق ووصف حضارته في مختلف النواحي . عدد صفحاته ١٢٨ وثمنه ١٥٠ مليا .
٣	قصة الكيمياء والاسلوكي	الأستاذ محمد عاطف البرقوقي المفتش العام للعلم بوزارة المعارف	يتحدث عن قصص علمائها ، وتطور مخترعاتها ومواصلاتها السلوكية والاسلوكية . الرادار في الحرب والسلام . محلي بصور العلماء والمخترعات . عدد صفحاته ٢٥٦ . وثمنه ٢٥٠ مليا .
٤	مشكلاتنا الاجتماعية	الأستاذ محمد عطية الإبراهيمي المراقب العام المساعد للتعليم الحر بوزارة المعارف	يتحدث عن كثير من المشكلات الاجتماعية ، لاسيما مشكلات الفقر والجهل والمرض . فيه تحليل دقيق لكثير من أدوائنا الاجتماعية وعلاج حكيم حازم لها . عدد صفحاته ١٦٦ وثمنه ٢٠٠ مليا .
٥	الحبشة	الأستاذ حسن محمد جوهر مراقب منطقة قنا التعليمية	يتحدث عن الحبشة : تاريخها ، جغرافيتها ، أديانها ، أعيادها ، حكمها ومحاكمها ، لغتها سكانها ، المرأة الحبشية ، معلومات شائقة عن قطر شرقي من أقطار الوادي . محلي بالصور والخرائط . عدد صفحاته ١٦٠ وثمنه ٢٠٠ مليا .